الرائـــد
الجزء الرابع

نصيحة

النصيحة

أولاً : دلالة المصطلح :

أ- لغة :

● قال ابن منظور - رحمه الله - : ((نَصَحَ الشيءُ ، خَلَصَ ، والنَّاصِحُ : الخالص من العمل وغيره ، وكل شيء خَلَصَ ، فقد نَصَحَ . والنصح : نقيض الغِش . ويُقال : نصحتُ له نصيحتي نُصوحًا ، أيْ : أخلَصتُ وصَدقتُ ، والاسم النصيحة . قال : ورجل ناصح الجيب : نقي الصدر ، ناصح القلب لا غشَّ فيه)) [1] .

● قال ابن فارس - رحمه الله - : ((نصح : النون والصاد والحاء أصل يدلُّ على ملاءمته بين شيئين وإصلاح لهما . أصلُ ذلك الناصحُ : الخيّاط . والنصاح : الخيط يخاط به ... إلى أن قال : والنصح والنصيحة خلاف الغش . والتوبة النصوح منه كأنها صحيحة ليس فيها خرق ولا ثُلْمَة . وناصِحُ العسل : الخالص الذي لا يتخلّله ما يشوُبه . ونصحت له ونصحتُه بمعنىً .. وقميص منصوح : مَخِيط)) [2] .

● قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - : ((وقيل النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه ، فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب)) [3] .

وتبين مما تقدم أن النصيحة تضمنت العديد من المعاني : كالإخلاص ، والصدق ، والإصلاح ، والصحة ، والنقاء ، والملاءمة بين أمرين .. وكلها معان مطلوبة وآداب منظورة ؛ لكي تؤتي النصيحة ثمارها ، وتظهر آثارها .

ب - اصطلاحًا :

● قال ابن الأثير - رحمه الله - : ((النصيحةُ كلمةٌ يُعَبَّرُ بها عن جملةٍ ، هي إرادةُ الخير للمنصوح له)) [4] .

● قال الراغب الأصفهاني - رحمه الله - : ((النُّصْحُ : تَحَرِّي فعل أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبه)) [5] .

---

(1) ملخص بتصرف في لسان العرب : ٥ / ٤٤٣٨ .
(2) معجم مقاييس اللغة : ٥ / ٤٣٥ بتصرف .
(3) شرح صحيح مسلم : ٢ / ٣٧ .
(4) لسان العرب : ٥ / ٤٤٣٨ ، وهي أيضًا مروية عن الإمام الخطابي - رحمه الله - في معالم السنن : ٤ / ١٢٥ .
(5) مفردات ألفاظ القرآن : ٨٠٨ ، راجع أيضًا القاموس المحيط : ١ / ٢٦١ ، والجامع لأحكام القرآن : ٤ / ٢٣٤ .

- قال أبو عمرو بن الصلاح : ((النصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً)) .

العلاقة بين المعنيين (١) :

إذا نظرت في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ، وجدت أن العلاقة بينهما تتمثل في سدِّ النقص ، وتخليص النفس من الشوائب ؛ فكما أن نصح الثوب هو خياطته ، ونصح العسل هو تخليصه مما يشوبه ؛ كذلك فإن نصح المرء في تكميل نقصه ، وتصفية نفسه مما علق بها من الشوائب والذنوب .

وإذا نظرت إلى حقيقة النصيحة وجدت أنها على ضربين :

١ – **تكميل نقص** : وهذا في حق العباد الذين يصيبهم النقص ، وتقع منهم الأخطاء والذنوب والآثام ، ويُتصوَّر منهم التقصير .

٢ - **وصف بالكمال** : وهذا في حق الله - تبارك وتعالى - وفي حق كتابه الكريم ، وفي حق النبي محمد ﷺ (أ . هـ) .

ج - المصطلحات المقاربة :

١ – الوصية :

الوصية : التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظٍ . قال الله تعالى : ﴿ **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ** ﴾ (٢) . قال ابن حجر - رحمه الله - في معنى الوصية : ((ما يقع به الزجر عن المنهيات والحث على المأمورات)) (٣) . [وهناك معنى آخر للوصية ، وهي عهدٌ خاص مضاف إلى ما بعد الموت ، وقد يصحبه التبرع ، وعرّف صاحب المغني هذا النوع فقال : ((هي التبرع بالمال بعد الموت ، وقد عقد الفقهاء لذلك باب الوصايا))] (٤) .

٢ – **التواصي** : مصدر قولهم : تواصى فلان وفلان ، أي : أوصى كلٌّ منهما صاحبه ، بمعنى عهد إليه ، وأوصى الرجل ووصاه بمعنىً ، والاسم من ذلك : الوصية والوصاة .

والتواصي اصطلاحًا : ((أن يوصي بعض الناس بعضًا بالعمل بكتاب الله ، وبطاعته

---

(١) فقه النصيحة : ٨ .
(٢) سورة البقرة [١٣٢] .
(٣) فتح الباري : ٥ / ٣٥٥ .
(٤) موسوعة نضرة النعيم : ص ٣٤٩١ .

، وبالانتهاء عما نهى الله عنه)) [١] .

العلاقة بين النَّصِيحَةُ وَالوَصِيَّةُ (الوَصَاة) وَالتَّوَاصي :

((بَيْنَ هَذِهِ الأمور الثلاثة تَقَارُبٌ فِي المَعنَى ، فَجَمِيعُهَا يُرَاعَى فِيه إِرَادَةُ الخَيرِ لِمَنْصُوح أوِ مُوصَى ، وَدُعَاؤُه إلى مَا فِيه صَلاَحُهُ ، بيدَ أن النصيحة يُراعى فيها قيدُ الإخلاص وَضدها الغشُّ ، أما الوصية فيراعى فيها المحبة والتأكيد ومزيد الاهتمام ، وكلاهما يقتضي طرفين : أحدهما مُعطٍ ، والآخرُ متلقٍّ ؛ فالمعطي هو الناصح أو الموصي ، أما المتلقي فهو المنصوح أو الموصي ، أما في التواصي فإن كلا الطرفين مُعطٍ ومُتلقٍّ في آنٍ واحدٍ ؛ لأنهُ يُوصي غيره ويُوصيهِ غيره في حال حياتهما)) [٢] .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من عرض هذا الموضوع إلى عدة أمور ، منها :

١ - إشاعة خلق التناصح في أوساط الدعاة ، وحثهم عليه ؛ ليكون عونًا للجميع على تصحيح الأخطاء ، ومعالجة العيوب ، واستدراك النقص ، وسد الخلل ؛ فالمؤمن مرآة أخيه المؤمن .

٢ - بيان أهمية النصيحة في الوسط الدعوي ، وضرورة تفعيلها بين الدعاة ؛ لتكون وسيلة ناجحة في الارتقاء نحو الأفضل ، والوصول إلى الأكمل .

٣ - التعريف بأساليب ووسائل النصيحة المؤثرة ، وبيان أهمية الأخذ بها ؛ لتؤتي النصيحة ثمارها ، وتحقق أهدافها ، وتصل إلى غايتها .

٤ - التذكير بخلق التواضع وقبول النصح ، وضرورة الاستجابة للحق ، وعدم ردِّه أو دفعه بالتأويلات الواهية ، والأهواء المردية ؛ فالحكمة ضالة المؤمن ، وهو حريص على الانتفاع بها ، ولو صدرت من عدوه وشانئة . فقد قال ﷺ لأبي هريرة - وقد نصحه الشيطان بقراءة آية الكرسي كل ليلة إذا أوى إلى فراشه - : ((**صدقك وهو كذوب**)) [٣] .

٥ - عرض نماذج من نصائح سلفنا الصالح لبعضهم بعضًا ؛ لتتضح الصورة العملية للنصيحة ، وليكون ذلك عونًا على الاقتداء بهم في التناصح فيما بيننا .

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٤٩١ ، وانظر أيضًا الفتح : ٥ / ٣٣٥ ، مقدمة كتاب الوصايا .
(٢) موسوعة نضرة النعيم : ص ٣٤٩٢ .
(٣) رواه البخاري .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- المعاني اللطيفة لكلمة النصيحة .
٢- حكم النصيحة .
٣- أهمية النصيحة في الدعوة .
٤- ضوابط النصيحة [النصيحة المؤثرة] .
٥- وسائل وأساليب النصيحة .
٦- وقفات مع حديث : ((إن الدين النصيحة)) .
٧- اطلب النصيحة من إخوانك .
٨- قبول النصيحة .
٩- نماذج من النصيحة في السُّنة .
١٠- نماذج من نصائح السلف .

رابعًا : العرض :

١ - المعاني اللطيفة لكلمة النصيحة :

تربط المعاني الواردة في اللغة في مادة نصح بما ينبغي أن يتأدب به الناصح . (انظر دلالة المصطلح) .

٢ - حكم النصيحة :

٢ - ١ : **ذهب الكثير من العلماء إلى أن النصيحة فرض كفاية** [بمعني إذا قام بها بعض المسلمين سقطت فرضيتها عن الآخرين] .

قال ابن بطال - رحمه الله - : ((والنصيحة فرض يجزي فيه عمن قام به ، ويسقط عن الباقين . قال : والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يُقبل نصحه ، ويطاع أمره ، وأمن على نفسه المكروه ؛ فإن خشي على نفسه أذىً فهو في سعة ، والله أعلم)) [١] .

وقال ابن مفلح : (قال حنبل : سمعت أبا عبد الله قال : عليه نصح المسلم . قال النبي ﷺ : ((**والنصح لكل مسلم**)) ، ومراده - والله أعلم - أنها فرض على الكفاية)) [٢].

٢ - ٢ : واجبة من غير طلب :

قال ابن مفلح - رحمه الله - : ((وظاهر كلام أحمد والأصحاب وجوب النصح

---

(١) شرح صحيح مسلم : ٢ / ٣٩ .
(٢) الآداب الشرعية : ١ / ٢٩٠ .

للمسلم ، وإن لم يسأله ذلك ، كما هو ظاهر الأخبار ، وقد روى الحاكم في تاريخه عن ابن المبارك أنه قيل له : التاجر يدخل عليه رجل مفلس ، وأنا أعرفه وهو لا يعرفه ؛ أأسكت أم أخبره ؟ ، قال : لو أن خناقًا صحبك وأنت لا تعرفه وأنا أعرفه ؛ أأسكت حتى يقتلك ؟ ! »[1] .

٢ - ٣ : الأدلة على وجوب النصيحة والحث عليها :

أ - قال ﷺ : « الدين النصيحة »[2] ، فجعل ﷺ الدين بمجمله هو النصيحة ، وفي هذا غاية البيان والدلالة على وجوب النصيحة مثل وجوب الدين [فقه النصيحة ، أحمد جاد ، ١٩] .

ب- قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : « بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »[3] ، « فهذا الحديث يفيد بعمومه أنه يجب أن ينصح المسلم لأخيه المسلم في جميع جوانب الحياة »[4] إذا قرنها بالصلاة والزكاة الواجبتين .

جـ- عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، قال : « **حق المسلم على المسلم ست** » ، ثم ذكر منها : « **وإذا استنصحك فانصح له** »[5] .

د - عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من عبد يسترعيه الله رعيةً فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة** »[6] .

هـ- عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« **ثلاث لا يُغل عليهنَّ قلبُ مؤمن : إخلاص العمل لله ، والنصيحة لولاة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تُحيط من ورائهم** »[7].

و - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعتَهُ ، ويحوطه من ورائه** »[8] .

٣ - أهمية النصيحة في الدعوة :

(١) الآداب الشرعية : ١ / ٢٩١ باختصار .
(٢) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، برقم : ٥٥ .
(٣) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : ((الدين النصيحة)) ، برقم : ٥٧ ، رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، برقم : ٥٦ .
(٤) النصيحة شروطها وضوابطها : ٣٦ .
(٥) رواه مسلم ، كتاب السلام ، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام ، برقم : ٢١٦٢ .
(٦) رواه البخاري ، كتاب الأحكام ، باب من استرعي رعية فلم ينصح ، برقم : ٧١٥٠ ، ورواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ، برقم : ١٤٢ .
(٧) رواه الترمذي (٢٦٥٨) وغيره ، قال ابن رجب إسناده جيد ، وهو في صحيح الجامع برقم : (٦٦٤٢) .
(٨) أبو داود (٤٩١٨) ، وهو في صحيح الجامع برقم : (٦٥٣٢) وحسَّنه .

٣ - ١ : إن النصيحة حق من حقوق الأخوة الإيمانية : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** ﴾[1] ، فبها يستصلح الخطأ ، ويسدد الخلل ، ويستدرك النقص ، وتشيع الفضائل ، ويتخلّى عن الرذائل ، وقد قال رسول الله ﷺ : ((**حق المسلم على المسلم ست**)) ، ثم ذكر منها : ((**وإذا استنصحك فانصح له**)) [سبق تخريجه] .

٣ - ٢ : إن النصيحة طريقة الأنبياء ووسيلتهم في الدعوة ، قال الله تعالى إخبارًا عن نوح - عليه السلام - : ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ** ﴾[2] ، أي : وأتحرى ما فيه صلاحكم قولاً وفعلاً ، وقيل : ((أبلغكم أوامر الله ونواهيه وأرغبكم في قبولها ، وأحذركم عقابه إن عصيتموه))[3]، وقال تعالى عن هود - عليه السلام - وهو يدعو قومه : ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾[4] .

٣ - ٣ : إن النصيحة من أبلغ وأفضل صور التواصي بالحق الذي وصف الله به عباده المفلحين حيث قال : ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾[5] .

٣ - ٤ : إن النصيحة مسلك السلف في استكمال تربيتهم لأنفسهم ؛ ولهذا فاضت سيرهم بالقيام بهذا الركن من أركان بيعتهم الإيمانية .

قال صاحب المنار - رحمه الله - : ((فالنصح العام ركن من الأركان المعنوية للإسلام ، به عزَّ السلف وبزوا ، وبتركه ذلَّ الخلف وابتزوا))[6] .

٣ - ٥ : النصيحة ضرورة أكيدة لحفظ الدين واستمراره ، وسلامة شرائعة ومبادئه ، وإهمالها يؤذن بزواله واندراسه وضعفه واندثاره ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : ((**الدين النصيحة**))[7] ثلاثًا .. فجعلها الدين كله ، ثم جعلها شاملة لجميع أصناف المسلمين ولكتابهم وقدوتهم ولعلاقتهم بربهم .

قال المناوي - رحمه الله - : ((قال غير واحد من العلماء هذا [الحديث] ربع

---

(1) سورة الحجرات [١٠] .
(2) سورة الأعراف [٦٢] .
(3) روح المعاني : ٨ / ١٢٥ .
(4) سورة الأعراف [٦٨] .
(5) سورة العصر [١ - ٣]
(6) تفسير المنار : ١٠ / ٥٨٧ ، عن فقه النصيحة في ظل الإسلام : ٢١ .
(7) سبق تخريجه .

الإسلام))[1] ، أي : أحد أحاديث أربعة يدور عليها الإسلام . وقال النووي - رحمه الله - : ((بل المدار عليه وحده))[2] .

٣ - ٦ : إن التناصح في طرائق الدعوة - أساليبها ومناهجها - من أهم أسباب سلامة السير ، والأمن من الانحراف ؛ وكل تجمع لا يتبنى التناصح ويشيعه بين أفراده العاملين ، فإنه على خطر عظيم من زيادة الأخطاء ونموها ، وظهور الإهداء وتكاثرها ؛ فيضلوا السبيل ، ويحصل الفضل .

وتوجيهات النبي ﷺ للدعاة في تسديد اجتهاداتهم تعتبر دليلاً واضحًا لما ينبغي أن يسلكه الدعاة في تناصحهم في هذا المجال . ومن أمثلة ذلك قوله لأصحابه الدعاة إذا بعثهم : ((**بشروا ولا تنفروا ، ويسِّروا ولا تعسِّروا**))[3].

٣ - ٧ : إن التناصح بين الإخوان من أعظم وسائل تصحيح الأخطاء ، وسد الثغرات ، وعلاج العيوب ؛ ولهذا تجد الشركات والمؤسسات التجارية تدفع مبالغ ضخمة لمراكز الأبحاث والمواصفات والمقاييس لبيان عيوب الشركة أو منتجاتها وطرق علاجها ؛ لتحقيق أعلى مستوى من الكمال . فكل داعية بحاجة إلى نصح إخوانه ، بل حتى الأنبياء بحاجة إلى هذا التناصح ، فقد قال الله - تعالى - في كتابه عن الرجل المؤمن ينصح موسى - عليه السلام - : ﴿ **إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾[4] .

٣ - ٨ : وللنصيحة المخلصة المشفقة أجر عظيم وثواب كبير . ومما جاء في ذلك :

أ – النصيحة دلالة على خير :

قال رسول الله ﷺ : ((**من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله**))[5] .

وقال رسول الله ﷺ : ((**الدال على الخير كفاعله**))[6] .

ب – النصيحة سبب الهداية :

---

(1) فيض القدير : ٣ / ٥٥٥ .
(2) شرح صحيح مسلم : ١ / ٣٧ .
(3) رواه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ، برقم : ١٧٣٢ ، وانظر صحيح البخاري كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ، برقمي : ٤٣٤١ ، ٤٣٤٢ .
(4) سورة القصص [٢٠] .
(5) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره .. ، برقم : ١٨٩٣
(6) الترمذي ، وهو في الصحيحة للألباني برقم : ١٦٦٠ .

قال النبي ﷺ : ((**فو الله لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم**)) [1] .

قال رسول الله ﷺ : ((**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**)) [2] .

ولا شك أنها من أجل العبادات وأفضل القربات ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : ((فإن أعظم ما عُبِدَ الله به نصيحة خلقه)) [3] ، وقد سئل ابن المبارك : أيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : ((النصح لله)) [4] .

٣ - ٩ : النصيحة وسيلة من وسائل محاصرة الفساد ؛ إذ العصيان والفساد أمراض سريعة الانتشار ، فإذا لم تجد من يقف أمامها فيأخذ على أيدي الظالمين والمفسدين ؛ عمّ الفساد ، وانتشرت المعصية .

قال الغزالي - رحمه الله - : ((كم من مبتعد عن الجادة ، تكفيه في العودة إليها همسة ناصح أو وصية زاجر ، فإذا هو راجع إلى رشاده)) [5] .

٤ - ضوابط النصيحة (آدابها وشروطها) [6] :

لما كانت ممارسة النصح أمرًا شاقًّا على كثير من النفوس من حيث القيام به أولاً ، وقبول النصح ثانيًا ، فكان لابد من مراعاة عدة ضوابط أو آداب لتسديد النصيحة وتزيينها للنفوس لتقبلها وتأخذ بها ، ومنها :

٤ - ١ : أساسها الإخلاص :

النصيحة التي تصدر من قلب مخلص لها وقعٌ في قلب المنصوح ، وما خرج من القلب يتسلل إلى القلوب فيهزها ويؤثر فيها فتستفيد منها ، وتلتزم بها ، لا سيما إذا خلت من آفات الهوى ونزغات الشيطان .

يقول الشاعر :

شـهد الله ما انتقدتك إلا … طمعًا أن أراك فوق انتقاد

---

(1) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، برقم : ٤٢١٠ ، ورواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، برقم : ٣٤ .

(2) رواه مسلم ، كتاب العلم ، باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة ، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، برقم : ٢٦٧٤ .

(3) الفتاوى : ٢٨ / ٦١٥ .

(4) جامع العلوم والحكم : ١ / ٢٢٥

(5) فقه النصيحة في ظل الإسلام : (١٦ – ١٧) ، وقول الغزالي في مؤلفه : ((مع الله))

(6) انظر للتوسع : فقه النصيحة لأحمد جاد ، النصيحة ليست نقدًا للعليمي ، فقهيات في التعامل الحركي لبسام فرج ، فقه النصيحة لمحمد أبو صعيليك .

فالناصح المأجور هو من كان الإخلاص رائده ، وحب الخير لأخيه دليله ومرشده ، وابتغاء ثواب الله هدفه وغايته ؛ فيشعر المنصوح بصدق الإخلاص ، وحرارة الحب ، وشفافية الهدف ، ونبل الغاية .

٤ - ٢ : وعاؤها الرفق :

النصيحة مع الحق الذي تتزين به ، فهي تقدم بوعاء الرفق وبلباس اللين ، وتتلفع بالود والمحبة ..

(عن معاوية بن الحكم السُّلمي رضي الله عنه قال : بَيْنَا أنا أُصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجلٌ من القوم ، فقلت : يَرحمك الله ، فرماني القومُ بأبصارهم ، فقلت : واثُكْلَ أُمَّاه ، ما شأنكم تنظرون إليَّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يُصمتونني ، سكت ؛ فلما صلى رسول الله ﷺ ، فبأبي هو وأمِّي ما رأيتُ معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه ، فوالله ما كهرني[1] ، ولا ضربني ، ولا شتمني ، قال : ((**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس ؛ إنما هو التسبيح والتكبير وقراءةُ القرآن**)) [2] . وكذلك رفقه وعطفه على الأعرابي الذي بال في المسجد ، ونُصحه له بلين وإشفاق .. والأمثلة على رفقه ﷺ في مواقف النصيحة مشهورة كثيرة .

٤ - ٣ : دليلها العلم :

فبالعلم يميز المرء بين الحق والباطل ، والخطأ والصواب ؛ فلا ينصح في أمر يجهله ، ولا يأمر أو ينهى عن شيء لا يعرفه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ [3] .

٤ - ٤ : يُسِرُّ بها إسرارًا :

قال الإمام أحمد المقدسي - رحمه الله - موضحًا هذا الضابط : ((وينبغي أن يكون نصحك إيّاه سرًّا ، والفرق بين التوبيخ والنصيحة الإعلان والإسرار)) [4] .

وقال ابن رجب - رحمه الله - : ((وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحدٍ وعظوه سرًّا)) .

وقال الفضيل ابن عياض - رحمه الله - : ((المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويُعيِّرُ)) [5] ، وتتأكد السرية لذي السلطان والأمراء والقادة .

---

(١) كهرني : نهرني (هامش صحيح مسلم بترتيب محمد عبد الباقي : ١ / ٣٨١) .
(٢) رواه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة ، برقم : ٥٣٧ .
(٣) سورة الإسراء [٣٦] .
(٤) مختصر منهاج القاصدين : ١١١ .
(٥) جامع العلوم والحكم : ١ / ٢٢٥ .

سُئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر فقال : ((إن كنت فاعلاً ولابد ففيما بينك وبينه)) [1] .

وقال الشافعي : ((من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه)) .

٤ - ٥ : التلميح قبل التصريح :

التلميح بالنصيحة صورة من صور السرية في الأشخاص والعلانية في التوجيه والإرشاد ، وكثيرًا ما كان رسول الله ﷺ يقول : ((**ما بال أقوام يقولون كذا ، ويفعلون كذا**)) ؛ ذلك لأن كثيرًا من النفوس لا تمثل إلى التصريح بالنصح ، كما أن التلميح فيه ميزةٌ أخرى هي تعميم الوعظ والتذكير لأكبر عدد من الناس ؛ ليحذروا الخطأ نفسه ، فلا يتكرر الوقوع فيه .

ومن أمثلة تلميح النبي ﷺ قوله : ((**ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ؟**)) ، فاشتد قوله في ذلك حتى قال : ((**لينتَهُنَّ عن ذلك أو لتخطفنَّ أبصارُهم**)) [2] .

٤ – ٦ : المدح مع النصح :

إن النصح علاج مرٌّ ، فليصحبه شيء من حلو الكلام ، تفتح به قلب أخيك . قال رسول الله ﷺ : ((**نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم الليل**)) [3] .

لقد أثمر هذا النصح بعد أن تغلغل في شغاف قلب عبد الله رضي الله عنه ، قال سالم : ((فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً)) [4] ، فابحث عن إيجابيات ونقاط اتفاق تذكرها للمنصوح قبل أن تبدي نصيحتك فإن ذلك أقبل لها عنده ، ولكن لا تسرف في المديح فتقطع ظهر صاحبك ، والمؤمن كيس فطن لا يعالج المفسدة بمفسدة مثلها أو أكبر منها .

٤ - ٧ : مراعاة الوقت والمكان :

فلكل مقام مقال ، فلا ترسل نصيحتك في حدة غضب أو في غمرة لجب أو في مكان فيه صخب .. وقد أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينصح الناس في أيام الحج ليرد على شبهة يتلفظ بها بعض الناس حول بيعة أبي بكر ، فقال له عبد الرحمن بن

---

(1) جامع العلوم والحكم : ١ / ٢٢٦ .
(2) رواه البخاري ، كتاب الأذان ، باب : رفع البصر إلى السماء في الصلاة ، برقم : ٧٥٠ .
(3) رواه البخاري ، كتاب الجمعة .
(4) رواه البخاري كتاب التهجد ، باب فضل قيام الليل ، برقم : ١١٢١ ، ورواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ٣١ برقم : ٢٤٧٩ .

عوف ﷺ : ((يا أمير المؤمنين لا تفعل ! ! فإن الموسم يجمع رعاعَ الناس وغوغاءهم ، فإنهم يغلبون على قربك حين تقوم في الناس ، وأنا أخشى أن تقول مقالة لا يعوها ولا يضعوها على موضعها ؛ فأمهل حتى تقدم المدينة ، فإنها دار الهجرة والسُّنة ، فتقول ما قلت متمكنًا ؛ فيعي أهل العلم مقالتك ، ويضعوها موضعها .. فقال عمر : ((أما والله - إن شاء الله - لأقومنَّ بذلك أول مقام أقومه بالمدينة)) (١) .

وقال عبد الله بن مسعود : ((إن للقلوب شهوةً وإقبالاً ، وفترةً وإدبارًا ، فخذوها عند شهوتها وإقبالها ، وذروها عند فترتها وإدبارها)) (٢) .

٤ ـ ٨ : التثبت :

ينبغي ألا تبني نصيحتك على نقل نمّامٍ أو حاسد أو حاقد فتكون أنت أحوج إلى النصيحة ممن أردت نصحه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ (٣) ، وفي الساحة ردود وفتاوى ونصائح ومواعظ بنيت على أساسٍ هارٍ ، وسند الواعظ أو المفتي فيما يبني عليه وعظه أو فتواه تالف بسبب الرواة المبالغين والنقلة والحاسدين بل والمفترين ؛ وهو ما يجعل روايته في عداد الموضوعات .

٤ ـ ٩ : قل التي هي أحسن :

للكلمة أثر في نفس السامع ، وكثيرًا ما تحدد موقفه من المتكلم ؛ لذلك أحسن اختيار ألفاظك ، وانتق أفضل كلماتك لتنفذ إلى قلب سامعها ؛ فيقبل ولا يدبر ، ويتأثر ولا ينفر ، وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ** ﴾ (٤) .

عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يُلقب ((حمارًا)) ، وكان يُضحك رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ قد جَلَدَهُ في الشراب ، فأُتي به يومًا فأمر به فجُلِدَ ، فقال رجلٌ من القوم : ((اللهم العنه ، ما أكثر من يؤتى به !)) ، فقال رسول الله ﷺ : ((**لا تلعنوه ، فوالله ما علمتُ أنه يحبُّ الله ورسوله**)) (٥) .

وأتى النبيُّ ﷺ بسكران ، فأمر بضربه ، فضرب ؛ فلما انصرف قال رجل : ((

---

(١) انظر صحيح البخاري : (الفتح ٨ / ٢٠٩) .
(٢) الآداب الشرعية : ٢ / ١٠٩ ، عن فقه النصيحة لمحمد أبو صعيليك : ٢٤ ، وفقه الدعوة في إنكار المنكر : ١١٤ ـ ١١٥ ، تأملات تربوية ، ص ٣٣ .
(٣) سورة الحجرات [٦] .
(٤) سورة الإسراء [٥٦] .
(٥) رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب : ما يكره من لعن شارب الخمر ، برقم : ٦٧٨٠ .

ماله أخزاه الله !)) ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((**لا تكونوا عونَ الشيطان على أخيكم**)) [1] .

وإليك بعض نماذج مقدمات النصح :

- لو فعلت كذا كان أفضل وأقوم .
- أنت في قلبي أرفع من هذا .
- فضلك كبير ولو أضفت إليه كذا كان أكبر .
- عملك طيب تشكر عليه ، ولو تركت كذا كان يبدو أطيب .

٤ - ١٠ : وضوابط أخرى ، منها :

أ - القدوة الحسنة : كلما كان الناصح قدوة حسنة ينصح الناس بأفعاله قبل أقواله ، كان لنصحه أثر ولوعظه وقع .

ب- عدم إظهار (الأستاذية) أو التعالي على العباد .

جـ- عدم الإلزام : ((من واجب الناصح أن ينصح غيره ، ولكن ليس من حقه - في كل الأحيان - أن يلزم غيره بما ينصحه به ؛ لأن هذا حق للحاكم في رعيته ؛ والناصح دال على الخير ، وليس ملزمًا بفعله ، وفي هذا المعنى يقول ابن حزم - رحمه الله - : ((ولا تنصح على شرط القبول منك ، فإن تعديت هذه الوجوه ، فأنت ظالم لا ناصح ، وطالب طاعة وملك ، لا مؤدي حق أمانة وأخوة ، وليس هذا حكم العقل ، ولا حكم الصداقة ، لكن حكم الأمير مع رعيته ، والسيد مع عبده)) [2] .

د - اختيار الشخص المناسب : ((قد تتقبل النصيحة من شخص دون آخر ، رغم أن المنصوح له واحد ، [وموضوع النصيحة هو نفسه] ؛ لذلك على الناصح أن يكون لبيبًا في توجيه نصحه إن رأى أن المنصوح له يسمع له ، وإلا استعان بمن هو مجيب إلى ذلك المنصوح ليوصل له النصيحة من خلاله)) [3] .

٥ - وسائل وأساليب النصيحة :

ونعني بها (القوالب) التي تسدى بها النصيحة ، والممهدات لها ؛ لتكون أكبر أثرًا ، وأكثر قبولاً ، وأسرع استجابة .

٥ - ١ : اقض حاجته ثم انصحه :

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب : ما يكره من لعن شارب الخمر ، برقم : ٦٧٨١ .
(2) فقه النصيحة ، محمد أبو صعيليك : ٢٢ ، والنقل عن ابن حزم في كتابه الأخلاق والسير : ٤٤ .
(3) فقه النصيحة ، في ظل الإسلام : ٣٨ .

(عن حكيم بن حزام ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : ((**يا حكيمُ ، إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلوةٌ فمن أخذه بسخاوة نفسٍ بُورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفسٍ لم يبارك له فيه ، كالذي يأكل ولا يشبع ، اليدُ العليا خير من اليد السفلى**)) . قال حكيم فقلت : يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا) [1] .. فكان أبو بكر ﷺ يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه ، ثم إن عمر ﷺ دعاه ليُعطيه فأبي أن يقبل منه شيئًا .. فلم يأخذ حكيم من أحدٍ شيئًا حتى توفي ﷺ .

٥ ـ ٢ : الهدية :

الهدية لها أثرها في النفس ، وبنفس الوقت يمكن أن تحمل معاني تربوية ، ووصايا إيمانية :

- ((فإهداء خمار (حجاب) لأخت أو وقريبة)) [2] ، نصيحة غير مباشرة لها بالمحافظة على الحجاب والالتزام به .
- إهداؤك صاحبك كتابًا عن آداب الاختلاف والنقد تنبيه له على ضرورة الالتزام بهذه الآداب .
- إهداؤك لقصة أو شريط أو ... كل منها يحمل نصيحة يمكن أن تبلغ ما تريد دون أن تتحدث أنت به .

٥ ـ ٣ : الرسائل :

وهي وسيلة جيدة للتناصح ، وقد استعملها الرسول ﷺ في الدعوة إلى الإسلام ، وما زال السلف الصالح يقتفون أثره في هذه السُّنَّة المباركة ، فيوظفونها في نصح إخوانهم أو أصحاب الولايات والأمراء ، وسنذكر في مبحث مستقل بعض هذه الرسائل - إن شاء الله - .

٥ ـ ٤ : زيارة العلماء والدعاة :

ذكرنا فيما سبق أن المنصوح قد يتقبل من شخص دون آخر ؛ ولذلك فقد يكون في رسائل قبول بعض الناس للنصيحة زيارة عالم تقي أو داعية مشهور يسوق هذه النصيحة بأسلوبه المؤثر .

٥ ـ ٥ : الصحبة والخلطة :

الصحبة من الوسائل التي توثق الصلة بالأشخاص وتقرب الداعية في المدعو ،

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب : قول النبي ﷺ ((هذا المال خضرة حلوة)) ، برقم : ٦٤٤١ .
(2) فقه النصيحة في ظل الإسلام : ٣٧ .

وكلما كانت العلاقة أعمق كان التناصح أكبر وأسرع ، فالعلاقات السطحية بالمدعوين قد لا تمكن الداعية من إيصال نصحه إليهم ؛ ولذلك لابد من اللقاءات الأخوية ، والرحلات التربوية ، والمخيمات الدعوية ؛ لكي تتوثق عُرى المحبة في الله ، وتسهل عملية التناصح ؛ ولكن لابد من التنبيه إلى أن الشيء إن زاد عن حده انقلب إلى ضدّه ، ومنها الخلطة أكثر من اللازم .

٥ - ٦ : وأخرى :

لا شك أن المرء يحتاج إلى أن يفكر في الوسيلة والأسلوب المناسب لتصل نصيحته إلى قلب المنصوح فيتأثر بها . والحق أن هناك طرقًا كثيرة وأساليب عديدة لإسداء النصح : كالخطبة ، والمحاضرة ، والمدارسة ، والمسابقة ... ونحوها . المهم أن يحسن الناصح اختيار الوسيلة والأسلوب المناسبين للمنصوح .

٦ - وقفات مع حديث : ((الدين النصيحة))[١] :

٦ - ١ : نص الحديث :

عن أبي رُقيّة تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((**الدين النصيحة**)) ثلاثًا . قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : ((**لله – عز وجل – ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم**)) .

٦ - ٢ : أخرج هذا الحديث كثير من أئمة الحديث منهم :

مسلم في صحيحة (٢ / ٣٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤ / ١٠٢ ، ١٠٣) ، والإمام أبو داود في سننه (برقم : ٤٩٤٤) ، والنسائي في سننه الصغرى (٧ / ١٥٦) ، والحميدي في مسنده (برقم : ٨٣٧) ، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة (ص ٦٨٧) ، وأبو عوانه في مسنده (١ / ٣٦) ، والطبراني في المعجم الكبير (رقم : ١٢٦٠ – ١٢٦٨) .

٦ - ٣ : **وعلقه البخاري في صحيحه** : كتاب الإيمان ، باب الدين النصيحة (١ / ١٣٧) ، ومعنى علقه : أي رواه في كتابه بغير سند . قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - : ((ولم يخرجه مسندًا في كتابه لكونه على غير شرطه)) (الفتح : ١ / ١٣٧) .

٦ - ٤ : **علمًا بأن أحاديث النصيحة بلغت مبلغ التواتر** . قال العلامة الكتاني - رحمه

---

(١) هذا المبحث لخصناه من كتاب : فقه النصيحة ، محمد أبو صعيليك ، ٣٩ - ٥٨ ؛ إذ هو من أفضل ما قرأت في الموضوع ، مع إضافات من بعض المراجع الأخرى المشار إليها بالهامش [والحديث سبق تخريجه] .

الله - : « أحاديث بذل النصيحة للأئمة وغيرهم من المسلمين متواترة » ، ويقول الشيخ صديق حسن خان - رحمه الله - : « والأحاديث الواردة في مطلق النصيحة متواترة وأحق الناس بها الأئمة » [العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة] .

٦ - ٥ : **سمي النبي ﷺ النصيحة دينًا** ، وعبر بها عن الدين ، مع أن تكاليف الدين كثيرة ، وليست محصورة في النصح وحده ؛ فما مراد النبي ﷺ من ذلك ؟ أجاب أهل العلم عن ذلك أجوبة منها :

أ - قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : « يحتمل أن يحمل على المبالغة ، أي : معظم الدين النصيحة كما قيل في حديث : « **الحج عرفة** » ، وقال أيضًا : « ويحتمل أن يحمل على ظاهره ؛ لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص فليس من الدين » [1] .

ب - قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - : « فهذا يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان التي ذُكرت في حديث جبريل - عليه السلام - ، وسمّى ذلك كله دينًا » [2] .

جـ - أي أن عماد الدين وقوامه قائم على النصيحة .

٦ - ٦ : من صور النصيحة لله :

أ - « القيام بأداء واجباته على أكمل وجوهها ، وهو مقام الإحسان » [3] .

ب- « الإيمان به ، ونفي الشريك عنه ، وترك الإلحاد في صفاته ، ووصفه بجميع صفات الكمال والجلال ، وتنزيهه عن جميع النقائص ، وما لا كمال فيه من الأوصاف » .

جـ- « القيام بطاعته ، وتجنب معصيته » .

د - « الحب والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه » ، ومعاداة من عصاه ، وجهاد من كفر به .

هـ- « الاعتراف بنعمته ، وشكره عليها ، والإخلاص في جميع الأمور » .

و - « الدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة والحث عليها » [4] .

٦ - ٧ : النصيحة لكتابه :

---

(١) الفتح : ١ / ١٣٨ .
(٢) جامع العلوم والحكم : ١ / ٢١٨ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) انظر شرح صحيح مسلم : ٢ / ٣٨ .

ويندرج تحتها ما يلي :

أ - ((الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، لا يشبهه شيء من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق)) [١] .

ب- ((تعظيمه)) [٢] .

جـ- تعلمه ، وتعليمه ، وإقامة حروفه في التلاوة ، وتحريرها في الكتابة ، وتفهم معانيه ، وحفظ حدوده ، والعمل بما فيه ، والذَّبّ عنه (كتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين) ، والدعوة إلى هذا كله [٣] .

٦ - ٨ : النصيحة لرسوله ﷺ :

يندرج تحت نصح المؤمن للنبي ﷺ ما يلي :

أ - تصديقه على الرسالة .

ب- الإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته في أمره ونهيه .

جـ- نصرته حيًّا وميتًا ، ومعاداة من عاداه ، وموالاة من والاه .

د - إعظامك حقه وتوقيره ، وإحياء طريقته وسنته .

هـ- بث دعوته ، ونشر شريعته ، ونفي التهمة عنها .

و - التأدب بآدابه ، والتخلق بأخلاقه .

ز - محبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ، ونحو ذلك [٤] .

٦ - ٩ : النصيحة لأئمة المسلمين :

ويندرج تحتها العديد من صور النصح التي ينبغي أن يقوم بها المؤمن ، منها :

أ - معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه ، وأمرهم به .

ب- تنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف ، وإعلامهم بما غفلوا عنه .

جـ- ترك الخروج عليهم ، وتألف قلوب الناس لطاعتهم .

د - الصلاة خلفهم ، والجهاد معهم .

---

(١) شرح صحيح مسلم : ٢ / ٣٨ .
(٢) نفسه .
(٣) فتح الباري : ١ / ١٣٨ .
(٤) شرح صحيح مسلم : ٢ / ٣٨ .

هـ- عدم الثناء الكاذب عليهم ، وأن يُدعى لهم بالصلاح .

تنبيه : وقد جاء في تأويل المراد بالأئمة وجهان :

الأول : المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات ، وهذا هو المشهور .

الثاني : المراد بالأئمة هم علماء الدين ، وأن من نصيحتهم قبول ما رووه ، وتقليدهم في الأحكام وإحسان الظن بهم [1] ، وإجلالهم ، وتوقيرهم والوفاء بما يجب لهم على المسلمين من الحقوق [2] ، والذَّبَّ عن أعراضهم .

٦ - ١٠ : النصيحة لعامة المسلمين :

ويندرج تحتها صور كثيرة في النصح لهم ، منها :

أ - إرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم .

ب- كف الأذى عنهم .

جـ- تعليمهم ما يجهلونه من دينهم .

د - ستر عوراتهم وسد خلاتهم ، ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم .

هـ- أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص .

و - الشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، ورحمة صغيرهم ، وحسن معاملتهم .

ز - ترك غشهم وحسدهم .

ح - الذَّبّ عن أموالهم وأعراضهم ، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل [3] .

٧ - اطلب النصيحة من إخوانك [4] :

وقلة أولئك الذين يطلبون النصيحة ، بل إنهم لا يكادون يقبلون نصيحة من ينصحهم ، فإن الكثيرين يرون في النصيحة إظهار معايبهم ، فتأبي عليهم عزة نفوسهم أن يتقبلوها ، ويرون فيها إهانة لأنفسهم فيترفعون عنها . أما السلف الصالح - رحمهم الله - فكانوا في درجة أعلى من قبول النصيحة أو إسدائها ؛ حيث إنهم كانوا يطلبونها ويحرصون عليها ، ويوصون إخوانهم بمراقبة زلاتهم والتنبيه عليهم ؛

---

(1) شرح صحيح مسلم : ٢ / ٣٨ - ٣٩ .
(2) فقه النصيحة : ٥٦ عن فتح المبين : ١٢٥ .
(3) شرح صحيح مسلم : ٢ / ٣٩ ، وانظر أيضًا لشرح الحديث : جامع العلوم والحكم : ١ / ٢١٨ ، فتح الباري : ١ / ١٣٨ ، موسوعة نضرة النعيم : ٨ / ، فقهيات في التعامل الحركي : ١١ / ١٥ ، النصيحة ومكانتها في الإسلام : ١٤ - ٩٧ .
(4) ممرات الحق : ٣٤٠ - ٣٤١ .

فالمؤمن مرآة أخيه .

كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول لمولاه مزاحم : « إن الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي ، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها أو فعالاً لا تحبه ، فعظني عنده ، وانهني عنه » . وكان ميمون بن مهران يطلب من جعفر بن برقان أن ينصحه فيقول : « يا جعفر ، قل لي في وجهي ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره » (نزهة الفضلاء : ١ / ٤٧٠) .

واعلم أخي - وفقك الله - أن الحرص على النصيحة وطلبها يورث أمورًا كثيرة حسنة في قلب المسلم :

أ - فهو ابتداءً لم يغفل عن نفسه وشرورها وشحها ، فعلم أن فيها معايب يجب أن تعالج .

ب - وهو ثانيًا مستعد لأن يغير ما يعلمه من عيب في نفسه ما دام مقرًّا به عالمًا .

جـ - ثم ينتج عن ذلك أنه يعرف دقائق الذنوب والأخطاء ، فإن من كان همه البحث لا تخفى عليه الدقائق من الذنوب عوضًا عن الكبائر .

د - ثم إنه شغل بنفسه عن النظر إلى عيوب الناس ، ومن شغل بنفسه نجا ، ومن اشتغل بالنظر إلى معايب الناس هلك ، وكان على شفا حفرة من الضلال .

يقول السَّري السقطي - رحمه الله - : « من علامة الاستدراج للعبد عماه عن عيبه واطلاعه على عيوب الناس »[1] .

ثم تراه يرى عيوب الناس ولا يرى عيبه ، وإن كان كبيرًا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **يُبصرُ أحدُكمُ القذاةَ في عَيْنِ أخيهِ ، ويَنْسى الجِذْعِ في عَيْنِ نَفْسِه** »[2] .

وقد سلم من وجد في نفسه شغلاً في النظر إلى معايبها ، وطلب النصيحة من الخبراء ليدلوه على معايب نفسه ، « فإن في النفس لشغلاً عن الناس »[3] ، كما قال السري السقطي - رحمه الله تعالى - .

وخلق طلب النصيحة يوجب على الإنسان أن ينتقي من يصاحب ويحرص على مجالسة الأخلاء الذين يعدون عليه معايبه بستر الناصح الأمين ، والذين لا يغشونه بسكوتهم عنها ، وترضيتهم له على حساب عوج في نفسه ، وإن كان صادقًا فيما يدعي

---

(١) رياض المؤمنين : المجتمع ، العدد ١٨٧ .
(٢) أخرجه ابن حبان (موارد الظمآن : ص ١٨٤٨) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤ / ٩٩) ، وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعًا ، ورواه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٢) موقوفًا على أبي هريرة ، ورجح الألباني الرواية المرفوعة على الموقوفة (الأحاديث الصحيحة : ٣٣) .
(٣) المجتمع ، العدد ١٨٧ .

فعليه أن يكثر من سؤالهم عن معايب نفسه لا أن ينتظر منهم أن يذكروها له ، فيبادرهم بالسؤال بين فينة وأخرى : هل ترون فيَّ شيئًا ؟ كما كان سيد تابعي الشام بلال بن سعد - رحمه الله - يقول لصاحبه عبد الرحمن بن يزيد : « بلغني أن المؤمن مرآة أخيه ؛ فهل تستريب من أمري شيئًا ؟ » [1] .

فإن كنت متخذًا صاحبًا فاتخذ من تكون له مرآة ، ويكون لك مرآة ؛ فإن من جالس جانس ، ومن صاحب الأخيار أفلح وحاز على الخير .

٨ - قبول النصيحة [2] :

وطلب النصيحة إنما يكون لقبولها ، فالقبول ليس أدنى في الأهمية من طلب النصيحة ، بل هو الثمرة ، والاستجابة لحرص النفس على معالجة عيوبها ؛ فمن عرف نفسه ، واشتغل بالنظر إليها عن النظر إلى عيوب الناس ، أدرك أن فيه من المعايب ما يجعله يصرف همه للبحث عن النصحاء ؛ ليدلوه عليها ، ويعينوه على تلافيها .

والصادق يفرح بالنصيحة ، ويأنس بها ، ويحس كأنه حاز على كنز ثمين .. أما الكاذب فيبغض النصيحة ، وقد وصف الله - تعالى - الكاذبين في كتابه ببغضهم للناصحين إذ قال : ﴿ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [3] . وللناصح الحق في أن يسقط من عينه من يرد نصيحته ويستن بسنة الشافعي - رحمه الله - التي بينها في قوله : « ما نصحت أحدًا فقبل مني إلا هبته واعتقدت مودته ، ولا ردَّ أحد عليَّ النصح إلا سقط من عيني ورفضته » [4] .

وذلك لأن الذي يرد النصيحة ويرفضها ليس أهلاً لها ، فإن النصيحة ثمينة ، وهي من الدين ، ويجب أن توضع اللقمة في الفم الذي يستسيغها ، ولا يستسيغها إلا الفم الصحيح ، فإن العليل يلفظها ولا يقبلها ، يقول أبو حاتم البستي - رحمه الله - : « النصيحة محاطة بالتهمة ، وليست النصيحة إلا لمن قبلها ، كما أن الدنيا ليست إلا لمن تركها ، ولا الآخرة إلا لمن طلبها ، وليس على كل ذي نصح إلا الجهد ، ولو لم يقبل من نصائحه ما يثقل عليه ، لم يحمد غب رأيه ... وأكثر ما يوجد ترك قبول النصيحة عند المعجب برأيه » [5] .

فمن الناس من إذا نصحته كان لك عدوًّا ، واعتبرك عدوه ، فإن نفسه تأبى أن ينقصها أحد ، ويظن أن في النصيحة إنقاصًا لها وإهانة لكرامتها ؛ فأمثال هؤلاء الذين يلجون في الخصومة إن نصحوا ليسوا أهلاً لها . ولا رفض أحد نصيحة إلا لكبرٍ في نفسه فيرد كلمة الحق .

---

(1) رياض المؤمنين (تناصح وتفاخر) ، محمد أحمد الراشد : المجتمع ، العدد ١٨٥ .
(2) ممرات الحق : ٣٤١ .
(3) سورة الأعراف [٧٩] .
(4) رياض المؤمنين (تناصح وتفاخر) ، محمد أحمد الراشد : المجتمع ، العدد ١٨٥ .
(5) روضة العقلاء : ٣٢٨ ، بتصرف يسير .

وقد بيَّن رسول الله ﷺ في الحديث أن رد الحق وعدم قبوله هو الكبر في قوله ﷺ : ((**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**)) . قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعلُه حسنًا . قال : ((**إن الله جميل يحب الجمال ؛ الكبر بَطَرُ الحق ، وغمط الناس**)) (١)، وبَطَرَ الحق ، أي : دفعه ورده ، فإن المتكبر يترفع عن قبول الحق ؛ لأنه يرى فيه استصغارًا لنفسه ، فكان له حظ في المشابهة لمن قال الله فيه : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ (٢) .

فالمؤمن يقبل الحق ويأخذ به ولو صدر من أعدى الناس إليه ، وقد قال ﷺ لأبي هريرة - وقد نصحه الشيطان أن يقرأ آية الكرسي كل ليلة إذا أوى إلى فراشه - : ((**صدقك وهو كذوب**)) (٣) .

٩ - نماذج من النصيحة والتناصح في السُّنَّة :

٩ - ١ التناصح بين الإخوان في القضايا الأسرية (المشكلات الأسرية) :

أ - آخي النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزارَ سلمانُ أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا . فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا ، فقال له : كُلْ . قال : فإني صائم . قال : ما أنا بآكل حتى تأكلَ . قال : فأكلَ ، فلما كان الليلُ ذَهب أبو الدرداء يقومُ . قال : نَمْ ، فنام . ثم ذَهب يقومُ ، فقال : نَم . فلما كان من آخر الليل قال سلمانُ : قُمِ الآن ، فصَليا . فقال له سلمانُ : ((**إن لربك عليك حقًّا ، ولنفسِكَ عليكَ حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، فأعطِ كل ذي حق حقه**)) ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال له النبي ﷺ : ((**صَدَق سلمان**)) (٤) .

قال ابن حجر - رحمه الله - : ((وفي هذا الحديث في الفوائد : مشروعية المؤاخاة في الله ، وزيارة الإخوان والمبيت عندهم ، وجواز مخاطبة الأجنبية للحاجة ، والسؤال عما يترتب عليه مصلحة وإن كان في الظاهر لا يتعلق بالسائل ، وفيه النصح للمسلم وتنبيه من غفل)) (٥) .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، برقم : ٩١ .
(٢) سورة البقرة [٢٠٦] .
(٣) رواه البخاري .
(٤) رواه البخاري ، كتاب الصوم ، باب : من أقسم على أخيه ليُفطر في التطوع ، برقم : ١٩٦٨ .
(٥) الفتح : ٤ / ٢١١ - ٢١٢ .

ب - عن جابر بن عبد الله أن عبد الله (١) هلك وترك تسع بنات (أو قال : سبع) ، فتزوجتُ امرأة ثيّبًا ، فقال لي رسول الله ﷺ : ((**يا جابرُ ، تزوجت ؟**)) . قال : قلتُ : نعم . قال : ((**فبكر أم ثيب ؟**)) . قال : قلت : بل ثيب يا رسول الله ! قال : ((**فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك**)) (أو قال : **تضاحكها وتضاحكك**) . قال : قلت له : إن عبد الله هلك وترك تسع بنات (أو سبع) ، وإني كرهت أن آتيهُنَّ أو أجيئَهُنَّ بمثلهن [يعني أن البكر ليست كالثيب في تدبير البيت وحسن الرعاية]، فأحببت أن أجيء بامرأة تقومُ عليهنَّ وتُصلحهنَّ. قال ﷺ : ((**فبارك الله لك**)) ، أو قال لي خيرًا (٢) .

وقال ﷺ لرجل تزوج بامرأة ولم يرها بعد ، وكانت من الأنصار : ((**أنظرت إليها ؟**)) . قال : لا . قال : ((**فاذهب فانظر إليها ، فإن في أعين الأنصار شيئًا**)) (مسلم : ١٤٢٤) .

٩ - ٢ : التناصح في القضايا الدعوية :

أ - نصيحته ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن أصبحت منهجًا لكل داعية يريد السلامة والتوفيق في دعوته ؛ ففيها من التوجيهات الدعوية والتوصيات التربوية والأحكام الشرعية والقواعد الأصولية ما صنف فيها أهل العلم المصنفات ، وهذا من جوامع كلمه ﷺ .

قال معاذ : بعثني رسول الله ﷺ قال : ((**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب ، فادعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**)) (٣) .

ب - نصيحته لمعاذ وأبي موسى الأشعرى عند بعثهما إلى اليمن :

قال لهما ﷺ : ((**يسروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تُنفّروا**)) (٤) .

---

(١) يريد أباه ، قتل شهيدًا يوم أحد ، وقوله ﷺ : ((هلك)) ، أي : مات ، ولا يقصد به - في كل موقع - الذم . قال الله تعالى في يوسف النبي : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ ﴾ الآية (هامش صحيح مسلم : ٢ / ٤٠٨٧) .
(٢) رواه مسلم ، كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح البكر ، برقم : ٧١٥ [وهو أيضًا في البخاري] .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، برقم : ١٩ (وهو أيضًا في البخاري) .
(٤) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، برقم :

٩ ـ ٣ : التناصح في الأمور التعبدية :

مثل : قراءة القرآن ، وقيام الليل ، ونحوهما من المستحبات .

أ – التناصح بين أبي موسى الأشعري ومعاذ في قراءة القرآن :

قال أبو بردة ﷺ : ((بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن . قال : وبعث كلَّ واحد منهما على مخلاف [أي ناحية أو أقليم] .. فانطلق كلُ واحد منهما إلى عمله ، وكان كلُّ واحدٍ منهما إذا سار في أرضه وكان قريبًا من صاحبه أحدث به عهدًا فسلّم عليه . فسار معاذ في أرضه قريبًا من صاحبه أبي موسى ، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه ، وإذا هو جالس ، فقال له معاذ : يا عبد الله (١)، كيف تقرأ القرآن ؟ قال : أتفوقه تفوُّقًا (٢). قال : فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال : أنام أول الليل ، فأقوم ، وقد قضيت جزئي من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لي ، فأحتسب نومتي ، كما أحتسب قومتي)) (٣). فهذا تناصح فيما بينهما في طريقة قراءة القرآن (الورد اليومي) : هل يقرأ مرة واحدة أم يجزأ على ساعات النهار والليل ؟ .. وهكذا ينبغي للدعاة أن يتناصحوا في الوسائل والأساليب التربوية والإيمانية التي يزكون بها أنفسهم ومن يقومون على رعايته وتربيته .

ب – النصيحة في صفة الصلاة :

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجلٌ فصلّى ، ثم جاء فسلّم على النبي ﷺ ، فقال : ((**ارجع فصل فإنك لم تصلِّ**)) ، فرجع فصلى كما صلى ، ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ ، فقال : ((**ارجع فصل ، فإنك لم تصلِّ**)) ثلاثًا . فقال : والذي بعثك بالحق ما أُحسن غيره فعلِّمني ، فقال : ((**إذا قمت إلى الصلاة ، فكبِّر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئنَّ راكعًا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا . وافعل ذلك في صلاتك كلها**)) (٤) .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : ((**أوصاني خليلي ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيام**

٤٣٤١ ، ورواه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير ، برقم : ١٧٣٣ .

(١) عبد الله : هو اسم أبي موسى .

(٢) أي : ألازم قراءته ليلاً ونهارًا شيئًا بعد شيء وحينًا بعد حين .. مأخوذ من فوات الناقة ، وهو أن تحلب ، ثم تترك ساعة حتى تدور ، ثم تحلب هكذا دائمًا (الفتح) .

(٣) رواه البخاري كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، برقم : ٤٣٤١ ، ٤٣٤٢ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الأذان ، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها ، برقم : ٧٥٦ . ورواه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ، برقم : ٣٩٧ .

من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد)) [1] .

٩ - ٤ : في الأمور السلوكية والأخلاقية :

وهي كثيرة جدًّا ، فالسنة طافحة بها ، كقوله ﷺ للرجل الذي جاء يريد وصية : ((**لا تغضب**)) .

١٠ - نماذج من نصائح السلف الصالح :

وها أنا بعد أعرض عليك شذراتٍ من نصائح سلفنا الصالح لبعضهم بعضًا ؛ لترى ولتلمس خلوص نياتهم ، وعمق أخوتهم ، وحسن أدبهم ، واحترامهم وتوقيرهم لبعضهم البعض على الرغم من اختلافهم في وجهات نظرهم وتفاوت اجتهاداتهم ، لعلنا نسلك سبيلهم في تواضعهم وصفاء قلوبهم وزكاة نفوسهم وكمال أدبهم ؛ سواء عندما نكون ناصحين ، أو منصوحين .

١٠ - ١ : لقد شغلت قلبي :

روى هارون بن عبد الله الحمّال الإمام الحافظ - رحمه الله - قال : ((جاءني أحمد بن حنبل بالليل ، فدقَّ الباب ، فقلت من هذا ؟ فقال : أنا أحمد ، فبادرت وخرجت إليه ، فمسَّاني ومسَّيته ، فقلت : حاجة أبي عبد الله ، قال : شغلت اليوم قلبي ! ! فقلت : بماذا يا أبا عبد الله ؟ قال : جزتُ عليك اليوم وأنت قاعد تحدث الناس في الفيء ، والناس في الشمس بأيديهم الأقلام والدفاتر . لا تفعل مرة أخرى ، إذا قعدت فاقعد مع الناس)) .

من فقه النصيحة :

أ - حرص السلف على سرِّية نصحهم وإخلاصهم فيها ، فقد جاء الإمام أحمد - رحمه الله - إلى أخيه هارون في الليل حين هجع الناس ؛ لأن مجيء مثل الإمام أحمد إلى بيت هارون في النهار سيجعل الناس يتساءلون عن سبب هذا المجئ .

ب- مدى العلاقة القلبية التي يتبادلها سلفنا الصالح بعضهم مع بعض ، بحيث يتأثر أحدهم إذا رأى على أخيه ما يخلُّ بمنزلته ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : ((شغلت اليوم قلبي)) .. ما أعظمها من أخوة ، وما أسعد هارون بأخيه أحمد يوم سمع أنه بلغ لديه من المكانة القلبية أن شغل قلبه طوال اليوم حتى وكأنه ينتظر الليل على جمر .

---

(1) رواه البخاري ، كتاب التهجد ، باب صلاة الضحى في الحضر ، برقم : ١١٧٨ ، ورواه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة الضحى ، برقم : ٧٢١ .

ج- ونظرًا للعلاقة القلبية الكبيرة فإنك لا ترى الممهدات والمجاملات التي يقدم بها أصحاب العلاقات السطحية ؛ ولهذا لم يتردد الإمام أحمد في ذكر ما رآه مباشرةً دون مقدمات .. ولم يجد حرجًا في أن يقول لأخيه هارون : ((لا تفعل مرة أخرى)) .

١٠ - ٢ نصيحة الغزالي لأحد حكام عصره :

الإمام أبو حامد الغزالي أحد علماء زمانه ، ولقد نصح أهل زمانه عامة وخاصة ، وكان من نصحه رسالة بعث بها إلى أحد حكام عصره ، وهو وفخر المُلك ، قال له فيها :

((اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خرابًا بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناس توجهك من أسفرائين ودامغان خافوا ، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب ، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم لِمَا كانوا يتوقعون من إنصاف منك ، واستطلاع للأحوال ، ونشاط في الإصلاح .

أما وقد وصلت إلى طوس ، ولم يرَ الناس شيئًا فقد زال الخوف ، وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار ، وتشجع الظالمون ، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك ، فاعلم أنه عدو دينك .

واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرب ، وقد نصح للعميد كثيرًا ، ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبح عبرة للعالمين ، ونكالاً للآخرين .

واعلم يا فخر الملك أن هذه الكلمات لاذعة ، مرة قاسية ، لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله من جميع الملوك والأمراء ، فاقدرها قدرها ، فإنك لا تسمعها من غيري ؛ وكل من يقول غير ذلك ، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق)) [١] .

١١ - مسائل في النصيحة :

١١ - ١ : كيف نميز من هو مخادعٌ لنا في نصيحته ؟

الجواب : النصيحة الكاذبة هي من أول ما خُدِع به آدم - عليه السلام - كما قال الله تعالى يخبرنا عن الشيطان : ﴿ **وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ [٢] ، فما زال يغريهما بقبول نصحه حتى استجابا له وكان ما كان .. وكذلك قول أخوة يوسف لأبيهم : ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ [٣] .

---

(١) رجال الفكر والدعوة : ص (٢٣٨ - ٢٣٩) ، نقلاً عن فقه النصيحة : (١٢٢ – ١٢٣) .
(٢) سورة الأعراف [٢١] .
(٣) سورة يوسف [١١] .

ولهذا ينبغي أن نضع ضوابط نميز بها النصيحة ، منها :

أ - صلاح الناصح وسلامة دينة وتقواه وخوفه من الله - عز وجل - لأنه كلما كان إيمان المرء قويًّا كان أقدر على إصابة الحق ومعرفة الباطل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [1] ، أي : فرقانًا تميزون به بين الحق والباطل .

ب- عدم مخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

جـ- قائمة على مخالفة الهوى وحظوظ النفس : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾[2].

د - فيها درء للمفاسد وجلب للمصالح ؛ سواء كانت النصيحة في أمرٍ ديني ، أو دنيوي .

هـ- كون الناصح من أهل الاختصاص في موضوع النصيحة ؛ فالطبيب ينصحك في الدواء ، والمفتي في أمور دينك ، وهكذا بالنسبة لغيرها في شؤون الدين والدنيا .

و - تتميز بالشمول وبُعد النظر ، ومراعاة ما يسمى باعتبار المآل ؛ وهي النتائج المترتبة ، والعواقب المتأتية .

ز - تشعر بإخلاص صاحبها فراسةً وطريقة وأسلوبًا .

ح - أمن الناصح على نفسه وجرأته في الحق وثباته عليه مهما كلفه ذلك ؛ لأنه من خاف على نفسه أو رزقه دلّسَ في نصحه وغش في قوله [3] .

وقد قال معاوية في مجلسه - وكان يتحدث عن البيعة ليزيد - : ما تقول يا أحنف ؟ وقد كان ساكتًا لا ينطق ، صامتًا لا يفصح ، وسأله معاوية عن رأيه فقال رضي الله عنه : « يا أمير المؤمنين أخاف إن صدقتك ، وأخاف الله إن كذبتك » [4] .

ما الفرق بين النصيحة والتعيير ؟ :

قال الإمام ابن رجب - رحمه الله - : « [النصيحة والتعيير] يشتركان في أن كلاًّ منهما ذِكرُ الإنسان بما يكره ذِكرَه ، فإن كان ذكر ما يكره المقصود منه مجرد الذم والعيب والنقص فهو محرّم . وأما إن كان فيه مصلحة لعامة المسلمين ، خاصة

---

(1) سورة الأنفال [٢٩] .
(2) سورة ص [٢٦] .
(3) انظر للتوسع : أحاديث المحراب ، ص ٧٢ - ٧٣ ، قصة عبد الله بن الزبير مع معاوية .
(4) البيان والتبيين : ١ / ٣٠١ ، نقلاً عن أحاديث المحراب ، ص ٧٣ .

لبعضهم ، وكان المقصود منه تحصيل تلك المصلحة ؛ فليس بمحرم ، بل مندوب إليه)) [1] .

((وذلك مثل بيان الجرح في رواة الأحاديث ، وبيان خطأ من أخطأ في فهم معاني الكتاب والسنة ، وتأوّل شيئًا منهما على غير تأمله ، وتمسك بما لا يتمسك به ؛ ليحذر من الاقتداء به فيما أخطأ فيه ، وقد أجمع العلماءُ على جواز ذلك)) [2] .

خامسًا : من التطبيقات العملية للدرس :

١ - وضع آلية محددة للمناصحة الدورية ، مثل : اللقاءات الانفرادية بين المربي وتلميذه .

٢ - إدراج برامج المناصحة في الرحلات والمخيمات لكسر حاجز التردد والمجاملة ، ويكون ذلك على صورة نشاط يقسم فيه الحضور إلى مثنى مثنى ، وينفردان في مكان ما للتناصح .

٣ - عمل لقاء بين المغرب والعشاء بين اثنين من الشباب ، يحفظان فيه القرآن والأذكار ، ويتواصيان فيما بينهما .

٤ - اكتب لأخيك رسالة تنصحه فيها (برنامج الرسائل المتبادلة) .

سادسًا : بعض مراجع الموضوع :

١- النصيحة وأثرها في بناء الفرد والمجتمع الفاضل ، فواز زمرلي ، دار ابن حزم ، ط ١ .

٢- فقه النصيحة ، محمد أبو صعيليك ، دار النفائس ، ط ١ .

٣- النصيحة : شروطها وضوابطها ، عبد العزيز المسعود ، دار الوطن ، ط١ .

٤- النصيحة ومكانتها في الإسلام ، الأمين الحاج محمد أحمد ، دار المطبوعات الحديثة .

٥- الفرق بين النصيحة والتعيير ، الإمام ابن رجب ، دار عمّار ، ط٢ .

٦- فقه النصيحة ، عقيل المقطري ، دار ابن حزم ، ط ١ .

٧- ومضات من حياة العلماء العباد ، ربيع السعودي ، دار المنار ، ط١ .

٨- فن التعامل مع الناس ، عبد الله الخاطر ، المنتدى الإسلامي ، ط١ .

٩- براءة الذمة في نصح الملوك والأئمة ، فخر الدين المنصور ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ط ١٤٠٤ هـ .

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير ، ص ٧ ، بتصرف .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨ ، بتصرف .

١٠- فقه النصيحة في الإسلام ، أحمد جاد ، دار الكلمة ، ط١ .
١١- جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ .
١٢- المصفى من صفات الدعاة ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط ١ .
١٣- الدعوة قواعد وأصول ، جمعة أمين عبد العزيز ، دار الدعوة ، ط٢ .
١٤- كيف نكسب الناس ، مازن الفريح ، مؤسسة آسام ، ط١ .
١٥- تهذيب الأخلاق ، العلامة عبد الحي الحسني ، المكتب الإسلامي ، ط٢ .
١٦- متطلبات الدعوة الإسلامية ، اللجنة الثقافية في الكلمة ، مؤسسة الكلمة ، ط ١٤١٣ هـ .
١٧- موسوعة أخلاق القرآن ، أحمد الشرباصي ، دار الرائد العربي .
١٨- أحاديث المحراب ، جاسم مهلهل ، دار الدعوة ، ط ١ .
١٩- روضة العقلاء ، أبو حاتم البستي ، مكتبة نزار الباز ، ط١ .
٢٠- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، محمد السفاريني ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
٢١- موسوعة نضرة النعيم ، مجموعة مؤلفين ، دار الوسيلة ، ط١ .
٢٢- الممرات ، رائد عبد الهادي .
٢٣- فقهيات في التعامل الحركي ، بسام عطية فرج ، دار البشير ، ط ١٤١٢ هـ .
٢٤- أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان ، مكتبة المنار ، ١٤٠١ هـ .
٢٥- في النقد الذاتي ، خالص جلبي ، مؤسسة الرسالة .
٢٦- مختصر منهاج القاصدين ، الإمام أحمد المقدسي ، المكتب الإسلامي ، ط ٥ .
٢٧- الوافي في شرح الأربعين النووية ، البغاومستو .
٢٨- السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب .
٢٩- الخطة البراقة ، صلاح الخالدي .
٣٠- الروح ، ابن القيم ، دار الكتاب العربي .
٣١- القيادة والجندية ، محمد الوكيل .
٣٢- بصائر تربوية ، عمر الأشقر ، دار النفائس ، ط١ .
٣٣- رسائل الإخاء ، نادر النوري ، دار الدعوة ، ط١ .
٣٤- فقه الدعوة في إنكار المنكر ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط ٤ .
٣٥- تأملات تربوية في فقه الدعوة الإسلامية ، موسى الإبراهيم ، دار عمار ، ط١ .

٣٦- النصيحة ليست نقدًا ، د . أحمد العليمي ، دار ابن حزم ، ط ١ .
٣٧- الدين النصيحة ، عبد الرحمن السند ، مكتبة الوراق ، ط١ .
٣٨- النصيحة لكتاب الله ، حافظ الحكمي ، دار ابن الجوزي ، ط١ .
٣٩- النصيحة ، محمد عبد القادر هنادي ، الشركة السعودية ، ط ١ .
٤٠- أسلوب النصيحة في الكتاب والسنة ، محمد الأمين الأنصاري ، المؤلف .
٤١- النصيحة للراعي والرعية ، التبريزي ، دار الصحابة ، ط١ .
٤٢- إبراء الذمة بالنصيحة في الدين ، هشام بنان ، دار المجتمع ، ط١ .
٤٣- تجنب الفضيحة في تقديم النصيحة ، أبو بكر الحنبلي ، دار عمار ، ط١ .
٤٤- الخطة البراقة لدي النفس التواقة ، صلاح الخالدي ، دار القلم ، ط١ .

عمل

العمل

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغة :

قال ابن منظور - رحمه الله - : ((العَمَلُ : المِهنةُ والفِعلُ ، والجمعُ أعمالُ ؛ عَمِلَ عَمَلاً ، وأعْمَلَهُ غيره واستعملَهُ ؛ واعتمل الرجلُ : عَمِلَ بنفسه .. وأعمل فلان ذهنه في كذا وكذا ، إذا دبّره بفهمه ، وأعمل رأيه وآلته ولسانَه واستعمله : عمِل به)) (١) .

ب - اصطلاحًا :

قال الأصفهاني - رحمه الله - : ((العملُ : كلُّ فعلٍ يكون من الحيوان بقصدٍ ، فهو أخص من الفعل ؛ لأن الفعل قد يُنسبُ إلى الحيوانات التي يقعُ منها فِعل بغير قصدٍ ، وقد يُنسب إلى الجمادات ، والعملُ قلّما يُنسب إلى ذلك ، ولم يستعمل في الحيوانات إلا في قولهم : البقر العوامل ، والعملُ يُستعمل في الأعمال الصالحة والسيئة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٢) ، ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (٣))) (٤) .

والعمل الصالح : هو العمل الذي يجمع فاعله بين العلم والإخلاص ، وكان مؤمنًا .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من عرض هذا الموضوع إلى عدة أمور ، منها :

١- التأكيد على أهمية العمل في الإسلام ، وأنه جزء من مسمى الإيمان ، كما هو اعتقاد جمهور أهل السنة .

٢- تعويد الطلاب على العمل بالعلم ؛ إذ هو ثمرته والغاية منه ، فلا فائدة من علم بلا عمل ، كما أنه لا جدوى من عمل بلا علم ؛ إذ ربما أفسد أكثر مما أصلح ، وأساء أكثر مما نفع .

٣- التحذير من عوائق العمل ، والتي تمنع المرء من المبادرة للعمل الصالح أو تثبطه عنه .

٤- التحذير من محبطات الأعمال التي تذهب ببركة العمل أو تبدد ثوابه ، فإذا

---

(١) لسان العرب : ٤ / ٣١٠٨ .
(٢) سورة البقرة [٢٧٧] .
(٣) سورة النساء [١٢٣] .
(٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٨٧ .

به هباءً منثورًا .

٥- الحث على الأخذ بالأسباب الدافعة إلى العمل الصالح .

٦- عرض نماذج من العاملين ، وبيان ما كانوا عليه من همم عالية وعزائم قوية ، دفعتهم للتضحية بالنفس والمال ؛ لنصرة الدعوة ، والتمكين للدين ، ونفع عباد الله المؤمنين .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- أهمية عرض الموضوع .

٢- أيهما أسعد حالاً ؟

٣- تصنيف الناس من حيث العلم والعمل .

٤- من آثار القعود عن العمل في الدعوة .

٥- من عوائق « العملية » .

٦- حوافز العمل .

٧- نماذج من بكاء السلف على فوات الأعمال .

٨- المفلسون (محبطات الأعمال) .

٩- نماذج من العاملين .

رابعًا : العرض :

١ - أهمية عرض الموضوع :

إن التأكيد على العمل الصالح في تربية الداعية لنفسه وفي مجال دعوته من الأهمية بمكان ؛ نظرًا لعدة أمور نذكر منها :

١ - ١ : أن للعمل الصالح في الإسلام منزلة عظيمة ومكانة رفيعة ؛ إذ هو سبب لدخول الجنة بعد رحمة الله - عز وجل - ونيل رضا الله وولايته ؛ ولهذا قال الله تعالى :

﴿ **لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(١) ، ويقول : ﴿ **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(٢) ، وقال : ﴿ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(٣) .

وبالمقابل ، فإن أصحاب النار إنما كبكبوا فيها بسوء عملهم كما قال - عز وجل -

---

(١) سورة الأنعام [١٢٧] .
(٢) سورة السجدة [١٩] .
(٣) سورة الزخرف [٧٢] .

:
﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١)، وقال ﷺ في الحديث القدسي : ((**إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أُوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**))(٢) .

١ - ٢ : ولأن العمل جزء من مسمى الإيمان ، فالإيمان تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ... ؛ ولهذا فإن الله - عز وجل - قد عطف العمل على الإيمان في كتابه في أكثر من خمسين آية ؛ وهو ما يؤكد أهمية العمل بالنسبة للإيمان زيادة ونقصًا . وقد قال الحسن البصري - رحمه الله - : ((ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في الصدر وصدقته الأعمال))(٣) .

١ - ٣ : أن الاهتمام بالأعمال والتأكيد عليها سنة السلف التي فرّط فيها الكثير من الخلف لاشتغالهم بفضول الأقوال عن فضائل الأعمال ، وقد قال عمر الفاروق رضي الله عنه : ((رحم الله امرءًا أمسك فضل القول ، وقدَّم فضل العمل)) .

١ - ٤ : إن الدعوة إلى الاهتمام بالعمل يغلق باب البطالة والتبطل والمراء والجدل وكلها أمراض قلبية وآفات لسانية تقعد المرء عن العمل وتحبب إليه الدعة والكسل ، وربما تحوّلت بعد حين إلى تثبيط للآخرين وتعويق لهم بجنف الأقوال الناقدة أو الافتراءات الكاذبة ؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه : ((إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللاً [أي فارغًا] ، لا في عمل الدنيا ، ولا في عمل الآخرة)) .

١ - ٥ : ولأن الدعوة بالأعمال أبلغ وأعظم تأثيرًا من الدعوة بالأقوال ، فما أعظم أثر عمل يقدِّمه الداعية إلى من يدعوه ؛ ينفس عنه كربة ، أو ييسر عليه عسرةً ؛ إنها - والله - لأشد أثرًا في قلبه من كلمات كثيرة ومواعظ بليغة .

١ - ٦ : أن الداعية الحق يسبق بفعله قبل أن يفصح بلسانه ، يقتدي في ذلك بسلفة الصالح من أمثال أبي الفضل بن مالك ، الذي وصفه تلميذه الجنيد - رحمه الله - فقال :
((**يسبق فعله قوله**)) .

١ - ٧ : إن الأعمال محل نظر الربِّ - عز وجل - كما روى ذلك الإمام مسلم - رحمه

(١) سورة النمل [٩٠] .
(٢) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، برقم : (٢٥٧٧) .
(٣) شرح الطحاوية : ٣٣٩ ، وانظر للتوسع الفتاوى : ج ٧ / ٤٠٦ ، التربية الجادة ضرورة : (٦ – ١٩) ، وقد ورد لفظ العمل ومشتقاته في القرآن الكريم أكثر من ٣٠٠ مرة (العمل وتطبيقاته ، ص ٣) .

الله - عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) (١).

كما أنها محل السؤال ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

١ - ٨ : إن اختلاف الناس في منازلهم يوم القيامة إنما يكون بتفاوت أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) .

قال القرطبي - رحمه الله - : ((﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾ ، أي : ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم)) . قال ابن زيد : ((درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفالاً ، ودرج أهل الجنة عُلُوًّا . ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ ، أي : لا يُزاد على مسيء ولا ينقص من محسن)) (٤) ، فليس ثَمَّ إلا العمل ، وقد قال ﷺ : ((ومن بطّأ به عملُه لم يُسرع به نسبه)) (٥) .

١ - ٩ : أن الله - عز وجل - يمقت الأقوال التي لا رصيد لها من الأعمال ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (٦)(٧) .

١ - ١٠ : أن الدعوة إن لم يحمل لواءها رجال صادقون عاملون مخلصون ، يقيمونها في أنفسهم وواقع الناس ، فلن يكتب لها التمكين ، وستبقى كلمات خاملة ، وتصورات جامدة .

إن الروح ((العملية)) التي سرت في كيان سلفنا الصالح ، وخالطت دماءهم ، وجرت في عروقهم ، جعلت منهم : ﴿ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ ﴾(٨) ، وبعضهم : ﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا ﴾ (٩) ، وبعضهم : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ (١٠)، ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ

(١) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب : تحريم ظلم المسلم وخذله ، برقم : ٢٥٦٤ .
(٢) سورة النحل [٩٣] .
(٣) سورة الأحقاف [١٩] .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : ١٦ / (١٩٨ - ١٩٩) .
(٥) رواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب فضل الاجتماع على الذكر ، برقم : (٢٦٩٩) .
(٦) سورة الصف [٢ – ٤] .
(٧) انظر للتوسع : التربية الجادة ضرورة ، ص (٦ - ١٨) .
(٨) سورة التوبة [١٠٠] .
(٩) سورة الأنفال [٧٢] .
(١٠) سورة آل عمران [١٧٢] .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .. أولئك الجيل الذي ربته معاناة العمل وميادين الممارسة ؛ فصنع الأحداث ، ونشر الدعوة ، ومكّن لها بفضل الله ونصره ، بعد أن نصره في أعماله وفي واقعه صدقًا .

((إن الدعوة اليوم بحاجة إلى رجال ينزعون إلى الجد ، ويستعذبون التعب ، ويرتاحون بالنصب ، رجال النفوس الصادقة والهمم العالية والعزائم القوية ، التي لا تعرف إلا سمت التلقي للتنفيذ ، فتأبي أن يقعدها الكلل ، أو يدركها الملل ، أو تنفق أعمارها في المراء والجدال)) (٢) .

وقبل هؤلاء ، ما نراه في سير أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه ، فطريق الدعوة ((تعب فيه آدم ، وناح فيه نوح ، وألقي في النار إبراهيم ، ونُشر بالمنشار زكريا ، وذُبح السيد الحصور يحيى ....)) .

١ - ١١ : إن الغاية من الخلق هي العمل في طاعة الله (العبادة) ، قال - عز وجل - : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾(٣) ، ((وهذا تعبير له إيحاؤه ودلالته ؛ فليس المراد تمييز سيئ العمل من حسن العمل ، بل المفترض أن يكون عمل الجميع حسنًا ، ولكن أيهم أحسن وأرجح ؟ .. والمسلم مطالب بالعمل إلى آخر رمق في الحياة ، حتى لو قامت الساعة وفي يده فسيله ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها ، كما أمره رسول الله ﷺ)) (٤) ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾(٥) .

وأخيرًا : فإن الإسلام قد حث على العمل الصالح النافع وحض عليه ، ونهى عن الكسل وحذّر من عواقبه ، فما أجدرنا أن نكون عمليين ! .

٢ - ((أيهما أسعد حالاً .. ؟)) (٦) :

لك أن تتأمل وتتساءل : أيهما أسعد حالاً عند الله .. ؟ :

---

(١) سورة التوبة [٨٨] .
(٢) أين العمل ؟ ، ص ٣ ، بتصرف واختصار .
(٣) سورة الملك [٢] ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [سورة الكهف : ٧] .
(٤) أين الخلل ؟ : (١٢ - ١٣) .
(٥) سورة التوبة [١٠٥] .
(٦) هذا المبحث مقتبس باختصار من كتاب منازل العباد : بين القوة العلمية والقوة العملية ، ص (٢٢ - ٢٩) .

٢ - ١ : رجل أوتي من العمل ما يتمكن به من حشد النصوص الدالة على فضل قيام الليل وذكر الأسباب الميسِّرة له ، وما له من الآثار والفوائد ، ثم هو لا يقوم الليل - وآخر لا يعلم من ذلك إلا أن قيام الليل متسحب ، وقد داوم عليه رسول الله ﷺ ، فاجتهد ليله بين يدي ربه قانتًا ساجدًا قائمًا باكيًا ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

فالمرء لا يكون قائمًا الليل بمجرد العلم بقيام الليل وفضله وأحكامه وفوائده ، أو بمجرد الحديث عن ذلك ، ولا يكون ورعًا بمجرد علمه بالورع ، ولا يكون غاضًّا لبصره حافظًا لفرجه بمجرد حديثه في ذلك وأمره الناس به ، ولا يكون مخلصًا بمجرد علمه بمعنى الإخلاص ومعنى الرياء ، أو بمجرد حديثه في ذلك ، كما لا يكون العبد داعية بمجرد كلامه عن الدعوة وعلمه بوسائلها وآدابها ، ولا يكون العبد قوي الإيمان بمجرد علمه بعقيدة أهل السنة في الإيمان والإحاطة بكافة التفاصيل والمسائل المتعلقة بذلك ، أو بعلمه بعوامل تقوية الإيمان وعوامل ضعفه ، ومظاهر قوة الإيمان ومظاهر ضعفه .. فقد يعلم الرجل كل هذا ، بل ويتحدث عنه ويصنف فيه ، ومع ذلك يكون ضعيف الإيمان ، وفي الوقت الذي يكون غيره ممن لم يحط بجميع ذلك ولا يجيد الحديث فيه أقوى إيمانًا ويقينًا ؛ فأيهما أسعد حالاً ؟! .

٢ - ٢ : وقد نجد شيخًا يعلم الناس أن يثقوا بالله ، ويتيقنوا أن رزقهم على الله وأنه لا أحد يستطيع منع رزق الله عنهم ، وأن الإنفاق في سبيل الله لا ينقص الرزق ، وأنه ما نقصت صدقة من مال ، ويحذرهم من البخل والشح ، وهكذا .. فإذا ما قدر عليه رزقه في يوم من الأيام ، أو طلبت منه نفقة في سبيل الله ، كان أشد جزعًا من الجهال ، بل ربما كان في العوام - ممن هم أفقر منه - من هو أهنأ بالاً منه وأوثق بالله وأسرع إلى الإنفاق في سبيل الله ؛ فمن أسعد حالاً عند الله - عز وجل - : صاحب القوة العلمية الذي لم يثق برزق ربه وبخل بماله على دين الله ، أم العامي صاحب القوة العملية الواثق برزق الله المنفق في سبيل الله ؟

٢ - ٣ : أيهما أعظم أثرًا في الناس وأعظم مكانةً في الآخرة : رجل يتحدث عن الإيثار أو عن الزهد ويعرف ذلك في اللغة والاصطلاح ، ويعرف الكثير من أخبار الزهاد وقصصهم وفضل الزهد وأخبار أهل الإيثار وفضلهم ، ثم هو في واقع حياته الشخصية يموت على الدينار والدرهم ، ويسيء إلى نفسه ودعوته بسبب حرصه الشديد على الدنيا أو على راحة نفسه ومصلحتها الشخصية ، وهو وإن كان يحدث الناس عن الإيثار بلسانه فإنه يعلمهم بعمله وسلوكه الأنانية والامتناع عن الإيثار ، ويعلمهم التنافس على الدنيا وحظوظها ولو على حساب الدعوة والتربية .. فهل هذا أحسن أثرًا في الدنيا وأعظم مكانة في الآخرة أم رجل لا يعلم علمه ولا يجيد أن يقول مثل قوله ولكنه بحاله وواقعه نموذج في الزهد في الدنيا وعدم الحرص عليها ، ونموذج في الإنفاق في سبيل الله وفي إيثار إخوانه على نفسه .. هل يستويان ؟ ! رحم الله من قال : ((أخشى أن يكون حظي من

علمي لساني))[١]. أ . هـ .

وقد قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٢] .

٣ - تصنيف الناس من حيث العلم والعمل :

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : ((فصل في تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية :

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفًا في القوة العلمية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ؛ فهو فقيه ما لم يحضر العمل ، وإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله ، ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه ؛ وتقتضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد ، والانحرافات في الأعمال ، والأقوال والمقامات ، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداءُ هذا من جهله ، ودواءُ الأول من فساد إرادته وضعف عقله ؛ وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم ، بل على طريق الذوق والوجد والعادة . يُرى أحدهم أعمى عن مطلوبه ، لا يدري من يعبد ولا بماذا يعبده ؛ فتارة يعبده بذوقه ووجده ، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه ، من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ، ونحوها .. وتارة يعبده بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس لها أصل في الدين ، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنًا ما كان . وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد ، فهؤلاء كلهم عمي عن ربهم وعن شريعته ودينه ، لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ، ولا يقبل من أحد دينًا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تَعرَّف بها إلى عباده على ألسنة رسله ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة بالرب ولا عبادة له . **ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله ورجي له النفوذ وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ...))**[٣] .

---

(١) منازل العباد : بين القوة العملية والقوة العلمية ، (٢٢ - ٢٩) باختصار .
(٢) سورة النساء [٩٥] .
(٣) طريق الهجرتين ، (٣٠٩ - ٣١٠) .

٤ ـ من آثار القعود عن العمل ((في الدعوة)) :

إن آفة الاتكاء على الأقوال فحسب دون أن يصحبها عمل لها آثار وخيمة على الفرد والدعوة ومن تلك الآثار :

٤ ـ ١ : حرمان الدعوة من الطاقات والمواهب والملكات ؛ حيث تبقى معطلة ، يستثمرها الشيطان في مجالس القيل والقال وكثرة السؤال ، والنقد الجارح غير البناء لدعاة آثروا العمل ولم يركنوا إلى القعود والكسل ؛ فراح أولئك القاعدون يسوّغون لقعودهم بممارسة عملية إحصاء للأخطاء وتفخيمها والطعن في دعاة أسهروا ليلهم وشغلوا نهارهم وبذلوا أموالهم في نصرة الدعوة ونشرها .

٤ ـ ٢ : تشويه صورة الدعوة والدعاة لدى الناس ؛ إذ ما أقبح أن يرى الناس داعية يتكلم ولا يفعل ، ويقول ولا يعمل .

((قال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد ـ رحمه الله ـ : ذهاب الإسلام على يدي أربعة أصناف من الناس :

- صنف لا يعملون بما يعلمون .
- وصنف يعملون بما لا يعلمون .
- وصنف لا يعملون ولا يعلمون .
- وصنف يمنعون الناس من التعلم .

قلت (ابن القيم ـ رحمه الله ـ) : الصنف الأول من له علم بلا عمل ؛ فهو أضر شيء على العامة ، فإنه حجة لهم في كل نقيصة ومنحة . والصنف الثاني العابد الجاهل ، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله . وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم ، فإذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة . والصنف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة . والصنف الرابع نواب إبليس في الأرض ، وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين ؛ فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن ، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدي الله وطريقه . فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف ـ رحمة الله عليه ـ وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهلكة ، وما يلقى العالم الداعي إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم ، والله يستعمل من يشاء في سخطه كما يستعمل من يحب في مرضاته ، إنه بعباده خبير بصير))[1] .

---

(1) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٦٠ .

قال الزهري : ((لا يُوثَّق للناس عملُ عاملٍ لا يعلم ، ولا يُرضى بقول عالم لا يعمل)) [1] .

٤ - ٣ : التفريط في التزود بالعمل الصالح ، والركون إلى الأماني الكاذبة والآمال الخادعة ، وما أعظمها من خسارة ، وما أشدها من ندامة يجدها المفرط يوم يأتيه الموت بغتة فيقول متحسرًا : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [2]، فيأتيه الجواب قاطعًا لكل أمانيه : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [3].

٤ - ٤ : باب إلى الضلال :

إن القعود عن العمل من غير عذر مع توافر العلم لهو سبيل المنافقين الذين يعلمون ولا يعملون ، وهو باب إلى الانسلاخ من الدين والنكوص منه كما قال الله - تعالى - :
﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [4] .

٥ - من عوائق ((العملية)) :

هناك أسباب تدعو إلى القعود وتثبط المرء عن العمل ، وتشغله عنه ، ويجد فيها المتكاسل عذرًا في توانيه عن العمل الجاد المثمر ، ومن أبرزها :

٥ - ١ : الترف الفكري :

العلم - على شرفه - لا يُراد لذاته ، بل هو وسيلة للعمل ، قال الشاطبي - رحمه الله - : ((العلم وسيلة من الوسائل ، ليس مقصودًا لنفسه من حيث النظر الشرعي ؛ وإنما هو وسيلة إلى العمل ، وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلَّف بالعمل به)) [5]. وقال بعض الحكماء [6]: العلم خادم العمل ، والعملُ غاية

---

(1) قال الألباني (في اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي) ص ٢٤ : إسناد حسن مقطوع موقوف على الزهري .
(2) سورة المؤمنون [٩٩ - ١٠٠] .
(3) سورة المؤمنون [١٠٠] .
(4) سورة الأعراف [١٧٥ - ١٧٦] .
(5) الموافقات : ١ / ٦٥ .
(6) انظر اقتضاء العلم العمل ، ص ١٥ .

العلم ، فلولا العمل لم يُطلب علم ، ولولا العلم لم يُطلب عمل ، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كَلاً على صاحبه ، وقد استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع ؛ ولهذا لم يكن همُّ السلف الصالح جمع العلم دون الاكتراث بالعمل به وامتثاله في واقع حياتهم ، وهم يروون حديث أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : ((**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماذا عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه**)) (١) .

وبناءً على هذا المبدأ العملي فإن السلف ضيّقوا الخناق على أصحاب الترف الفكري ، والذين يشغلون أوقاتهم في بحث مسائل لا طائل تحتها ، فكانوا يكرهون الخوض فيما خفي من المسائل الاعتقادية لعدم احتياجها للعمل ، كما أنهم أيضًا كرهوا التفريعات في المسائل الفقهية التي لا يتوقع حصولها أو السؤال عنها ، وقد نهى النبي ﷺ عن كثرة السؤال فقال : ((**إن الله كره لكم ثلاثًا : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال**)) ، وذلك توجيهًا منه للأمة إلى الانشغال بما علمته ، وأن يكون عملها أكثر من كلامها وسؤالها ، وهذا كله يبني في الأمة القوة العملية .

وقد أبان الشاطبي - رحمه الله - عن ضابط من ضوابط منهجية البحث العلمي فقال : ((وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي ، وأعني بالعمل عمل القلب ، وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعًا . والدليل على ذلك استقراء الشريعة ؛ فإنا قد رأينا الشارع يعرض عما لا يفيد عملاً مكلفًا به)) (٢) .

وجعلها البنا - رحمه الله - أصلاً من أصول الفهم فقال : ((وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نُهينا عنه شرعًا ، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع ، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب - رضوان الله عليهم - وما شجر بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته ، وفي التأول مندوحة)) (٣) .

٥ ــ ٢ : التهرب من المسؤوليات :

كثيرًا ما يتنصل القاعدون عن العمل - من غير أُولي الضرر - من الواجبات

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، وصحح الألباني في تحقيق اقتضاء العلم العمل برقم : ١

(٢) الموافقات : ١ / ٣١ ، وانظر للتوسع اقتضاء العلم العمل ، والتربية الجادة ضرورة ، والموافقات أيضًا : ١ / ٦٥ .

(٣) رسائل البنا : ص ٢٦٩ .

المناطة بهم ، والمسؤوليات الموكلة إليهم بأعذار واهية ، وطرق ملتوية ؛ ليسوغوا لأنفسهم القعود عن العمل ، ومن صوره :

- الزعم بأن تغيير المنكر واجب العلماء وحدهم .
- الزعم بأن الناس قد فسدوا ، وأعداء الله قد تمكنوا ؛ فلا فائدة من عملهم ، وماذا عساه ينفع في خضم هذه التيارات المتلاطمة من قوى الشر التي تحيط بالمسلمين وتنخر كيانهم .
- انتظار المهدي .

٥ ـ ٣ : الانشغال بالنقد والخلاف :

إن من عوائق العملية لدى فئام من الدعاة انهماكهم في نقد الآخرين ، وتهييجهم لأسباب الخلاف والفرقة والتعصب ؛ فبدلاً من أن تُوجه تلك الطاقات إلى العمل النافع المثمر البناء ، فإنها تبدد في الصراعات ، وتراشق التهم حتى يصل الأمر إلى التفسيق والتبديع ، بل والتكفير ! ! فيضعف بعضهم بعضًا ، والعدو يتربص ويخطط ويحاصر ويضيِّق ... والله وحده المستعان .

٥ ـ ٤ : ضعف الثقة بالنفس :

بين الغرور وضعف الثقة بالنفس ضاعت الكثير من الطاقات التي كان يمكن الاستفادة منها وتوظيفها في ميدان الدعوة ، وكما أن الغرور يقصم الظهور ، فإن ضعف الثقة بالنفس يؤدي إلى الخمول والفتور .

والإسلام في دعوته للعمل لم يجعل عذرًا لمعتذر بقلة بضاعته أو وهن قوته أو ضيق ذات يديه ؛ إذ فتح ميادين للعمل واسعة ، يلج منها كل غيور حريص على دينه ، محب لنشر الخير في أبناء أمته ؛ فالعمل ليس مقصورًا على فئة دون أخرى .. ليس مقصورًا على العلماء ، أو الأغنياء ، أو المجاهدين الأقوياء .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((**تبسمك في وجه أخيك صدقه ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة**)) (١) .

والمسلم لا يحتقر من الأعمال الصالحة شيئًا مهما صغر في عينه ؛ لأن كل عمل في الإسلام معتبر مهما قلَّ أو صغُر : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ (٢) ، وقد قال ﷺ : ((**اتقوا النار بشق تمرة**)) (٣) .

---

(١) رواه الترمذي (ح / ١٩٥٦) ، وقال : حسن غريب ، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني برقم : ٥٧٢ .
(٢) سورة الزلزلة [٧] .

وغُفر لبغِيٍّ من بني إسرائيل لسقيها الماء لكلب يلهث من شدة العطش ، وغُفر لرجل لأجل غصن شوك في الطريق أخَّره ؛ وامرأة سوداء كانت تقم المسجد ، فتموت ، فيذهب إلى قبرها فيصلي عليها ﷺ ؛ إكرامًا لتلك الخدمة التي قد يزهد فيها بعض القاعدين .

ومع سعة أبواب الأعمال الصالحة وكثرة تنوعها وتعدد ألوانها وامتداد زمنها فإنه قد يعجز البعض عن الكثير منها ، بل قد يعجز عنها كلِّها ، فيفتح الإسلام أمامه بابًا للعمل الصالح لا يمكن أن يعجز عنه أو يغلق بابه .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ فقال : ((**تكف شرَّك عن الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك**)) [٢] .

٥ ـ ٦ : الاكتفاء بالصحبة الصالحة [٣] :

إن من نعم الله ـ عز وجل ـ على عبده أن يهيئ له إخوان صدق يعيش معهم ، ويتربي في أكنافهم وتحت أعينهم ، ويتعاون معهم على البر والتقوى .. ولكن هناك من يكون حظه من هذه الصحبة الحضور والانصراف دون مشاركة إيجابية أو تفاعل في عمل مفيد ، بل حتى هذه الغدوة والروحة مع هؤلاء الأخيار جعلها حسب المزاج وفضول الأوقات ونوع اللقاءات . ويحسب أنه قد أدى ما يجب عليه في شكر نعمة الله عليه في هذه الصحبة التي حرمها الكثير .

٥ ـ ٧ : الإسراف في المباحات :

ينام ملء جفنيه ، ويضحك ملء شدقيه ، ويهذر في لغوٍ ممل لساعات طوال ، ويأكل حتى التخمة التي لا يستطيع معها أن يتنفس ؛ فهل يستطيع مثل هذا وأمثاله أن ينهضوا لعمل ؟!.

قال عمر رضي الله عنه : ((إيّاكم والبَطنة في الطعام والشراب ، فإنها مفسدة للجسد ، مورثة للسقم ، مكسلة عن الصلاة ؛ وعليكم بالقصد فيهما ، فإنه أصلح للجسد ، وأبعد عن السرف ، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه)) .

وقال أبو سليمان الداراني : ((من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة المناجاة ، وتعذر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق ـ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ـ وثقل عن العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباع يدورون حول المزابل [حيث تُقضى الحاجة])) .

قلت : هذا لمن استغرق وأسرف في طعامه وشرابه ؛ فكيف بمن أسرف في

---

(٢) رواه البخاري ومسلم .
(١) رواه مسلم .
(٢) للتوسع ، أنظر التربية الجادة ضرورة ، ص ٧٨ .

فضول نظراته ولفظاته وخطراته وحركاته ؟ ! إن من شغل نفسه بغير المهم ضيّع المهم وفوَّت الأهم ، والله المستعان .

٥ - ٨ : الذنوب وضعف الإيمان :

قيل : ((كم من نظرة منعت قيام ليلة ، وكم من أكلة منعت قراءة سورة)) .

قال ابن القيم - رحمه الله - : ((فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله ، ويقطع طريق طاعة أخرى ، فينقطع عليه طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جرًّا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة ، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة منعته من عدة أكلات أطيب منها)) [1] .

وقال ابن الجوزي - رحمه الله - : ((وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن أن لا عقوبة ، وغفلته عما عوقب به عقوبة .

وربما كان العقاب العاجل معنويًّا ، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل : يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني ؟ فقيل له : كم أعاقبك وأنت لا تدري ، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي ؟ ! .

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد ، حتى قال وهب بن الورد وقد سئل : أيجد لذة الطاعةِ من يعصى ؟ فقال : ولا من همَّ .

فَرُبَّ شخص أطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته ، أو لسانه فحرم صفاءَ قلبه ، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سرّه ، وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة)) [2] .

ويؤيده قول سفيان الثوري : ((حُرِمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته)) ، قيل لابن مسعود رضي الله عنه : ((لا نستطيع قيام الليل)) . فقال : ((أبعدتكم الذنوب)) [3] .

((وجاء رجل إلى الحسن البصري فقال له : يا أبا سعيد ، إنى أُعدُّ طهوري وأحب قيام الليل فلا أستطيع ! فقال الحسن - رحمه الله - : ذنوبك قيَّدتك)) .

٥ - ٩ : الفوضى والارتجالية :

إن الفوضى في إدارة الأوقات ، والارتجالية في أداء الواجبات ، والمزاجية في القيام بالمسؤوليات ، والجنف والتعسف في ترتيب الأولويات - إهدار للطاقات ، وتبديد للجهود ، وطريق للفشل .

ومن صور الفوضى : الاندفاع بحماسة إلى عمل ، والغلو فيه حتى يصل إلى

---

(1) الجواب الكافي ، ١٠٦ .
(2) صيد الخاطر ، ص (٥١ - ٥٢) ، باختصار .
(3) تحذير القاصي والداني ، (٤٣ - ٤٤) .

الملل منه والزهد فيه فينقطع عنه ، ((**إن المنبت لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى**)) ؛ ولهذا جاء عن النبي ﷺ أنه قال : ((**سددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عملُه الجنة ، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**)) [١] .

٥ - ١٠ : الانشغال بالتشكي من الواقع :

((هناك آفة غدت ظاهرة عامة بيننا نحن المسلمين ، والتي غدت تعوق خطانا عن السير ، وهي كثرة النواح على الماضي وقلة العمل للحاضر ، والنواح لا يحيي ما مات ، ويرد ما فات . إن آفتنا كثرة الشاكين المتوجعين ، وقلة المداوين ، كثرة من يسبون الظلام ، وقلة من يوقدون الشموع ..

أجل ، كثرت الشكوى ، وتكررت من الأدواء والمآسي ، حتى لم يعد هناك أحد إلا يشكو ، فمن المشكو منه إذن ؟ ! كلنا شاك ، وكلنا مشكو منه .

ولقد حدثوا أن واعظًا بليغًا وعظ الناس يومًا حتى بكوا من تأثير الموعظة ، ثم بحث عن كتابه فوجده قد سُرق ، ونظر إلى الحاضرين ؛ عسى أن يلمح بينهم وجهًا تلوح عليه آثار الجريمة ؛ ولكنه وجد الجميع يبكون ، فقال لهم : كلكم يبكي ، فمن سرق الكتاب ؟ !))[٢].

٥ - ١١ : مصاحبة البطالين :

صحبة البطالين تميت الهمم ، وتوهن العزائم ، وتثقل الخطى ، وتضعف القوى ، وتضيع الأوقات سُدىً ، إذا هممت بالعمل النافع ثبطوك ، وإذا شرعت به أعاقوك ؛ ولهذا قال ﷺ : ((**المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل**))[٣].

٥ - ١٢ : التسويف وطول الأمل :

إن من أكبر المثبطات عن العمل وسرعة المبادرة إليه التسويف . قال أبو الجوزاء في قوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ ، قال : ((تسويفًا)) [٤] ، وقيل لرجل : ((أوصِ)) ، قال : ((احذروا سوف ؛ فإنها جند من جند إبليس)) . فإياك - أخي - إيَّاك وتأمير التسويف على نفسك ، وإمكانه من قلبك ؛ فإنه محل الكَلال ومؤملُ التلف ، وبه تقطع الآمال ،

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، برقم : ٦٤٦٤ ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، ح (٦ / ٢٨) .
(٢) أين الخلل ؟ ، ص ٧٦ بتصرف .
(٣) رواه أبو داود ، برقم : ٤٨٣٣ ، والترمذي برقم : ٢٣٧٨ ، وقال حديث حسن غريب ، قال الألباني : وهو كما قال .
(٤) اقتضاء العلم العمل ، ١١٣ - ١١٤ .

وفيه تنقطع الآجال .. وبادر يا أخي فإنك مُبادَرٌ بك ، وأسرع فإنك مسروع بك ، وجدَّ فإن الأمر جَدٌّ ، وتيَقظ من رقدتك ، وانتبه من غفلتك .

وفي الحديث : ((**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم**))[1] .

٥ ـ ١٣ : أسباب أخرى :

- اليأس .
- الخوف .
- الانشغال بالدنيا والزوجة والأولاد أكثر مما هو مطلوب شرعًا .

٦ ـ حوافز العمل :

٦ ـ ١ : زيادة الإيمان :

إن أعظم حافز يدفع المرء للعمل الإيمان بالله ، فكلما ازداد في القلب زاد اندفاع صاحبه إلى العمل ؛ يرجو بذلك مرضاة الله والفوز بموعود الله . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[2] . وإن من أعظم أسباب زيادة الإيمان المحافظة على الفرائض ، والبعد عن المعاصي ، والديمومة على الأذكار والأوراد والصدقة والصيام ، ونحوها من المستحبات ، والبعد عن الشبهات .

٦ ـ ٢ : العلم للعمل :

العلم في الأصل حافز للعمل إذا ألزم صاحبه نفسه بأن يعمل به كما روي عن الإمام أحمد أنه لم يكتب حديثًا في مسنده مما فيه عمل إلا وعمل به ، وإنه كتب حديث بقاء الرسول ﷺ في الغار ثلاثة أيام ، فبحث عن مكان فاعتزل به ثلاثة أيام .

ومما يعين على غرس مبدأ التطبيق العملي للعلم استحضار المرء لموقفه بين يدي ربه ـ عز وجل ـ وسؤاله له عن : ((**علمه ماذا عمل به ؟**)) ، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ((إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يُقال : قد علمت ؛ فماذا عملت فيما علمت ؟))[3]. ومما يعين على غرس مبدأ ((العلم للعمل)) الإعراض عن بحث المسائل التي لا ينبني عليها عمل ، كما فعل ذلك النبي ﷺ مع الذي سأله : ((متى

(1) السلسلة الصحيحة للألباني برقم : ٧٥٧ .
(2) سورة الحجرات [١٥] .
(3) الدارمي في سننه برقم : ٢٦٧ .

الساعة ؟)) ، فقال له : ((**وما أعددت لها ؟**)) ؛ فصرفه إلى ما هو أهم وأجدر بالاهتمام وهو الاستعداد لها بالعمل الصالح ، وتأكيد هذه المبادئ في النفس من أهم ما يعين المرء على العمل . وقد كان نقش خاتم حسين بن علي رضي الله عنه ((علمت فاعمل))[1].

٦ ـ ٣ : العمل الجماعي :

المرء ضعيف بنفسه ، قوي بإخوانه ، إذا نسى ذكّروه ، وإذا ذكر أعانوه ، فهو قوة إيمانية تعطيه دافعًا ، وحماسة للعمل الدؤوب ، يحاط معها بسياج من النصح والإرشاد ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [2]؛ فهو تعاون إيماني منهجه التقوى وهدفه البر ، وكم من محب للخير اعتزل إخوانه فاستحوذت عليه الذئاب بعد أن أصبح قاصيًا ، فنكص على عقبيه .

٦ ـ ٤ : استشعار المسؤولية الذاتية :

كل منا سيسأل عن نفسه ، وسيحاسب عن عمله . كما في قوله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾[5].. فأنت مسؤول عن تلك المواهب التي وهبك الله إياها ، ماذا عملت بها ؟ ! .

كثير من الدعاة مدفونة مواهبهم ، معطلة طاقاتهم ، مشلولة قدراتهم ؛ لأنهم ينتظرون من يحركهم ويوجههم ، فهم يفتقدون الشعور الذاتي بضرورة استثمار هذه الطاقات وإحياء مواتها لتلبية حاجات النفس في تزكيتها والارتقاء بها ، والنهوض بأعباء الدعوة للتمكين لها وانتشارها . ولله در خالد بن الوليد يوم مؤتة ؛ إذ رأي القادة قد قضوا شهداء ، والمسلمين في (حيص بيص) ، فأخذ الراية دون أن يؤمر ، إذ الواجب يقتضي ذلك .

٦ ـ ٥ : تذكر اليوم الآخر :

إن من أعظم ما يدفع المسلم للعمل الصالح تذكُّرَهُ لأحوال الناس يوم القيامة وفي البرزخ .

---

(1) انظر التربية الجادة ، ١٤ ، وانظر أيضًا للتوسع : الجواب الكافي ، ص ٧٥ .
(2) سورة المائدة [٢] .
(3) سورة المدثر [٣٨] .
(4) سورة الإسراء [١٣] .
(5) سورة عبس [٣٤ - ٣٨] .

- فيتذكر إذا وضع في قبره ما جاء في حديث البراء عنه ﷺ أنه قال : ((**ويأتيه [أي يأتي إلى الميت في قبره] رجل حسنُ الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرُّك ، هذا يومك الذي كنت تُوعد ، فيقول له : ما أنت ؟ فوجهك الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح**))[1] .
- ويتذكر شدة الموقف في أرض المحشر ، والناس عطشى أحرقت رؤوسهم الشمس ، يتذكر : ((**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .....**))[2] .
- ويتذكر الصراط وظلمته ، وشدته وحدته .. ثم يتذكر قول رسول الله ﷺ : ((**فيعطون نورهم على قدر أعمالهم ، وقال : فمنهم من يُعطَى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يُعطَى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يُعطَى نوره مثل النخلة بيمينه ، حتى يكون آخر من يُعطَى نوره على إبهام قدمه ، يضيء مرة ، ويطفأ مرة ، إذا أضاء قدّم قدمه ، وإذا طفيء قام ، قال : فيمر ، ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف ، مزلة ، فيقال لهم : امضوا على قدر نوركم**))[3] .

٦ - ٦ : الدعاء :

إن الأمانة التي حملها الإنسان لثقيلة إلا على من يسرها الله عليه ، فحبب إليه الإيمان والعمل الصالح ؛ ولهذا كان في دعائه ﷺ : ((**اللهم أعنا على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك**))[4]. وكان يستعيذ من العجز والكسل ، ويكثر من الاستعاذة منهما ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : كنت أخدم النبي ﷺ فكنت أسمعه يكثر أن يقول : ((**اللهم إني أعوذ بك من الهـمِّ والحَـزَن ، والعجز والكسل ، والبخل والجبن ، وضَلَع الدَّين ، وغلبة الرجال**))[5]، والضَلَع : الثقل ، أي ثقل الدين وكل ما ذكر من عوائق المرء عن العمل والمثبطات له ..

كما كان يستعيذ من عمل لا يثمر عملاً صالحًا نافعًا ، فكان ﷺ يقول : ((**اللهم إني**

---

(١) رواه أبو داود (٢ / ٢٨١) ، والحاكم (١ / ٣٧ - ٤٠) ، والطيالسي رقم : ٧٥٣ ، وصححه ابن القيم .
(٢) أحكام الجنائز للألباني ص (١٥٩ - ١٦٠) .
(٣) رواه الحاكم ، وصححه الألباني .
(٤) رواه أحمد (٢ / ٢٩٩) بإسناد صحيح .
(٥) رواه البخاري كتاب الدعوات ، باب التعوذ من غلبة الرجال ، برقم : ٦٣٦٣ ، ورواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء (باب التعوذ في العجز والكسل) برقم : ٢٧٠٦ .

أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ونفسٍ لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها))[١] .

٦ - ٧ : محاسبة النفس :

ينبغي للمؤمن أن يحاسب نفسه على تقصيرها وتفريطها ، ويحزن على فوات الفضائل ، وتخلفه عن لحاق أهل الفضل في عملهم واجتهادهم . قال ابن رجب - يرحمه الله - : ((وينبغي للمؤمن أن لا يزال يرى نفسه مقصِّرًا عن الدرجات العالية ، فيستفيد بذلك أمرين نفيسين : الاجتهاد في طلب الفضائل ، والازدياد منها ، والنظر إلى نفسه بعين النقص))[٢] .. ((**والكيِّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني**))[٣] .

٧ - نماذج من بكاء السلف على فوات الأعمال :

٧ - ١ : أبو هريرة رضي الله عنه :

لما حضره الموت بكى ، فقيل له : ((ما يبكيك ؟)) ، فقال : ((أمَا إني لا أبكي على دنياكم هذه ، ولكني أبكي على بُعْد سفري ، وقلة زادي ، وإني أصبحت في صعود مهبط على جنة ونار ، لا أدري أيهمَا يؤخذ بي))[٤] .

٧ - ٢ : يونس بن عبيد :

((التابعي الجليل الذي لقي أنَسًا رضي الله عنه ، ونهل من خلقه ومشاعره . لما حضرته الوفاة ، لم يتفكر في معاصٍ قد اقترفها ، أو فتنة قد خاضها لا يعلم مصيره فيها ، إنما انحصر تفكيره في خير لم يصبه أو يعمل به ، فيندم أشد الندم على تركه لهذا الأمر العظيم ، وينظر إلى قدميه فيبكي ، ولا يعرف من حوله سبب بكائه ، أو ما يختلج في نفسه ، فيسألونه : ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ ، فقال : قدماي لم تغبَّرا في سبيل الله - عز وجل - . إنه يبكي ؛ لأنه لم يغبِّر قدميه في مواطن الجهاد ، ذروة سنام الإسلام ..))[٥] ، يبكي على فوات أجر الجهاد ؛

---

(١) رواه مسلم ، الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل ، برقم : ٢٧٢٢.
(٢) جامع العلوم والحكم : ١ / ٣٠٩ .
(٣) رواه الترمذي مرفوعًا (٢٤٥٩) في صفة القيامة ، باب ٢٥ ، وقال : حديث حسن ، وابن ماجة (٤٢٦٠) في الزهد ، والحاكم في المستدرك (١ / ٥٧) ، وقال : صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : لا والله ، أبو بكر واهٍ ، والحديث ضعيف .
(٤) عظماء على فراش الموت ، ص ٢٢ .
(٥) واحات الإيمان ، ص ١٠٦ بتصرف .

إذ لم يكن له فيه سهم .

٧ ـ ٣ : وددت لو كان بعرًا ! :

عندما احتضر عبد العزيز بن مروان أتاه البشير يبشره بمقدم مالٍ من الذهب ، فقال وهو يعالج سكرات الموت : « مالي وله ، لوددت أنه كان بعرًا حائلاً بنجد ، زهد أرباب الأموال بأموالهم ، وأهل الملك بملكهم ؛ فهم فقراء إلى عملٍ صالح يبلِّغهم ما يأملون ، وينجيهم مما يحذرون ، ويؤمنهم مما يخافون » .

٧ ـ ٤ : يتمني لو مات شهيدًا :

« قال أبو الزناد : إن خالدًا بن الوليد لما احتضر بكى ، وقال : لقيت كذا وكذا زحفًا ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربةً بسيف ، أو رميةً بسهم ، وها أنا أموت في فراشي حتف أنفي كما يموت العير ، فلا نامت أعينُ الجبناء »[1] .

٧ ـ ٥ : يبكي لانقطاع العمل :

لما احتضر عمرو بن العاص ﷺ بكى .. فقال له ابنه : « يا أبتِ ، ما كنت أخشى أن ينزل بك أمرٌ من أمر الله ـ عز وجل ـ إلا صبر عليه » ، فقال : « يا بني إنه نزل بأبيك خِصال ثلاث : أما أولهن : فانقطاع العمل .. وأما الثانية : فهول المطلع ... وأما الثالثة ففراق الأحبة ، وهي أيسرهنَّ ، ثم قال : اللهم إنك أمرت فتوانيت ، ونهيتَ فعصيتُ ، اللهم ومن شيمتك العفو والتجاوز .. » .

٧ ـ ٦ : تولوا وأعينهم تفيض من الدمع :

أولئك هم فقراء الصحابة الذين كان الفقر عائقًا لهم من الجهاد في سبيل الله ، ونصرة دينه ، فجاءوا الرسول ﷺ يريدون ما يحملهم عليه ليجاهدوا معه ، ويذبوا عن دين الله بأنفسهم ـ وذلك في غزوة العسرة ـ فاعتذر منهم رسول الله ﷺ بما أخبرنا الله عنهم : ﴿ قُلْتَ لاَ أَجِد مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، فلم تطب نفوسهم عن القعود عن العمل ، وفوات فرصة الجهاد مع رسول الله ﷺ ، ففاضت أعينهم بالدموع حسرة وحرقة ألا يجدوا ما ينفقون في نصرة هذا الدين . قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِد مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾[2].

٧ ـ ٧ : سبقني الصالحون :

قال سفيان الثوري : « جلست ذات يوم أُحدِّث ، ومعنا سعيد بن السائب الطائفي

(1) على فراش الموت ، ص ٣٨ .
(2) سورة التوبة [٩٢] .

، فجعل يبكي حتى رحمته ، فقلت : يا سعيد ، ما يبكيك وأنت تسمعني أذكر أهل الخير وفعالهم ؟ فقال : يا سفيان ، وما يمنعني من البكاء إذا ذكرت مناقب أهل الخير وكنت عنهم بمعزل .. ؟)) .

٧ ـ ٨ : بكاءٌ على قدم ما اغبرت في سبيل الله :

- قال إبراهيم بن أدهم : دخلنا على عابد وهو ينظر إلى رجليه ويبكي ، فقلنا : مالك تبكي ؟ ! فقال : ما اغبرت في سبيل الله .
- وبكى آخر ، فقالوا : ما يبكيك ؟ ! فقال : على يوم مضى ما صمته ، وعلى ليلة ذهبت ما قمتها .. [1] .

٨ ـ المفلسون (محبطات الأعمال) :

فريق من العمال لا وزن لأعمالهم فهم مفلسون ، تجارتهم كاسدة ، وبضاعتهم فاسدة ؛ لم يراعوا الأصول الشرعية ، والمبادئ الإيمانية للمتاجرة مع الله .

وإليك بعض أسباب إفلاسهم وكساد تجارتهم :

٨ ـ ١ : الشرك الأكبر :

وهذا الذنب لا يبقى معه عمل صالح ، يحبطه كلّه ويذهب به ، فإذا به هباءً منثورًا ، أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً وليس بماء .. قال الله تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [2] ، وقال سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [3] .

٨ ـ ٢ : الشرك الأصغر :

وهو آفة تحبط العمل ، وتذهب ببركته وأجره . قال ﷺ : ((**إن أخوف ما أخاف عليكم ، الشرك الأصغر : الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً**)) [4] ، فلا ينفع المرائي عمله الذي قام به رئاء الناس ؛ ولهذا ((أول ثلاثة تُسعّر به النار رجل استشهد ؛ ولكنه قاتل ليقال عنه جرئ ، والثاني تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن ليقال عنه عالم وقارئ ، والثالث

---

(1) عندما يبكي الرجال ، ص ٧٨ .
(2) سورة الفرقان [٢٣] .
(3) سورة النور [٣٩] .
(4) رواه أحمد ، بإسناد صحيح ، وهو في صحيح الترغيب برقم : ٢٩ .

رجـــــــــــــــــــــــــــــــــل منفـــــــــــــــــــــــــــــــــق ؛ ولكنه ينفق ماله ليقال عنه جواد ، وكل واحد من هؤلاء يؤمر به فيسحب على وجهه ثم يلقى في النار)) (١) .

وحفظ المرء لنيته من شوائب الرياء عزيز ؛ ولهذا كان السلف يخافون من أن ترد عليهم أعمالهم لشائبة رياء ، مع فضلهم وحصرهم على إخلاص نياتهم . ((قال الفضيل بن عياض : أُخبرت عن سليمان التيمي أنه قيل له : أنت .. أنت .. ومن مثلـــــــــــــــــــــك ؟ فقـــــــــــــــــــال : مـــــــــــــــــــه ، لا تقولوا هذا ، لا أدري ما يبدو لي من الله ، سمعت الله يقول : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾))(٢)(٣) ، ((وكان سفيان الثوري - رحمه الله - يقول عند هذه الآية : ويل لأهل الرياء من هذه الآية)) (٤)(٥).

فتجريد النيات من حظوظ النفس أمر شاق . قال سفيان الثوري - رحمه الله - : ((ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نيتي ؛ لأنها تتقلب علي)) (٦) ، وقال يوسف بن أسباط : ((تخليص النية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد)) .

والخلاصة : أن الأعمال ترتبط بالنيات صلاحًا وفسادًا ، فإذا سمت النيات من كدورات الشرك عظمت الأعمال عند الله ، وأما إذا سفلت وتكدرت بشوائب الدنيا فإنها تصغر حتى تكون في الميزان مثل الهباءة . قال ابن المبارك : ((رب عملٍ صغير تعظِّمه النية ، وربَّ عمل كبير تصغِّره النية)) .

٨ - ٣ : مظالم العباد :

((**الظلم ظلمات يوم القيامة**)) (٧) ، والتعدي على العباد والنيل من أموالهم ، أو أعراضهم ، أودمائهم بغير حق يبدد الحسنات ويهدرها ؛ لأن الغرماء في يوم التغابن يحيطون بالظالم ، كلٌّ منهم يريد حقه ، فيقتسمون أعماله حيث لا دينار ولا درهم ؛ إنما هي الحسنات والسيئات ، وربما فنيت حسناته ، وثمَّ فضل من مظالم عليه ، فيطرح من سيئاتهم عليه ، ثم يطرح في النار .

قال ﷺ : ((**أتدرون من المفلس ؟!.. إن المفلس من أُمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام**

---

(١) أصله حديث أبي هريرة في صحيح الإمام مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٩٠٥) .
(٢) سورة الزمر [٤٧] .
(٣) تذكرة الحفاظ : ١ / ١٥١ .
(٤) تفسير القرطبي : ١٥ / ٢٦٥ .
(٥) المحجة في سير الدلجة ، ص ٩٢ - ٩٣ .
(٦) حلية الأولياء : ٧ / ٥ ، ص ٦٢ .
(٧) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، برقم : ٢٥٧٩ .

وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه ، أُخذَ من خطاياهم ، فطُرحت عليه ، ثم طرح في النار)) (١) .

٨ ـ ٤ : انتهاك المحارم في الخلوة :

قال ﷺ : ((**لأعلمن أقوامًا من أُمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تِهامة ، بيضًا ، فيجعلُها اللهُ – عز وجل – هباءً منثورًا**)) . قال ثوبان : يا رسول الله ، صفهم لنا ، جَلِّهم لنا ؛ ألا نكون منهم ونحن نعلم . قال : ((**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ؛ ولكنهم أقوامٌ إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**))(٢) .

٨ ـ ٥ : بعض الذنوب المحبطة للأجور :

٨ – ٥ – أ : التألي :

وقد تأخذ بعض الدعاة الغيرة وهو يرى بعض المسلمين عاكفًا على فسوقه ، فيحكم عليه باللعنة أو الكفر أوبعدم المغفرة كما جاء في الحديث : ((**أن رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله تعالى : مَنْ ذا الذي يتألى عليَّ ألا أغفر لفلان ، قد غفرت لفلان ، وأحبطت عملك**))(٣) .

فمغفرة الذنوب لعصاة المسلمين تحت مشيئة الرحمن الرحيم ؛ إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم : ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَّشَاءُ** ﴾(٤) . فليس لأحد أن يوصد بابًا قد فتحه الله ، كما قال الله تعالى لنبيه : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾(٥) .

٨ – ٥ – ب : الابتداع :

شرط قبول العمل الإخلاص والمتابعة (مع الإيمان بالله - عز وجل -) . قال الله

---

(١) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، برقم : ٢٥٨١ .
(٢) رواه ابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب ، برقم : ٤٢٤٥ ، قال في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات . وهو في صحيح الجامع .
(٣) رواه مسلم .
(٤) سورة النساء [٤٨] .
(٥) سورة آل عمران [١٢٨] .

تعـالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[1]. ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ﴾ قال ابن كثير - رحمه الله - : أي ما كان موافقًا لشرع الله ، ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ؛ فلابد أن يكون خالصًا لله ، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ . وبهذين الشرطين فسَّرَ العلماءُ العمل الحسن في مثل قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[2] . قال ابن كثير - رحمه الله - : « ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ، أي : ليختبركم ، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ، ولم يقل أكثر عملاً ، بل أحسن عملاً ، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله - عز وجل - على شريعة رسول الله ﷺ ؛ فمتى فقد واحدًا من هذين الشرطين حَبطَ وبطل »[3][4] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « كان أئمة السلف يجمعون هذين الأصلين ، كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ، قال : أخلصه وأصوبه ، ثم قال : الخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة »[5]، وقد جاء في حديث النبي ﷺ : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** »[6].

٨ - ٥ - ج : عقوق الوالدين :

« **ثلاثة لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً : عاقٌ ، ومنانٌ ، ومكذِّب بالقدر** »[7] .

٨ - ٥ - د : المرأة الناشز :

« **اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما : عبدٌ أبق من مواليه حتى يرجع إليهم ، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع** »[8] .

٨ - ٥ - هـ : ترك صلاة العصر متعمدًا حتى يفوت وقتها :

---

(١) سورة الكهف [١١٠] .
(٢) سورة هود [٧] .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٤٣٨ .
(٤) انظر السعي المشكور ، ص ٢٢ - ٢٣ .
(٥) انظر الفتاوى : ٢٨ / ١٧٧ .
(٦) رواه البخاري ، كتاب الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جورٍ فالصلح مردود ، برقم : ٢٦٩٧ ، ورواه مسلم ، برقم : ١٧١٨ .
(٧) السلسلة الصحيحة للألباني برقم : ١٧٨٥ ، وحسّن إسناده .
(٨) قال الهيثمي في المجمع (٤ / ٣١٣) : رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله ثقات ، وهو في الصحيحة للألباني رقم : ٢٢٨ .

قال النبي ﷺ : ((**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**)) [1].

قال أبو بكر بن العربي - رحمه الله - في شرح الترمذي : ((الحبط على قسمين : حبط إسقاط ، وهو إحباط الكفر للإيمان وجميع الحسنات [﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ** ﴾] ، وحَبْطُ موازنـةٍ ، وهو إحباط المعاصي للانتفاع بالحسنات عند رجحانها عليها إلى أن تحصل النجاة فيرجع إليه جزاء حسناته)) [2] ، أي توازن السيئات والحسنات ، فإن رجحت الحسنات فقد نجا وإلا فقد هلك .

٩ - نماذج من العاملين :

ونماذج العمال كثيرة ، كما أن صور بذلهم وتضحيتهم لنصرة الدين والتمكين للدعوة أكثر وأعظم ..

٩ - ١ : ففي الإنفاق :

- أبو بكر رضي الله عنه يقدم مالَه كلَّه في غزوة تبوك ، وعمر رضي الله عنه يقدم نصف ماله ، وعثمان يقول : ((عليَّ مائةُ بعير بأحلاسها وأقتابها)) ، ثم قال : ((وعليَّ مائة أخرى)) ؛ حتى قال النبي ﷺ : ((**ما على عثمان ما عَمِلَ بعد هذا**)) [3] ، أو قال : ((**ما ضرَّ عثمان بعدها**)) ، أو قال : ((**بعد اليوم**)) .
- زينب تعمل بيدها وتتصدق ، فعن عائشة - رضي الله عنها - : ((قال رسول الله ﷺ : ((**أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا**)) . قالت : فكنَّ يتطاولنَّ أيهن أطولُ يدًا ، قالت : وكانت أطولنا يدًا زينب ؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق)) [4].

٩ - ٢ : في الدعوة :

((شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - لم يوصف بأنه من العلماء المتخصصين البارزين في علم معين ، وحين تتأمل كلامه تجد وضوحًا وسهولة مع قوةٍ وروح ، ويأتي بآيات وأحاديث وكلمات لسلفنا الصالح مع بعض كلام له يسير يربط به ربطًا واضحًا في غير تكلف بين تلك النصوص وما يريد . بهذا أقام حركة وأثَّر في أُمة ، ليس في الجزيرة العربية وحدها ، ولكن في معظم أرجاء العالم

---

(1) رواه البخاري ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب من ترك صلاة العصر ، برقم : ٥٥٣ .
(2) الفتح : ٢ / ٣٢ - ٣٣ ، وانظر اختلاف الأئمة في المراد بإحباط العمل في الحديث المذكور .
(3) رواه أحمد : ٤ / ٧٥ ؛ والحاكم : ٣ / ١٠٢ ؛ وأبو نعيم : ١ / ٥٩ .
(4) رواه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب : فضل صدقة الشحيح الصحيح ، برقم : ١٤٢٠ ، وفيه إشكال ذكر سودة بدل زينب ، ورواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل زينب ، أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، برقم : ٢٤٥٢ .

الإسلامي ؛ وذلك لأنه ساند كلامه اليسير وأفكاره السهلة الواضحة بقوته العملية قوة : القلب ، وقوة العبادة ، وقوة في السلوك ، وقوة في البذل والعطاء والتحمل .

وكذلك أثّر من بعده الإمام حسن البنا - رحمه الله - ، ولم يكن هو الآخر من طبقة العلماء المتخصصين البارزين ، ولكنه داعية رباني ذو قوة عملية مع فكرة واضحة وسهلة))[1] ، وفي بعض المعاصرين ممن قضوا فأثروا في الدعوة تأثيرًا بالغًا عبرةً وعظة للقاعدين .. مثل الشيخ عبد الله عزام - رحمه الله - .

٩ - ٣ : في خدمة الناس :

السعي في قضاء الحاجات ، وتنفيس الكربات من أفضل الطاعات ، وأجلِّ القربات ، وفي هذا يقول الرسول ﷺ : ((**من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفَّس اللهُ عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّرَ على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلمًا ستره اللهُ في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**))[2] . ويقول ﷺ : ((**من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**)) [3] .

ولقد ترك لنا السلف الكثير من المواقف في إطعام جائع ، وكسوة عار ، وعيادة مريض ، وتعليم جاهل ، وإنظار معسر ، وإعانة عاجز ، وإسعاف منقطع ، وكفالة يتيم ، والقيام على أرملة ..

٩ – ٣ – أ : أبو بكر رضي الله عنه يصلي الفجر ، فيُسأل عن أعماله قبل صلاته ، فيكون منها : الصدقة ، وزيارة مريض ، واتباع جنازة .

٩ – ٣ – ب : وأبو بكر وعمر يتناوبان في القيام على عجوز منقطعة .

٩ – ٣ – جـ : ((زبيد بن الحارث أحد الأئمة الأعلام ، من صغار التابعين ، كان إذا كانت ليلة مطيرة طاف على عجائز الحي ، يقول : ألكم في السوق حاجة)) [4] .

٩ – ٣ – د : الشيخ الجليل حسّان المنيعي - رحمه الله - . قال عنه الإمام الذهبي - رحمه الله - : ((كان يكسو في الشتاء نحوًا من ألف نفس ، وسعى في إبطال الأعشار عن بلده ، وكان ذا تهجد وصيام واجتهاد)) [5] ، وله قصص كثيرة تدل على برِّه وجوده ،

---

(١) منازل العباد ، بين القوة العلمية والقوة العملية ، ص ٣٢ - ٣٣ .
(٢) رواه مسلم ، ٤ / ٢٠٧٤ كتاب الذاكر والدعاء ... ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر ، برقم : ٢٦٩٩ .
(٣) رواه البخاري ، كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه برقم : ٢٤٤٢ ، وrواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، برقم : ٢٥٨٠ .
(٤) نزهة الفضلاء : ١ / ٣٩٤ .
(٥) المرجع السابق : ٣ / (١٢٨٧ - ١٢٨٨) .

وحِّبه للسعي في مصلحة المسلمين ، وقضاء حاجاتهم .

٩ – ٣ – هـ : ((عندما أسلم حكيم بن حزام قال : لا أدع شيئًا صنعته في الجاهلية إلا صنعت في الإسلام مِثله (أي من أعمال الخير) ، وكان أعتق في الجاهلية مائة رقبة ، وأعتق في الإسلام مثلها ، وساق في الجاهلية مائة بدنة ، وفي الإسلام مثلها . ولما توفيَ الزبير بن العوام ﷺ ، لقي حكيمٌ ابنه عبد الله بن الزبير فقال : كم ترك أخي من الدَّين ؟ قال : ألف ألف ، قال : عليَّ خمس مائة ألف))[1] .

● عن النبي ﷺ : ((**ما من عبد أنعم اللهُ عليه نعمةً ، وأسبغها عليه ، ثم جعل حوائج الناس إليه متبرِّم ؛ فقد عرَّض تلك النعم للزوال**))[2].

ما أجدر الدعاة إلى الله أن يولوا خدمة الناس وقضاء حوائجهم اهتمامهم ؛ لأنها تقربهم إليهم أكثر مما تقرّب الكلمات ، ومن ذلك :

- الاهتمام بجمعيات النفع العام مثل : [الجمعيات الخيرية] .
- مؤسسات الدعوة ذات الخدمة العامة .

٩ - ٤ : في العبادات :

((قال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمير ، حدثنا أبو خالد (يعني سليمان بن حيان) عن داود بن هندٍ ، عن النعمان بن سالم ، عن عمرو بن أوس ، قال : حدثني عنبسة بن أبي سفيان في مرضهِ الذي مات فيه ، بحديث يُتَسَارُّ [أي : يُسرُّ به] إليه . قال : سمعت أمَّ حبيبة تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**من صلّى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة ، بُني له بهن بيتٌ في الجنة**)) . قالت أم حبيبة : فما تركتهن منذ سَمِعْتُهُنَّ من رسول الله ﷺ . وقال عنبسة : فما تركتهن منذ سمعتهن من أمِّ حبيبة . وقال عمرو بنُ أوس : ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة . وقال النعمان بن سالم : ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس ..))[3] .

خامسًا : من التطبيقات العملية للدرس :

١- اقتطاع جزء من الراتب والتصدق به في مجال الدعوة .
٢- المحافظة على الصلوات الخمس وأداؤهن بخشوع في المسجد .

---

[1] نزهة الفضلاء : ١٢ / (٢١٨ - ٢١٩) .
[2] قال الهيثمي (٨ / ١٩٢) : رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده جيد .
[3] رواه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدها ، وبيان عددهن ، برقم : ٧٢٨ .

٣- المحافظة على ورد القرآن اليومي وأذكار الصباح والمساء .
٤- دعم المجاهدين بالنفس والمال .
٥- المشاركة في أعمال البر والإغاثة .
٦- القيام بمسؤوليات الدعوة ، وإتقان ما يقوم به من واجبات .
٧- إنكار المنكرات وذلك عبر الوسائل المشروعة والأساليب الحكيمة .
٨- توظيف المواهب والقدرات في خدمة الدعوة [مثل : الحاسب الآلي - الإعلام (الكتابة في الصحف)] .
٩- القيام على كفالة الأيتام ومساعدة الأرامل والفقراء ، ودلالة أهل الخير عليهم ، وحثهم على تقديم العون لهم : ((**الدال على الخير كفاعله**)) .
١٠- بر الوالدين ، وطاعتهما بالمعروف ، وتلبية حاجاتهما ، وخفض الجناح لهما .

سادسًا : بعض مراجع الموضوع :

١- الفطرة وقيمة العمل في الإسلام ، إسماعيل عبد الفتاح ، رابطة العالم الإسلامي .
٢- العمل الصالح ، عبد الوهاب العثمان ، مكتبة ابن تيمية ، ط١ .
٣- الجزاء في الإسلام منوط بالعمل ، د . سعد عبد الرحمن ندا ، المكتبة الإسلامية .
٤- الضمير الديني وأثره في إتقان العمل وزيادة الإنتاج ، عليش متولي .
٥- العمل وتطبيقاته ، نذير حمدان ، الشركة المتحدة للتوزيع ، ط ١ .
٦- مبطلات الأعمال ، سليم الهلالي ، دار ابن القيم ، ط١ .
٧- المحجة في سير الدلجة ، الحافظ ابن رجب ، دار البشائر الإسلامية ، ط١ .
٨- أين الخلل ؟ ، يوسف القرضاوي ، مكتبة شمس ، ط١ .
٩- شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، المكتب الإسلامي ، ط ٨ .
١٠- من ركائز الدعوة ، مجدي الهلالي ، دار البشير ، ط ١٤١١ هـ .
١١- واحات الإيمان ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
١٢- مبادئ وركائز تربوية للآباء والمربين ، د . عبد العزيز النغيمشي ، دار المسلم ، ط ١ .
١٣- العمل في الإسلام ، عز الدين الخطيب التميمي ، دار عمار .
١٤- عناصر القوة في الإسلام ، السيد سابق ، دار الكتاب العربي .
١٥- السعي المشكور ، محمد الرملي ، دار ابن القيم ، ط١ .
١٦- مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ، دار الفكر .

١٧- العمل بالعلم بين الواقع والواجب ، عبد الله الفوزان ، دار المسلم ، ط١ .
١٨- حوافز العمل بين الإسلام والنظريات الوضعية ، محمد الإبراهيم ، مكتبة الرسالة الحديثة ، ط١ .
١٩- عقبات في طريق الدعاة ، عبد الله علوان ، دار السلام ، ط١ .
٢٠- آفات على الطريق ، السيد محمد نوح ، دار الوفاء ، ط ١ .
٢١- تحذير القاصي والداني من عقوبات الذنوب والمعاصي ، أحمد فريد ، مكتبة الصحابة ، ط١ .
٢٢- نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ، محمد حسن عقيل مرسي ، دار الأندلس الخضراء ، ط١ .
٢٣- جوائز قيمة على أعمال هينة ، ياسين سبيناتي ، دار طويق للنشر والتوزيع ، ط ١ .
٢٤- التربية الجادة ضرورة ، محمد الدويش ، دار الوطن للنشر ، ط ٢ .
٢٥- توجيهات وذكرى ، صالح بن حميد ، مكتبة الضياء ، ط ٣ .
٢٦- القيادة التربوية في الإسلام ، مفيدة محمد إبراهيم ، دار مجدلاوي ، ط١ .
٢٧- اقتضاء العلم العمل ، الخطيب البغدادي ، المكتب الإسلامي ، ط٥ .
٢٨- منازل العباد بين القوة العلمية والقوة العملية ، هشام آل عقدة ، دار طيبة ، ط١ .
٢٩- أين العمل ؟ بحث على الإنترنت ، ولم أعرف اسم الكتاب .
٣٠- موسوعة نضرة النعيم ، مجموعة من المؤلفين ، دار الفضيلة ، ط ١ .
٣١- الموافقات ، الشاطبي ، دار الجيل .
٣٢- الجواب الكافي ، ابن القيم ، مكتبة دار التراث ، ط ٣ .
٣٣- مجموعة رسائل الإمام حسن البنا ، حسن البنا ، المؤسسة الإسلامية ، ط ١ .
٣٤- عظماء على فراش الموت ، يوسف بدوي ، دار ابن حزم ، ط ٢ .
٣٥- مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، دار القلم ، ط٢ .
٣٦- دعوة إلى السنة في تطبيق السنة منهجًا وأسلوبًا ، عبد الله الرحيلي ، ط ٢ .
٣٧- التربية الذاتية من الكتاب والسنة ، هاشم على أحمد ، دار الأهدل ، ط١ .
٣٨- الأجر الكبير على العمل اليسير ، محمد خير يوسف ، دار طويق .
٣٩- التزكية ، نبيل المعاز ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط ١٤١٩ هـ .
٤٠- جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ، مؤسسة الرسالة .
٤١- صفحات مشرقة من حياة السابقين ، نذير مكبتي ، دار البشائر الإسلامية ، ط

١ .

٤٢- الأعمال بالخواتيم ، سعد الحجري ، دار الوطن ، ط١ .

٤٣- كيف تطيل عمرك الإنتاجي ، محمد النعيم ، دار الذخائر ، ط ٢ .

٤٤- عندما يبكي الرجال ، عبد الرحمن اللعبون ، دار ابن لعبون ، ط ١ .

بالإضافة إلى عشرات الكتب في التفسير والحديث واللغة ... إلخ .

عبودية

العبودية

أولاً : دلالة المصطلح :

أ ـ لغة :

- قال في اللسان : ((أصل العبودية : الخضوع والتذلل . والتعبُّد : التَّنسُّك . والعبادة : الطاعة . ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع ، ومنه طريق معبَّدٌ إذا كان مذلَّلاً بكثرة الوطءِ)) (١) .
- ((قال بعضهم : العبودية والعبادة هي الطاعة)) (٢) .
- وبعضهم فرق بين العبودية والعبادة ، فقالوا : ((العبودية : الرضا بما يفعل الرب ، والعبادة : فعل ما يرضى به الرب)) (٣) .

ب ـ اصطلاحًا :

- قال الجرجاني : ((العبودية : الوفاء بالعهود ، وحفظ الحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود)) (٤) .

  ((أما العبادة : فهي فعل المكلَّف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لربه)) (٥) .
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : ((فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته ، بل استكبر عن ذلك ؛ فلابد أن يكون له مراد محبوب ، يستعبده ويستذله غير الله ؛ فيكون عبدًا ذليلاً لذلك المراد المحبوب : إما المال ، وإما الجاه ، وإما الصور ، وإما ما يتخذه إلهًا من دون الله : كالشمس ، والقمر ، والكواكب ، والأوثان ، وقبور الأنبياء والصالحين ، والملائكة والأولياء الذين يتخذهم أربابًا ، وغير ذلك مما عبد من دون الله)) .

وقال : ((الحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس)) . قال النبي ﷺ : ((**ليس الغِنى كثرة العَرَض ، وإنما الغنى غنى النفس**)) (٦) .

وعرف العبادة فقال ـ رحمه الله ـ : ((العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ،

---

(١) لسان العرب : ٤ / (٢٧٧٦ ـ ٢٧٨٢) .
(٢) القاموس المحيط : ١ / ٣٢٢ .
(٣) تاج العروس ، الزبيدي : ج٢ / ٤٠٩ .
(٤) التعريفات ، ص١٩٠ .
(٥) التعريفات ، ص ١٨٩ .
(٦) رواه البخاري .

وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمة ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله)) [1] .

ويتبين من تعريف شيخ الإسلام - رحمه الله - شمولية العباة لحياة الإنسان كلها ، ظاهرها وباطنها .

وعرّف بعضهم العبودية فقال : ((إيمان عميق ، وفهم دقيق ، وارتباط بالله وثيق ، ووفاء لا يخالطه ضعف ، وإسلام لا يخالطه إعراض ، وتهذيب للرغبات ، مع إحياء للاجتهاد في القربات والطاعات)) [2] .

ج - المصطلحات المقاربة :

١ - التوحيد :

قال ابن أبي العز - رحمه الله - : ((وتوحيد الألوهية يُقال له : توحيد العبادة)) [3] .

٢ - الدين :

ذكر ابن تيمية - رحمه الله - في الفتاوى [4] : أن العبودية هي الدين ؛ فالدين كلُّه داخل في العبادة . وقد ثبت في الصحيح أن جبريل - عليه السلام - لمَّا جاء إلى النبي ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، قال في آخر الحديث : ((**هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم**)) [5] .

٣ - الاستقامة أو لزوم الصراط المستقيم :

---

(1) الفتاوى : ١٠ / ١٤٩ - ١٥٠ .

(2) موسوعة أخلاق القرآن ، للشرباصي : ١ / ١٥٢ ، بتصرف يسير . وانظر إسلامنا ، للسيد سابق ، ص١١٣ .

(3) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٧٩ ، نقلاً عن عبودية الكائنات ، ص ٢٢ .

(4) الفتاوى : ١٠ / ١٥٢ .

(5) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان ، برقم : ٥٠ ، ولكن بلفظ :
((هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)) .

قال عيسى لبني إسرائيل : ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(١) .. فدل أن لزوم الصراط المستقيم تقتضي عبادة الله وحده لا شريك له .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من عرض هذا الموضوع إلى عدة أمور ، منها :

١- تصحيح المفاهيم المغلوطة في معنى العبادة ، وترسيخ المفهوم الصحيح لها ، وأنها تشمل الدين كله وتستوعب الحياة كلها .

٢- تنقية العبادة من لوثات الشرك والابتداع ونحوها من الآفات ، وتوضيح شروط قبول العبادة .

٣- بيان أهمية العبادة في الدعوة ، وضرورتها في تثبيت الداعية ودفعه للبذل والتضحية .

٤- التحذير من صوارف العبد عن العبادة من الآفات والشواغل الباطنة والظاهرة ، الحسية والمعنوية .

٥- عرض نماذج من أصحاب العبودية والتركيز على قيامهم بالدعوة والثبات عليها ، للاقتداء بهم والسير على نهجهم .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١ - العبودية غاية الحياة وشعار الدعاة .
٢ - فضل العبودية .
٣ - أخطاء الناس في مفهوم العبودية وتطبيقاتها .
٤ - شمولية العبادة (بعض مجالات العبادة) .
٥ - مراتب العبودية (خمسون مرتبة) .
٦ - كيف نحقق العبودية ؟ [ست وسائل للارتقاء في مدارج العبودية] .
٧ - من آداب أهل العبودية .
٨ - صوارف وجوارف .
٩ - نماذج من عبودية أتباع الرسل .
١٠ - صاحب العبودية رحّالة .

---

(١) سورة مريم [٣٦] .

رابعًا : العرض :

١ - العبودية غاية الحياة وشعار الدعاة :

١ - ١ : العبودية ليست قضية هامشية أو صفة كمالية يمكن تجاوز الحديث عنها ، والاكتفاء بالتذكير ببعض شعائر الإسلام وعباداته المحضة : كالصلاة ، والزكاة ؛ بل هي ركيزة أصيلة ، ودعامة عظيمة لا تقوم الشخصية المسلمة إلا عليها ، ولا تثبت إلا بها ، ولا تسمو إلا من خلالها ؛ ولهذا كان النداء الأول في جميع الرسالات يتضمن الأمر بها والدعوة إليها خالصة من شوائب الشرك . قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾(1) .

١ - ٢ : والعبودية : هي الغاية العظمى والهدف الأسمى والمهمة الكبرى التي من أجلها خلق الله الجن والإنس : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾(2) ، فمن قصّر فيها وأخلَّ بها فقد أخلَّ بالهدف من وجوده وغاية حياته .. وعليه فكل عمل ليس للعبودية منه نصيب فهو عبث ولهو وباطل .

١ - ٣ : والعبودية أمانة كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ** ﴾(3) والوفاء بالأمانة وأداؤها على وجهها من صفات المؤمنين ، بل خصلة من خصال المرسلين والأئمة المهديين : ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** ﴾(4)؛ والدعاة هم أحق من يتصف بالوفاء ، وأولي من يتخلق بأخلاق الأنبياء .

١ - ٤ : والعبودية أول معلم من معالم الشخصية المؤمنة التي كتب لصاحبها الفلاح والجنة فقال - عز وجل - : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾(5)، فجعل الصلاة التي هي صورة من صور العبودية من أول أسباب الفلاح ؛ ولهذا وصف الله بها ملائكته وأنبياءه ، فقال - عز وجل - : ﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ** ﴾(6) .

١ - ٥ : العبودية للداعية :

---

(1) سورة الأنبياء [٢٥] .
(2) سورة الذاريات [٥٦] .
(3) سورة الأحزاب [٧٢] .
(4) سورة الأنبياء [٧٣] .
(5) سورة المؤمنون [١ - ٢] .
(6) سورة الأنبياء [١٩] .

أ – سعادة قلبه ومهوى فؤاده :

لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرد شعائر تؤدى وأوامر تنفذ فحسب ، إنه يجد فيها لذةً تغمر قلبه بالمحبة والأنس بمناجاة الله وطاعته والسعي في مرضاته .

((قال بعضهم : مساكين أهل الغفلة ! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها ، فقيل له : وما هو ؟ قال : محبة الله والأنس به .

وقال آخر من أهل العبودية : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه [أي من السعادة] لجالدونا عليه بالسيوف ..))(1) .

ب – عروة وثقى يثبت بها وسفينة ينجو بها من الغرق في بحر الشهوات والشبهات :

● وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾(2) ، فكلما كان أكثر عبودية لله بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه كان ذلك عونًا على ثباته وحفظ الله له كما قال ﷺ : ((**احفظ الله يحفظك**))(3) ، ((وقد روي أن أعرابيًّا دخل مسجدًا وترك ناقته عند بابه ، فصلى بخشوع وخضوع وسكينة وطمأنينة ، فلما خرج لم يجد ناقته ، فقال : أديت أمانتك ؛ فأين أمانتي ؟ ! قال الراوي : فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته ، وسلم الناقة إليه))(4) ، فإذا حفظ الله ناقة الأعرابي بأدائه لأمانة العبودية ؛ فكيف بالأعرابي نفسه ؟ ! وأصدق من هذا حفظ الله لأنبيائه وأوليائه الذين قصَّ الله علينا أخبارهم في القرآن الكريم ، مثل : يوسف - عليه السلام - : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾(5) ، ومؤمن آل فرعون : ﴿ **فَوقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ** ﴾(6) .

جـ - العبودية سبب عظيم للنصر والتمكين : فمن أبرز صفات جيل النصر والتمكين العبودية الخالصة لرب العالمين : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾(7) . ولأهمية العبودية في جيل النصر ، كتبها في الكتب السابقة فقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ**

---

(1) انظر القرضاوي ، العبادة في الإسلام ، ص (٩٩) .
(2) النساء [٦٦] .
(3) رواه الترمذي برقم : ٢٥١٦ ، كتاب صفة القيامة . وقال : حسن صحيح .
(4) التفسير الكبير للرازي : ١ / ٢٤٩ ، نقلاً عن العبادة في الإسلام ، ص ١٠٠ .
(5) سورة يوسف [٢٤] .
(6) سورة غافر [٤٥] .
(7) سورة الحج [٤١] .

﴿الصَّالِحُونَ﴾(١) ؛ ولهذا مرّ صلاح الدين على خيام المجاهدين قبل لقاء الصليبيين ، فإذا رأى خيمة قائمة بالليل تصلي وتقرأ القرآن ، قال : « هذه خيمة نرجو أن يأتينا النصر من قِبلها ، وإذا رأى خيمة نائمة ، قال : هذه خيمة نخشى أن تأتينا الهزيمة من قِبَلِهَا » (٢) .

١ - ٦ : العبودية - قبل هذا كلِّه وبعده - حق الله على عباده :

قال معاذ ﷺ : كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي : « **يا معاذ ؛ أتدري ما حق الله على العباد ؟** » ، قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « **حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا** »(٣) . فالعبودية حق الله وحده ؛ لأنه وحده الذي خلق ورزق ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾(٤) .

والعبودية شعار الدعاة من الأنبياء والرسل ؛ إذ كل منهم ابتدأ دعوته بالدعوة إليها ، كما أنه اصطبغ بها في حياته .. ولقد كانت وصية الأنبياء لأبنائهم : ﴿ **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (٥).

فما أحرى أن تكون وصية للمربين لطلابهم بعد أن يصطبغوا بها في حياتهم (٦) .

٢ - فضل العبودية (٧) :

لقد أجزل الله الفضل لعباده الموحدين الذين أخلصوا العبودية لله تعالى ، ولم يشركوا معه أحدًا سواه ، وأعدَّ لهم الثواب العظيم في الدنيا والآخرة ؛ وذلك حسب عبوديتهم له ، وإتمامهم لها ، وإحسانهم فيها .

ومن تلك الفضائل :

٢ - ١ : استجابة دعائهم :

---

(١) سورة الأنبياء [١٠٥] .
(٢) التزكية ، نبيل المعاز ، ص ٣٠ .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) سورة البقرة [٢١ - ٢٢] .
(٥) سورة البقرة [١٣٣] .
(٦) للتوسع انظر الأثار التربوية للعبادة ، أصول التربية الإسلامية ، عبدالرحمن النحلاوي ، ص ٥٤ - ٦١

(٧) ملخصًا مع التصرف من عبودية الكائنات : ٩٧ – ١٠٥ .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١) .
ومن عباد الله من بلغ مراتب عالية في عبوديته حتى قال رسول الله ﷺ في مثل هؤلاء : ((إن من عباد الله مَنْ لو أقسمَ على الله لأبره)) (٢) .

٢ - ٢ : حفظهم من غواية الشيطان :

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(٣) . قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : ((وقد بين أن عباده المخلصين هم الذين ينجون من السيئات التي زينها الشيطان : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤))) (٥).

٢ - ٣ : قبول توبة المسيء منهم :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٦) .

٢ - ٤ : ابتلاؤهم لمحو ذنوبهم :

كما في الحديث القدسي أنه ﷺ قال : قال الله تعالى : ((**إذا ابتليت عبدًا من عبادي فحمدني وصبر على ما بليته ، فإنه يقوم من مضجعه ذلك اليوم كيوم ولدته أمه من الخطايا ، ويقول الرب – عز وجل – للحفظة : إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له من قبل ذلك من الأجر وهو صحيح**)) (٧) .

٢ - ٥ : حبه تعالى لعباده المؤمنين :

قال رسول الله ﷺ : ((**إن الله – عز وجل – إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريل – عليه السلام – فقال : إني أحب فلانًا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله – عز وجل – يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهلُ السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض**))(٨) .

٢ - ٦ : تقربه سبحانه إليهم :

---

(١) سورة البقرة [١٨٦] .
(٢) مسلم ، كتاب : تحريم الدماء وذكر القصاص ، باب : القصاص من الجراح إلا أن يرضوا بالدية ، برقم : (١٠٣٠) .
(٣) سورة الحجر [٤٢] .
(٤) سورة الحجر [٣٩ - ٤٠] .
(٥) العبودية : ٣٦ - ٣٧ .
(٦) سورة الشورى [٢٥] .
(٧) صحيح الجامع ، برقم : ٤١٧٦ .
(٨) رواه مسلم ، كتاب : البر والصلة ، باب : إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده ، برقم : ١٧٧١ .

كما جاء في الحديث القدسي : ((**قال الله تعالى : إذا تقرّب إليّ العبد شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإذا تقرب إليَّ ذراعًا تقربت منه باعًا ، وإن أتاني مشيًا ، أتيته هرولة**))[1] .

وأما وعده لهم في الآخرة :

- فقد قال الحق - عز وجل - : ﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ** ﴾[2]
وقال : ﴿ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** ﴾[3] .

- والأمن يوم الفزع :
﴿ **يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾[4] .

٣ - أخطاء الناس في العبادة أو العبودية [5] :

((يستعرض ما ورد في دلالة المصطلح في تعريف العبادة لغة واصطلاحًا)) .

كثير من الناس لم يفقهوا حقيقة العبادة فحرفوها عن وجهها ، ولم ينزلوها منزلتها :

٣ - ١ : فمنهم من فهم العبادة وسيلة لتهذيب النفس ، وتربية الضمير ، وزيادة الأخلاق فحسب ، ولم يعتبروا أن العبادة غاية تطلب لذاتها . وهي هدف الوجود ؛ ولهذا زعموا أنه يمكن الاستغناء عنها أو التقصير فيها ما دام المرء على خلق ، و((**الدين المعاملة**)) .

٣ - ٢ : ومنهم من أشركوا في العبادة فصرفوها لغير مستحقها ، واتخذوا مع الله - أو من دونه - آلهة أخرى . فمنهم من يعظم غير الله ، أو يقدّس غير الله ، أو ينذر لغير الله ، أو يذبح لغير الله ، أو يطيع - طاعة مطلقة - غير الله [الشرك] .

٣ - ٣ : ومنهم من آمنوا بمنزلة العبادة ، ووجهوها إلى مستحقها - سبحانه - ولكنهم لم يعبدوا الله بما أمر به ، ولم يتقيدوا بما شرح لهم من طرائق العبادة وصورها ، فشرعوا منها ما لم يأذن به الله ، وأحاطوا العبادات بالبدع والضلالات [الابتداع] [6] .

٣ - ٤ : ومنهم من فهموا معنى العبادة فهمًا جزئيًّا قاصرًا ، فهي لا تعدوا

---

(1) البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالي : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ ، برقم : ٧٤٠٥ .
(2) سورة مريم [٦١] .
(3) سورة مريم [٦٣] .
(4) سورة الزخرف [٦٨] .
(5) انظر العبادة في الإسلام ، (٨ - ٩) [ملخصًا مع زيادات] .
(6) انظر للتوسع الفتاوى : ١٠ / ٦٧ – ١٧٠ .

- عندهم - أداء الشعائر المعروفة من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وما يلحق بها من الذكر والتلاوة والدعاء . وبهذا الفهم المبتور لا يبالون ما قصّروا فيه - بعد ذلك - من أوامر الإسلام ونواهية . وأحكامه ووصاياه التي تستوعب كل مجالات الحياة ، مـــــع أن العبادة - كما جاء بها القرآن والسنّة ، وكما فهمها خير قرون هذه الأمة - تشمل الدين كلَّه ، وتشمل الحياة كلها .

٣ - ٥ : ومنهم من انقلبت عنده العبادات إلى عادات وحركات تؤدَّى دون أن يكون لها أثر على القلوب أو السلوك ؛ بل ربما أتى من العمل ما ينقضها .

- فكم من شاهد للشهادتين وهو يستغيث بغير الله ، وينذر لغير الله ، ويأتي بما ينافي الشهادتين اللتين يرددهما بلسانه .
- وكم من مستغفر لله - عز وجل - وهو متلبس بمعصيته ، مُصِرٌّ على مخالفته ، لا يجاوز الاستغفار لسانه .
- وكم من تالٍ للقرآن والقرآنُ يلعنه ! ! .
- والصلاة التي كانت قرة عيون المؤمنين ومعراج المتقين أصبحت عند كثير من المصلين حركات لا معنى لها ولا أثر لها في قلوبهم ، ففقدت الخشوع والطمأنينة .
- وشهر رمضان الذي كان مدرسة للتقوى والصبر ، ومعراجًا للروح والفكر أصبح شهر طعام وشراب وسمر ..
- ومناسك الحج أصبحت عند هذا الصنف من الناس أعمالاً لا معنى لها ولا أثر ، فترى الحاج متقيدًا بمحظورات الإحرام وهو متلبس بمحظورات الإسلام .
- والحجاب الذي كان مظهر العفة والحياء ورمز الصيانة والنقاء أصبح عند كثير من المسلمات عبئًا ثقيلاً يتفنن في إزاحته وتشويه حقيقته ..))[1] .

٤ - شمولية العبادة [2] :

من خلال تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - للعبادة يتبين لنا أنها ليست محصورة في الصلاة والصيام والذكر والدعاء ، كما يتبادر إلى أذهان كثير من المسلين إذا دعوا إلى عبادة الله ، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفوا الإلهية حقها ، وقاموا بواجب العبودية لله كاملاً .

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في بناء الإسلام - على منزلتها

(١) بتصرف من كتاب العبادة ، للبيانوني ، ص (٩٠ - ٩١) ، وانظر عبودية الكائنات لرب العالمين ، ص ١٣٧ .
(٢) انظر العبادة في الإسلام ، ص (٤٩ - ٧٦) .

وأهميتها - إنما هي جزء من العبادة ، وليست كل العبادة التي يريدها الله من عبادة .

والحق أن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان ، وجعلها غايته في الحياة ، ومهمته في الأرض ، دائرة رحبة واسعة . إنها تشمل شؤون الإنسان كلها ، وتستوعب حياته جميعًا ، ومن تلك المجالات :

٤ - ١ : الانقياد لمنهج الله والالتزام بشرعة :

مقتضى العبودية أن يخضع المرء هواه لما جاء عن الله ورسوله ﷺ ، وهذا من مقتضى الإيمان أيضًا ، وقد ذكرنا في تعريف العبودية أن أصلها التذلل والخضوع لله . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا ﴾(١) .

فليس بعابد لله إذن من قال : أصلي وأصوم وأحج ؛ ولكني حرٌّ في أكل الربا ، والمتاجرة بالمحرمات ، أو رفض ما لا يعجبني من أحكام الشريعة . وليس بعابد من أدى الشعائر ؛ ولكنه لم يخضع لآداب الإسلام ومبادئه في نفسه وأهله ...

ليس بعابدٍ من ظن أن عبوديته لله لا تعدو جدران المسجد ، فإذا انطلق في ميادين الحياة المتشعبة ، فهو عبد نفسه فقط ، وبعبارة أخرى : هو حر في اتباع هواها ، أو اتباع أهواء عبيد أنفسهم من المخلوقين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾(٢) ، فجعل الهوى إلهًا يعبد من دون الله إذا قدّمه العبد على شرع الله .

وكذلك بالنسبة للمرأة ؛ فليست عبوديتها كاملة من قالت : أصوم وأصلي ؛ ولكني لا أريد أن أقيد نفسي بلبسي الحجاب ، أو قالت : أنا حرةٌ في التشبه بمن يعجبني من الكافرات والفاسقات . فالعبودية حقًّا أن يجعل المرءُ هواه تبعًا لما جاء به محمد ﷺ .

وعليه فإن أكمل العباد عبودية أتمهم لله تعالى ذلاً وخضوعًا . يقول ابن القيم - رحمه الله - : ((إن تمام العبودية يكون بتكميل مقام الذل والانقياد . وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله وانقيادًا وطاعة))(٣) .

٤ - ٢ : كل عمل نافع عبادة :

فسعي المسلم لتنفيس كربات إخوانه المسلمين ، وشدّه لأزر المظلومين وإقالة عثرة المغلوبين ، وقضاء دين الغارمين ، كل هذا عبادة .. يعين ذا الحاجة الملهوف ،

---

(١) سورة الأحزاب [٣٦] .
(٢) سورة الفرقان [٤٣] .
(٣) مفتاح دار السعادة ، ابن القيم : ١ / ٢٨٩ ، نقلاً عن كتاب عبودية الكائنات لفريد التوني ، ص ٢٣ . وانظر للتوسع ، العقيدة الطحاوية : ص ٢٩٠ .

أو يهدي ضالاً ، أو يعلم جاهلاً ، أو يزيل أذىً عن طريق المسلمين ، أو لا يؤذيهم - عبادة وقربة إذا صحت نيته ، وأراد بذلك وجه الله - عز وجل - .

قال النبي ﷺ : ((**بينما رجل يمشي بطريق ، وجد غصن شوك فأخَّره ، فشكر الله له ، فغفر له**)) [١] .

وهكذا فقد فسّح الإسلام مجال العبادة ، ووسّع دائرتها ، فلم يجعل الإسلام العبادة محصورةً بمال فينفرد بها الأغنياء ، ولم يجعلها بدنية فحسب فيختص بها الأقوياء ، ولا ثقافية فيتميز بها المتعلمون ؛ ولكنه نوّعها حتى يسعى كل إنسان - بحسب طاقته - لعبادة ربه .

قال ﷺ : ((**كلُّ سُلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين صدقة ، ويعين الرجل في دابته فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة . والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**)) [٢] .

وبهذا يعيش المسلم في مجتمعه ينبوعًا يفيض بالخير والرحمة ، ويتدفق بالنفع والبركة ، يفعل الخير ويدعو إليه ، ويبذل المعروف ويدل عليه ؛ فهو مفتاح للخير ، مغلاق للشر .

٤ - ٣ : عمل الإنسان في معاشه عبادة بشروط [٣] :

سعي الإنسان في معاشه يمكن أن يجعله عبادة إذا التزم فيه الشروط الآتية :

أ - أن يكون العمل مشروعًا .

ب- أن تصحبه النية الصالحة : نية المسلم إعفاف نفسه ، وإغناء أسرته ، ونفع أمته ، وعمارة الأرض ، كما أمر الله .

جـ- أن يؤدي عمله بإتقان وإحسان ، وأن يلتزم فيه حدود الله فلا يظلم ولا يخون .

د - ألا يشغله عمله الدنيوي عن واجباته الدينية ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَّفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾[٤] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) انظر العبادة في الإسلام ، ص ٦١ .
(٤) المنافقون [٩] .

٤ - ٤ : القيام بحاجات المسلمين ودعوتهم ونشر الخير فيهم :

((وكان الصحابة - رضي الله عنهم - يفهمون شمول العبادة ، ومما روي عنهم من الآثار في ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من خبر بكر بن عبد الله المزني قال : جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه ، فجاءت المرأة ففتحته ، إلى أن قال : وعبد الرحمن بن عوف قائم يصلي ، فقال له - يعني عمر - تجوز أيها الرجل (١) ، فسلم عبد الرحمن حينئذ ، ثم أقبل عليه فقال : ما جاء بك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟ ! فقال : رفقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة ، فانطلق نحرسهم .. إلخ)) (٢) .

وإننا لنجد في هذا الخبر فهم عمر العميق لمجالات العبادة وتقديم الأهم على المهم . فحينما كان بعض المسلمين بحاجة إلى عمر وعبد الرحمن بن عوف كان أمر احتياجهم مقدمًا على صلاة النفل ، فالصلاة عبادة ، وخدمة المسلمين أيضًا عبادة ، وما دامت الصلاة نفلاً فإن ما نزل من حاجة المسلمين مقدم على ذلك ؛ لأن الصلاة عبادة يقتصر نفعها على صاحبها ، وخدمة المسلمين عبادة يتعدى نفعها للمسلمين .

((ولقد كان هذا الأمر واضحًا لدى الصحابة - رضي الله عنهم - ولذلك لم ينكر عبد الرحمن على عمر أن أمره بتخفيف الصلاة وإنهائها من أجل المشاركة في خدمة المسلمين ، ولم ير أن غيرهما من صغار المسلمين أولى بالقيام بهذه المهمة ؛ لأنهم كانوا ينظرون إلى هذا الأمر من خلال كونه عبادة وعملاً صالحًا ، فهو أمر يتنافسون عليه ، ولا يكلونه إلى غيرهم)) (٣) .

((لقد كان شمول العبادة معروفًا عند التابعين وأتباعهم ، ومن الآثار المروية عنهم في ذلك ما روي عن الإمام الزهري أنه قال : العبادة هي الورع والزهد .

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن عبد البر في التمهيد قال : هذا كتبته من حفظي وغاب عني أصلي : أن عبد الله العمري العابد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل (٤) ، فكتب إليه مالك : إن الله قسم الأعمال كما قسّم الأرزاق ، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الجهاد ، فنشر العلم من أفضل أعمال البر ، وقد رضيت بما فتح لي فيه ، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه ، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبرٍّ .

وهكذا أبان الإمام مالك فضل العلم ، وبين لذلك العابد شمول العبادة ؛ حيث ذكر

---

(١) يعني خفف صلاتك .
(٢) تاريخ الطبري : ٤ / ٢٠٥ .
(٣) الرسائل الشمولية ، للحميدي ، ص ١٩١ - ١٩٢ .
(٤) يعني على العزلة والتعبد .

له أن نشر العلم من أفضل الأعمال الصالحة ، وأن العالم الذي ينشر علمه ليس بأقل عملاً ممن قصر عمله على أداء الشعائر التعبدية .

وهذه نظرة مهمة في بيان شمول العبادة ؛ حيث تشمل كل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى ، وإن من أفضل الأعمال التي تدخل في ذلك نشر العلم ، بل إنه أفضل من الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية من النوافل ؛ لأن هذه نفعها قاصر على فاعلها ، ونشر العلم يصل نفعه إلى من قام به ومن استفاد من ناشره » [1] .

٥ - مراتب العبودية :

جعل الإمام ابن القيم مراتب العبودية خمسين مرتبة [2] ، موزعة على عشرة أشياء : القلب ، واللسان ، والسمع ، والبصر ، والأنف ، والفم (الذوق) ، واليد (البطش) ، والرجل (المشي) ، والفرج ، والاستواء على ظهر الدابة (الركوب) .

وذكر لكل واحدٍ منها خمس مراتب (أحكام) ، وهي : مرتبة الواجب ، ومرتبة المستحب ، ومرتبة المباح ، ومرتبة المكروه ، ومرتبة المحرم ؛ فيكون جميعها خمسين مرتبة ، من كمّلها كمل مراتب العبودية .

وسأذكر بعض ما ذكره مرتبًا ويمكن القياس على الباقي :

٥ - ١ : القلب :

والأحكام التي للعبودية فيه خمسة :

أ - واجب : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر ... إلخ .

ب- مستحب : كالخشوع في الصلاة [وهناك قول بوجوبه] .

جـ - مباح : لم يذكر - رحمه الله - أمثلة على هذه المرتبة .

د - مكروه : لم يذكر - رحمه الله - أمثلة على هذه المرتبة .

هـ- محرم : الكفر والنفاق ، وسائر المعاصي من الكبائر والصغائر : كالرياء ، والعجب ، والكبر ، والفرح ، والسرور بأذى المسلمين ونحوها .

٥ - ٢ : عبودية اللسان : ومراتب العبودية فيه :

أ - الواجب : كالنطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن (وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه) ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل .. ونحوها .

ب- المستحبة : تلاوة القرآن ، ودوام ذكر الله ، والمذاكرة في العلم النافع ،

---

(١) المرجع السابق ، (١٩٤ - ١٩٥) .
(٢) انظر تهذيب مدارج السالكين ، (٨٤ - ٩٢) .

ونحوها .

جـ- المباح : وقد اختلف السلف : هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين ؟ على قولين ، ذكرهما ابن المنذر وغيره .

د - المكروه : التكلم بما تركهُ خير من الكلام به ، مع عدم العقوبة عليه .

هـ- المحرم : فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله : كالنطق بالكفر والبدع ، والدعاء إليها ، وكذلك سبّ المسلم ، والقول على الله بلا علم .

٥ - ٣ : السمع :

ومراتب العبودية فيه :

أ - الواجب : كالإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما ، وكذلك استماع الخطبة للجمعة (في أصح قولي العلماء) .

ب- المستحب : كاستماع المستحب من العلم ، واستماع كل ما يحبه الله ورسوله وليس بفرض .

جـ- المباح : وهو ظاهر .

د - المكروه : وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه .

هـ- المحرم : كاستماع الكفر والبدع ، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة : كردِّه ، والشهادة على قائله ونحوه .

٥ - ٤ : النظر :

أ - فعبوديته الواجبة : النظر إذا تعيّن لتمييز الحلال من الحلام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها ، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها .

ب- والمستحب : النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا ، والنظر في آيات الله المشهودة ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته .

حـ- المباح : النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة .

د - المكروه : فضول النظر الذي لا مصلحة فيه . قال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر ، كما يكرهون فضول الكلام .

هـ- المحرم : النظر إلى الأجنبيات لشهوة مطلقًا ، وبغيرها إلا لحاجة كنظر الخاطب ، والمستام والمعامِل ، والشاهد ، والحاكم ، والطبيب ، وذي محرم . ومن النظر المحرم : النظر إلى العورات .

٥ - ٥ : الذوق :

أ - الواجب : تناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه ، وخوف الموت ، قال الإمام أحمد وطاووس : « من اضطر إلى أكل الميتة ، فلم يأكل حتى مات ؛ دخل النار » .

ب- المستحب : أكل ما يعينك على طاعة الله - عز وجل - مما أذن الله فيه ، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل ، فينال منه غرضه .

جـ- المباح : ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان .

د - المكروه : كذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، وأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها .

هـ- المحرم : كذوق الخمر ، والسموم القاتلة .

تنبيه : قد ذكر الإمام ابن القيم العبودية العلمية وهي العلم بالله وأسمائه وأفعاله وصفاته والعلم بدينه ، فلتراجع هناك لمن أراد التوسع .

٦ - كيف نحقق العبودية ؟ :

مراتب العباد في تحقيق العبودية في حياتهم - بين أعلى درجات العبودية وأدناها - كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى ؛ ولهذا التفاوت بين العباد أسباب جعلتهم يتفاوتون في أدائهم العبودية لله - عز وجل - وسنشير إلى تلك الأسباب التي إذا أخذ بها العبد كان ذلك عونًا له في كمال عبوديته وعلو منزلته .

٦ - ١ : تجريد التوحيد :

فالتوحيد هو مفتاح دار العبودية التي لا يفتح بابها إلا به ، ولا يلج إليها إلا من خلاله ؛ ولهذا كان التوحيد أول دعوة الرسل جميعًا : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ (١) .

والعبد يرتقي في مدارج العبودية كلما كمل توحيده علمًا وعملاً ودعوة وجهادًا ، وخلص توحيده من لوثات الشرك وآفات البدع ، وجمع في قلبه توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ، « فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه ، يدبر أمر عباده وحده ، فلا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، ولا مميت ولا محيي ، ولا مدبر لأمر المملكة - ظاهرًا وباطنًا - غيره ؛ فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا يجري حادث إلا بمشيئته ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه ، وأحاطت بها قدرته ، ونفذت بها مشيئته ، واقتضتها حكمته ؛ فهذا جمع توحيد الربوبية . وأما

(١) النحل [٣٦] .

جمع توحيد الإلهية فهو : أن يجمع قلبه وهَمهُ وعزمه على الله ، وإرادته وحركاته على أداء حقه تعالى ، والقيام بعبوديته سبحانه ؛ فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي)) [١] .

٦ - ٢ : العلم :

وهو السلم الذي يرتقي به العبد في مدارج العبودية ، وكلما ازداد علمًا وعملاً ازدادت عبوديته لله ، وخشيته له . وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [٢] ؛ ولهذا فإن فضل العالم العامل عظيم ، نظرًا لعلو مرتبة عبوديته ، فيستغفر له مَنْ في السموات ومن في الأرض ، حتى النملة في حجرها والحيتان في البحر .. وكان طريقه في طلبه للعلم طريقًا للجنة لقوله ﷺ : ((**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له مَن في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**)) [٣] .

٦ - ٣ : الدعوة إلى الله :

وهي من أجَلِّ الطاعات التي تعزز العبودية في القلب ، وتقوي الإيمان وتثبت الأقدام ؛ ولهذا كانت الدعوة مهمة الأنبياء وسبيل الأتباع الأتقياء : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [٤] . وبهذا يعيش المسلم عبودية تصله بأمته ، ينشر الخير فيها ، ويحبب الحق إليها ، ويتحسس آلامها ، ويعمل لتحقيق آمالها ؛ فهو ينبوع يفيض بالخير والرحمة ، ويتدفق بالنفع والبركة ، يفعل الخير ويدعو إليه ، ويبذل المعروف ويدل عليه ؛ فهو مفتاح لكل خير ، مغلاق لكل شر ، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ : ((**طوبي لعبدٍ جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر**)) [٥] . وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ**

---

(١) تهذيب المدارج ، ص ٦٥٨ .
(٢) سورة فاطر [٢٨] .
(٣) رواه ابن ماجة ، كتاب مقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم . انظر صحيح ابن ماجة للألباني ، حديث رقم : ١٨٢ .
(٤) سورة يوسف [١٠٨] .
(٥) رواه ابن ماجة ، كتاب السنة ، باب من كان مفتاحًا للخير ، برقم : (٢٧٨) ، بسند فيه ضعف ، لكن يشهد له حديث أنس بلفظ : ((إن من الناس مفاتيح للخير ، مغاليق للشر ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه)) ، ابن ماجة برقم : ٢٣٧ ، حسنه الألباني ، الصحيحة ، رقم : ١٣٣٢ .

أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) . وما أعظم لقب العبودية الذي وصف الله به نبيه يوم قام يدعو إليه فقال - عز وجل - : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (٢) .

٦ - ٤ : التزام الواجبات والإكثار من المستحبات :

من أعظم أسباب الوصول إلى كمال العبودية محافظة العبد على ما افترضه الله عليه ، والإكثار مما حثه إليه مما يحبه الله ورسوله ﷺ . وقد جاء في الحديث القدسي : قال الله تعالى : ((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)) (٣) .

ومع التزامهم بالواجبات وكثرة عملهم للمستحبات فهم خائفون وجلون ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (٤) .

٦ - ٥ : فقه النية :

استحضار النية في الأعمال كلِّها وتصحيحها وإخلاصها لله وحده ، مما يحيي العبودية في الجنان ، ويقوي حضورها في الكيان ، ويحوّل العادات إلى عبادات والمباحات إلى مستحبات ، وقد قال ﷺ : ((**إنما الأعمال بالنيات**)) ، وهذا أمر مهم ، لا سيما للدعاة إلى الله ، فقد ورد : ((**من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى**)) ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ((أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى ، والورع عمّا حرّم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى)) .

- وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنهما - : ((اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن نقصت نقص بقدره)) .
- وقال بعض السلف : ((رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره

(١) سورة فصلت [٣٣] .
(٢) سورة الجن [١٩] .
(٣) رواه البخاري ، كتاب الرقاق .
(٤) سورة المؤمنون [٦٠] .

النية)).

- وقال داود الطائي : ((البر همتُه التقوى ، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يومًا إلى نيةٍ صالحة ، وكذلك الجاهل بعكس ذلك)) [١] .
- والطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها ؛ أما الأصل : فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل : فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ؛ إذ كل واحدة منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشرة أمثالها .

ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة ، منها :

- انتظار الصلاة بعد الصلاة : ((**فذلكم الرباط**)) .

- كفُّ نفسه وسمعه وبصره عن المحرمات .

- التجرد لذكر الله تعالى أو لاستماع ذكره والتذكر به . وقد جاء في الحديث عن أبي أمامة : ((**من غدا إلي المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلمه كان له كأجر حاجٍّ تامًّا حجه**)) [٢] . فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات ؛ إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة ، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدِّه في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه ؛ فبهذا تزكوا الأعمال ، وتتضاعف الحسنات .

وأما المباحات : فما من شيء منها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ، وينال بها معالي الدرجات ؛ فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة [٣] .

٦ - ٦ : الدعاء :

((**الدعاء هو العبادة**)) ؛ ذلك لأن الدعاء تجسيد لمبنى العبودية القائم على المحبة والذل والخضوع ؛ ولهذا فإن أهل العبودية من أكثر الخلق دعاءً وأعظمهم ابتهالاً . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ [٤] ،

---

(١) الإحياء : ٤ / ٣٦٤ .
(٢) قال العراقي (الإحياء : ٤ / ٣٧١) : رواه الطبراني في الكبير ، وإسناده جيد .
(٣) هذه منقولات من الإحياء بتصرف ، انظر الإحياء عن النية : (ج٢ / ٣٦٢ - ٣٧٦) .
(٤) سورة الأنبياء [٩٠] .

وصفات عباد الرحمن في سورة الفرقان تكرر الدعاء فيها في أولها وختامها ، فقال - عـــــز وجـــــل - : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا * وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (١) إلى أن قال - عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٢) .

كما أن العبودية مطلبٌ يحتاج العبد فيه إلى الإلحاح بالدعاء للإعانة عليه ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لمعاذ : ((**والله إني لأحبك يا معاذ**)) .

قال السعدي - رحمه الله - : في قوله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (٣) : ((وذكر ((الاستعانة)) ، بعد ((العبادة)) مع دخولها فيها ، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله ، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر ، واجتناب النواهي)) (٤) .

٦ - ٧ : مصاحبة أهل العبودية :

الذين برؤيتهم يزداد الإيمان ، إذا رُؤوا ذُكر الله بصحبتهم ؛ فتحيا القلوب ، وتزكو النفوس ، وإذا نسى صاحبهم ذكّروه ، وإذا ذكر أعانوه ، وإذا أخطأ أرشدوه وسددوه : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٥) .

٧ - من آداب العبودية :

٧ - ١ : إخلاص واتباع :

من آدابهم إخلاصهم في عبادتهم واتباعهم لسنة نبيهم ﷺ ؛ ذلك لأن العبادة لها أصلان لا تقبل إلا بهما ، وهما :

- ألا يعبد إلا الله .

---

(١) سورة الفرقان [٦٣ - ٦٥] .
(٢) سورة الفرقان [٧٤] .
(٣) سورة الفاتحة [٥] .
(٤) تيسير الكريم المنان ، ص ٢٢ .
(٥) سورة العصر [١ - ٣] .

● أن يعبد بما أمر وشرع ، لا بغير ذلك من البدع [1] .

((قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[2] - قال : أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : عن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ؛ والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة)) [3] .

وقال السعدي : ((وإنما تكون العبادة عبادةً إذا كانت مأخوذةً عن رسول الله ﷺ مقصودًا بها وجه الله ، فبهذين الأمرين تكون عبادة)) [4] .

٧ - ٢ : الشعور بالتقصير :

فأهل العبودية يشعرون بتقصيرهم في حق ربهم مهما كثرت طاعاتهم ، وعظمت قرباتهم ؛ ذلك لأنهم ينظرون إلى نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ؛ بل يعلمون أن تلك الطاعات إنما هي بفضل الله وتوفيقه ، وإعانته لهم وتسديده ؛ فكل طاعة قاموا بها نعمة من الله تستحق شكره عليها ، وكل شكر له طاعة تحتاج إلى شكرٍ آخر ، وهكذا يبقى العبد مقصِّرًا في حق ربه مهما عمل ، وقد قال رسول الله ﷺ : ((**لن يدخل أحد الجنة بعمله**)) .

وهذا الشعور بالتقصير جعلهم يحتقرون أنفسهم في ذات الله .. سأل عقبة بن صهبان عائشة - رضى الله عنها - عن قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ** ﴾[5]، فقالت : ((يا بني كل هؤلاء في الجنة ، فأما السابق إلى الخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فكمثلي ومثلكم ، قال : فجعلت نفسها معنا)) .

واستشعار أهل العبودية لهذا التقصير جعلهم يبتهلون إلى خالقهم أن يغفر لهم تقصيرهم ويتجاوز عن إسرافهم في أمرهم : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن**

---

(1) الفتاوى : ١ / ١٧٢ - ١٧٣ .
(2) سورة الملك [٢] .
(3) المرجع السابق : ١٠ / ١٧٤ .
(4) تيسير الكريم المنان ، ص ٢٢ ، انظر للتوسع عبودية الكائنات ، ص ١٠٩ ، والعبادة للقرضاوي ، ص ١٥٨ .
(5) فاطر [٣٢] .

قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

٧ - ٣ : الخوف من عدم القبول :

يسارعون في الطاعات ، ويبادرون إليها ، ويستكثرون منها ، ويحسنون فيها ؛ حتى إذا قاموا بها وجلت قلوبهم ، يخافون من عدم القبول . وهذا ما أخبرنا الله تعالى عنه بقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾[2] . قالت عائشة - رضي الله عنها - للنبي ﷺ : ((يا رسول الله ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله - عز وجل - ؟ قال : ((**لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف ألا يقبل منه**))[3] . قال الحسن - رحمه الله - : ((إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقه ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا)) .

٧ - ٤ : كثرة الاستغفار والإقرار بالعبودية لله :

في آداب أهل العبودية كثرة استغفارهم حتى قال سيدهم وإمامهم ﷺ : ((**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**))[4]. قال ابن عمر - رضي الله عنهما - : ((**كنّا نعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة : رب اغفر لي ، وتبْ عليَّ ، إنك أنت التوابُ الرحيم**))[5] .

وسيد الاستغفار دعاء تلهج به قلوب أهل العبودية ، يؤكدون به عبوديتهم لله وإقرارهم بفضله ، ويعترفون بتقصيرهم في حقه ، فيقولون بقلوب خاشعة : ((**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبد ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**)) .

٧ - ٥ : الرضا بالله والتسليم له :

قال النبي ﷺ : ((**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولاً**))[6].

---

(1) آل عمران [١٤٦ - ١٤٧] .
(2) سورة المؤمنون [٦٠] .
(3) رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم ، وقال صحيح الإسناد . قال العراقي : بل منقطع (الإحياء : ٤ / ١٦٢)
(4) رواه البخاري ، كتاب الدعوات ، باب : استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة .
(5) رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح .
(6) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب (٤١) ، برقم : ١٥٠ .

وقال : من قال حين يسمع المؤذن : ((**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولاً ، غُفرت له ذنوبه**))[1].

قال ابن القيم - رحمه الله - : ((وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين ، وإليهما ينتهي ، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته ، والرضا برسوله ، والانقياد له ، والرضا بدينه والتسليم له . ومن اجتمعت له هذه الأربعة ؛ فهو الصديق حقًّا . وهي سهلة بالدعوى واللسان ، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان ، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك .. تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا ، فهو على لسانه لا على حاله .

فالرضا بإلهيته : يتضمن الرضا بمحبته وحده ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة والتبتل إليه ، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه . فعلَ الراضي بمحبوبه كل الرضا ، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له .

والرضا بربوبيته : يتضمن الرضا بتدبيره لعبده ، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه ، والاستعانة به ، والثقة به ، والاعتماد عليه ، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به .

فالأول : يتضمن رضاه بما يؤمر به ، والثاني : يتضمن رضاه بما يقدر عليه .

وأما الرضا بنبيه رسولاً : فيتضمن كمال الانقياد له ، والتسليم المطلق إليه ، بحيث يكون أولى به من نفسه ؛ فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه . ولا يحكم عليه غيره ، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة ؛ لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه . لا يرضى في ذلك بحكم غيره ، ولا يرضى إلا بحكمه .

وأما الرضا بدينه : فإذا قال ، أو حكم ، أو أمر ، أو نهى ؛ رضي كل الرضا ، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه ، وسَلّم له تسليمًا ، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها ، أو قول مُقلده هو وشيخه وطائفته)) [2] .

- ولهذه الآداب آثار كثيرة ينبغي أن تظهر في أحوال المسلم وأفعاله ، فهي :

- الالتزام بشرعه مهما خالف هواه .

- فالمرأة تتمسك بحجابها ، وتحرص عليه ، وترضى به .

- وهي ، وإن أحبت أن تكون جميلة ، فإن حبها لا يحملها على التجمل بمحرم

---

(1) رواه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب (٧) ، برقم : ٣٨٦ .
(2) تهذيب المدارج ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

بالنمص ولبس ما يحرم لبسه .

- الرضا بقضاء الله وقدره [والأمثلة كثيرة على هذا : كالرضا عند فقد محبوب ..] .
- اتباع هدي المصطفى ﷺ في عبادته وخلقه وسمته ودلِّه .

٨ ـ صوارف وجوارف :

والوصل إلى كمال العبودية ليس بأمر ميسور لكل أحد ؛ إذ يصرف الكثير عن الارتقاء في مدارجها ، ويتعثر في الوصول إلى شريف منازلها ـ صوارف وجوارف توهن العزائم ، وتضعف الهمم ، ومنها :

٨ ـ ١ : الذنوب :

فهي تفسد عبودية القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدَّخَل والآفات ؛ فتصده عن الذكر ، وتوهن عزمه عن القيام بحق العبودية وواجباتها .. وقد أدرك السلف ذلك في أحوالهم ، فكان الواحد منهم يشعر بذنبه عند فتوره في ميدان العبودية .

قال عبيد الله بن السري : ((لمَّا أهمَّ ابن سيرين ـ رحمه الله ـ بالدَّين الذي عليه قال : إني لأعرف الذنب الذي حمل به عليَّ الدَّين ما هو ؛ قلت لرجل منذ أربعين سنة : يا مفلس)) . قال عبيد الله بن السري : ((قلت لأبي سليمان الداراني ما قاله ابن سيرين ، فقال : قلَّت ذنوبهم فعرفوا من أين يُؤتون ، وكثرت ذنوبي وذنوبك فليس ندري من أين نُؤتَى)) [١] .

ولقد كان السلف يرون التباطؤ عن العبادة من أسباب الذنوب . قال أبو داود الحفري : ((دخلت على كرز بن وبره بيته فإذا هو يبكي ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إن بابي لمغلق ، وإن ستري لمسبل ، ومنعت جزئي أن أقرأه البارحة ، وما هو إلا من ذنب أذنبته)) [٢] .

٨ ـ ٢ : الإغراق في المباحات :

فينشغل بها القلب عن السير ؛ ولهذا جاء التحذير من الإكثار منها ، ومن ذلك :

أ – كثرة الأكل :

- ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا** ﴾ [٣] .

---

(١) صفة الصفوة : ٣ / ٢٤٦ ، انظر واحات الإيمان ، (١ / ٢٩) .
(٢) صفة الصفوة : ٣ / ١٢٢ ، انظر واحات الإيمان ، (١ / ٣٠) .
(٣) سورة الأعراف [٣١] .

- قال الشافعي - رحمه الله - : ((ما شبعت منذ ست عشرة سنة ، إلا شبعة اطّرحتها ؛ لأن الشبع يثقل البدن ، ويقسي القلب ، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة)) .

ب – كثرة الضحك :

- قال رسول الله ﷺ : ((**لا تُكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تُميت القلب**)) (١) .

- قال الحسن - رحمه الله - : ((ابن آدم ، أقلل الضحك ، فإن كثيره يميت القلب ، ويزيل البهجة ، ويسقط المروءة ، ويزري بذي الحال)) .

ج – كثرة الكلام :

وهي آفة أخرى تقسي القلب ، وتعيقه عن سيره في طريق العبودية . ولقد جمع عمر رضي الله عنه بين كثرة الضحك والكلام فقال : ((من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن فرح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه ، ومن قلَّ ورعه مات قلبه)) .

د – وقس على ذلك سائر المباحات :

كثرة النوم ، وكثرة الاعتناء بالمظهر ، والمبالغة في التنعم والترفه ، وقد روي : ((**إياكم والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين**)) ، والمقصود بالتنعم هو الاستغراق الزائد في الملاذ والطيبات ، والتقلب الدائم في النعيم والترف ، ولا يخفى ما في هذه المظاهر من إخلاد للراحة ، وتقاعس عن واجب الدعوة والجهاد ، والانزلاق في متاهات الميوعة والانحلال (٢) .

ومن وصايا البنا - رحمه الله - لإخوانه : ((وأن تبتعد عن مظاهر الترف والرخاوة جميعًا)) (٣) .

قال الراشد : ((ولقد منَّ الله على الناس بكثير من المباح الحلال يُفنّد الرهبانية ، ولكن المؤمن له لذة ، كلّما توجه إلى ربه بصفاء روح تتضاءل بجانبها لذة المباح ؛ فيهجر الكثير منه حذرًا من كدر يعكر الصفاء الذي هو فيه)) (٤) .

٨ - ٣ : التعلق بالدنيا :

---

(١) رواه ابن ماجة ، ٤١٩٣ ، وإسناده صحيح ، قاله البوصيري في الزوائد .
(٢) تربية الأولاد في الإسلام : ١ / ١٩٣ - ١٩٤ . انظر التزكية : ص ١٤٨ .
(٣) رسالة التعاليم ، الإمام حسن البنا .
(٤) الرقائق ، ص ٢٧ .

الافتتان بزهرة الحياة الدنيا من أعظم الفتن التي تعرض لقلوب العباد ؛ ولهذا قال ﷺ : ((**فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على مَنْ كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم**)) [١].

ويزداد تعلق العبد بزخرفها حتى يكون عبدًا لها ؛ فلا يتحرك إلا لها ، ولا يفكر إلا بها ، وفي هذا وأمثاله يقول ﷺ : ((**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتعش**)) [٢] .

وللتعلق بالدنيا علامات [٣] منها :

- تواصل اشتغال العبد بها حتى ما يكاد شغله ينتهي :

قال الحسن : ((إياكم وما شغل من الدنيا ، فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب)) .

- الإكثار من ذكر الدنيا والإعجاب بزخارفها ومتاعها :

فلا يُرى صاحب الدنيا إلا وهو يتحدث عن المال وطرق جمعه وتحصيله ، أو عن أصناف المأكل والملبس والمسكن ، أو عن الأزواج والبنين ، أو عن الأسواق والمشتريات . وقد قيل : ((القلوب أوعية ، والألسن مغاريفها)) .

٩ - نماذج من عبودية أتباع الرسل [٤] :

إليك تذكرة ببعض النماذج لأهل العبودية الذين جاهدوا أنفسهم في ذات الله فظهرت معالم العبودية في حياتهم بارزة جلية قولاً وعملاً وحالاً .. ومن تلك النماذج :

٩ - ١ : مؤمن آل فرعون :

كان هذا الرجل من حاشية فرعون المقربين إليه ؛ فآمن بموسى ، وكتم إيمانه ، وأصبح جنديًّا وفيًّا لدينه ولرسوله ، يدافع عنه ما استطاع .

فلما سمع أن فرعون يريد قتل موسى ، تحرك هذا الرجل المؤمن بين الناس يخوفهم من عاقبة ذلك ، ويحذرهم بأس الله - عز وجل - أن يصيبهم بتكذيبهم موسى وإعراضهم عن الحق بأسلوب حكيم ، وكأنه واحد منهم خائف عليهم وشفوق بهم ..

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب ٧ ، برقم : ٦٤٢٥ .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب ١٠ ، برقم : ٦٤٣٥ .
(٣) الدنيا متاع الغرور ، ص ٧ - ١١ ، بتصرف .
(٤) اختيارات ملخصه من عبودية الكائنات ، ص ٢١٤ - ٢٣٤ .

ولكن فرعون وقومه ما زادهم ذلك إلا استكبارًا وجحودًا ..

قـال سيد - رحمه الله - : « وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة بعدما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد ، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ، وحذرهم عذاب الآخرة ، وبيّن لهم ما في عقيدة الشرك من زيف وبطلان »[1] [انظر الآيات من سورة غافر : ٣٨ - ٤٤] ، ثم يختم تذكيره وتحذيره بقوله : ﴿ **فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾[2] .

٩ - ٢ : امرأة فرعون :

وهي آسية بنت مزاحم ، إحدى النساء اللاتي كملن ، كما جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران** »[3] . آمنت بما جاء به موسى - عليه السلام - ورأت الآيات على صدقه وصدق دعوته ، وعرفته عن كثب ، حيث تربى في كنفها ، ولم تجرب عليه كذبًا ، فصدها فرعون عن عبادة إله موسى - عليه السلام - وغضب غضبًا شديدًا أن اتخذت إلهًا غيره ، وعذبها على إيمانها برب العالمين ، فهددها وخيَّرها بين الموت وبين الكفر برب موسى - عليه السلام - ولكنها أصرت على الإيمان بالله وحده ، فتحررت من عبودية فرعون ، فألقى الله تعالى في قلبها الثبات والصبر على صنيع فرعون وجنوده ، فقال تعالى مخبرًا عنها : ﴿ **وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[4]، فأجاب الله تعالى دعاءها ، وأخذ روحها إلى الرفيق الأعلى ، فاختارت الجار قبل الدار - كما يقول العلماء -[5] .

ذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - بعض فضائل آسية بنت مزاحم فقال :

---

(1) في ظلال القرآن : ٥ / ٣٠٨٢ .
(2) سورة غافر [٤٤] .
(3) رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ ، ورواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل عائشة زوج النبي - رضي الله تعالى عنها - ، ومختصره حديث رقم : ١٦٦٧ .
(4) سورة التحريم [١١] .
(5) راجع تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٣٩٤ .

« ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على الملك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه ، وكانت فراستها في موسى - عليه السلام - صادقة حين قالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي ﴾ »[1][2] أ . هـ .

٩ - ٣ : سحرة فرعون : وكيف آمنوا فثبتوا ، وابتلوا فصبروا .

٩ - ٤ : أصحاب الكهف .

٩ - ٥ : غلام الأخدود .

٩ - ٦ : نماذج من حرصهم على العبادات المحضية :

عن أنس بن سيرين قال : « كان لمحمد بن سيرين سبعة أوراد ، فإذا فاته شيء من الليل قرأه بالنهار »[3] .

١٠ - صاحب العبودية رحّالة :

« والعبودية صفة تؤدي بالإنسان إلى أن يعبد ربّه في كل مقام بما يناسب ذلك المقام ، فيتحقق من وراء ذلك خير كثير موصول ؛ ولذلك يذكر ابن القيم في « مدارج السالكين » أن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فإذا أدى العبد ما يناسب الوقت أو الحال من طاعة تلائمه وتناسبه كان على أفضل العبادة ؛ ففي وقت الجهاد يشغل نفسه بالقتال والنضال ، وعند حلول الضيف يقوم بواجبه ، ومع الزوجة والأهل يكون حسن المعاملة لهم ، وفي وقت تعليم الجاهل يقبل على إرشاده وتعليمه ، وعند الأذان تظهر منه الاستجابة والتلبية ، وعند حلول الصلوات يقيمها على وجهها ويخشع فيها ، وعند الحاجة إلى العون يغيث الملهوف وينجد المكروب ويساعد المحتاج ، وعند تلاوة القرآن يقبل عليه ويتدبره ويخشع له ، وهكذا ..

ويرى ابن القيم أن هذا هو التعبد المطلق ، وهو شغل كل وقت بما يناسبه من طاعة وعبادة ، ويقول : « وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ؛ فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى .

---

(1) سورة القصص [٩] .
(2) فتح الباري : ٦ / ٤٤٨ .
(3) انظر سير أعلام النبلاء : ٤ / ٦١٨ ، وانظر أيضًا : صفحات مضيئة من عبادة السلف .

فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ، فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العُباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلوب على الله رأيته معهم ؛ فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربّه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه)) .

ومعنى هذا أن الذي تتحقق له فضيلة ((العبودية)) يكون دائمًا مع الله ، ساعيًا في سبيل الله ، خادمًا لعباد الله ، مظهرًا السكينة والتذلل لجلال الله ، نائيًا عن الفساد والإفساد في أرض الله ، مسخرًا كل طاقاته في العمل بطاعة الله ، ففيه عبودية اللسان الذي ينطق بذكر الله ، ويرتل كلام الله ، ويتعود الكلمة الطيبة ، فيدعو إلى الخير ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وفيه عبودية السمع ، فيصغي إلى ما يجب استماعه من توجيه أو نصح أو إرشاد ، وهو يتذكر قول ربه - عز من قائل - : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [1] ، وقوله عن خيار عباده : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [2]، وفيه عبودية النظر ، فلا ينظر إلا ما يحسن به النظرُ إليه ، وهو لا ينسى قولَ خالقه : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [3] .

والعبودية حين تتحقق لصاحبها على حقيقتها ووجهها السليم تجعله من حزب الأتقياء الأوفياء المسارعين إلى المغفرة والطاعة ..)) [4] .

خامسًا : من التطبيقات العملية للدرس :

١- إلقاء كلمة أو موعظة في مفهوم العبادة الشامل وأخطاء بعض الناس في هذا المفهوم .

٢- المحافظة على الصلوات الخمس في المسجد ، والالتزام بالأوراد اليومية .

٣- القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - حسب الاستطاعة وبالحكمة - في البيت والمدرسة ومكان العمل .

٤- (**بالنسبة للمرأة**) : القيام بالفرائض ، وطاعة الزوج ، وعدم الخروج إلا بإذنه ، والقيام بحقوقه ، والصبر على ذلك ، واحتساب الأجر من الله تعالى .

٥- البعد عن مواطن الفتن ، وغض البصر عن المحرمات ، وتهذيب اللسان .

---

(1) سورة الأعراف [٢٠٤] .
(2) سورة الزمر [١٨] .
(3) سورة الإسراء [٣٦] .
(4) موسوعة أخلاق القرآن : ١ / ١٤٩ - ١٥٠ .

٦- الارتباط بصحبة صالحة ، والتعاهد معهم على العمل الصالح من تربية النفس وتزكيتها والدعوة إلى الله .
٧- الحذر من الإكثار من المباحات ، والاستغراق في التنعم والترفه ، والإكثار من الصيام والقيام .
٨- مراجعة جدول الأعمال اليومي ، والوقوف على مواطن الخلل ، وزيادة أعمال البر المتنوعة ، التي تزيد من عبودية القلب .

سادسًا : بعض مراجع الموضوع :

١- العبادة في الإسلام ، يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٧ .
٢- الرسائل الشمولية ، عبد العزيز الحميدي ، دار الدعوة ، ط ١ .
٣- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية ، فريد الأنصاري ، الأمة ، ط١ .
٤- التزكية ، نبيل المعاز ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط١ .
٥- الفتاوى ، شيخ الإسلام ابن تيمية .
٦- شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط٨ .
٧- العبودية مسائل وقواعد ومباحث ، عبد العزيز العبد اللطيف ، دار الوطن ، ط ١ .
٨- شرح العبودية ، عبد العزيز الراجحي ، دار الفضيلة ، ط١ .
٩- تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات ، فوز الكردي ، دار طيبة ، ط١ .
١٠- واحات الإيمان ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط ١ .
١١- الرقائق ، محمد أحمد الراشد ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .
١٢- عبودية الكائنات لرب العالمين ، فريد إسماعيل التوني ، مكتبة الضياء ، ط١ .
١٣- تهذيب مدارج السالكين ، ابن القيم ، مكتبة السوادي .
١٤- العبادة ، البيانوني ، دار السلام .
١٥- موسوعة أخلاق القرآن ، أحمد الشرباصي ، دار الرائد العربي ، ط٣ .
١٦- إسلامنا ، السيد سابق ، دار الكتاب العربي .
١٧- صفحات مضيئة من عبادة السلف ، إبراهيم العلي ، مكتبة المنار ، ط١ .
١٨- إحياء علوم الدين ، الغزالي ، دار المعرفة .
١٩- السعي المشكور ، محمد الرملي ، دار ابن القيم ، ط ١ .
٢٠- تيسير الكريم المنان ، السعدي ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .
٢١- أعلام الموقعين ، ابن القيم ، دار الجيل .
٢٢- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي [١٧ / ٢٨٧] ، دار إحياء التراث .

٢٣- القول المفيد على كتاب التوحيد ، الشيخ ابن عثيمين ، دار العاصمة ، ط١ .
٢٤- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، عبد الرحمن آل شيخ ، دار الحديث .

علم

العلم

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغة :

العلم : نقيض الجهل .

قال ابن منظور - رحمه الله - : ((من صفاتِ الله - عز وجل - العَليمُ والعالِمُ والعَلاّمُ . قال الله - عز وجل - : ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٣) ، فهو الله العالمُ بما كان وما يكون قبل كَونِه ، وما يكونُ ولَمَّا يَكُنْ بَعدُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ، لَمْ يَزَل عالِمًا ، ولا يَزالُ عالِمًا بما كانَ وما يَكوُن ، ولا يَخفَى عَلَيهِ خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماء - سبحانَهُ وتعالى - أحاط عِلمُه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها ، دَقيقِها وجَليلها ، على أتمِّ الإمكان . وعليمٌ ، فَعِيلٌ : من أبنيةِ المُبالَغَةِ ، ويَجُوزُ أنْ يُقالَ للإنسان الذي عَلّمهُ الله علمًا من العلوم عَلِيم ، وقال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، فأخبر - عز وجل - أن من عبادِهِ مَنْ يخشاهُ ، وأنهمْ هُمُ العلُمَاءُ ، وكذلك صِفةُ يُوسُفَ - عَليهِ السلامُ - كان عَليمًا بأمرِ رَبهِ .

وعلاّم وعلاّمة إذا بالغت في وصفه بالعلم ، أي عالمٌ جدًّا)) (٤) .

ب - اصطلاحًا :

((هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع)) (٥) .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من عرض هذا الموضوع إلى عدة أمور ، منها :

١- تأصيل حب العلم وطلبه في نفوس الطلاب ، وحثهم على التزود منه ، والحرص عليه .

٢- التأكيد على أهمية العلم بالعمل ، وضرورة موافقة القول العمل ، وأثر التناقض بين القول والعلم على دعوة الداعية للناس .

---

(١) سورة يس [٨١] .
(٢) سورة الحشر [٢٢] .
(٣) سورة المائدة [١٠٩] .
(٤) لسان العرب : ٤ / ٣٠٨٢ – ٣٠٨٣ ، مختصرًا .
(٥) التعريفات : ص ١٩٩ .

٣- الاقتداء بسلفنا الصالح في طلبهم للعلم ، واهتمامهم به ، وحرصهم عليه ، وتجشمهم المصاعب في سبيل تحصيله ، والاستزادة منه ، وذلك من خلال عرض نبذ واقتباسات مضيئة من سيرهم في هذا الشأن .
٤- التأكيد على أهمية التأصيل الشرعي للمناهج الدعوية ، والبرامج التربوية ؛ لتكون الدعوة على بصيرة ، ولتجنب المخالفات الشرعية ، والمزالق الاجتهادية .
٥- بناء العقلية العلمية التي تتميز بسعة أُفقها ، وعمق نظرتها ، وقدرتها على الدعوة بعلم وحكمة وبصيرة .
٦- تفنيد بعض الأعذار التي يعتذر بها بعض الدعاة للتسويف لقعودهم عن تحصيل ما لا يعذر داعية بجهله .
٧- بيان الخطوط العامة لكيفية طلب العلم ، وعرض بعض الأسباب التي تعين على تحصيله والارتقاء في سُلّمه .
٨- التحذير من أسباب حرمان العلم والابتعاد عنها .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١- دلالة المصطلح .
٢- أهمية العلم (في الدعوة خاصة) .
٣- فضل العلم وأهله .
٤- حكم طلب العلم .
٥- أنوار على طريق الطلب .
٦- أمور تعين على الارتقاء .
٧- محاذير ومعوقات .
٨- من عجائب الطلاب .
٩- آثار في التحذير من ترك العمل بالعلم (اقتضاء العلم العمل) .
١٠- أسئلة في طريق الطلب .

رابعًا : العرض :

١ - دلالة المصطلح (انظر دلالة المصطلح) .

٢ - أهمية العلم (في الدعوة خاصة) :

٢ - ١ : لعظم فضل العلم ورفعة أهله وعلو منزلتهم على سواهم :

وقد كثرت النصوص في الكتاب والسنة في ذكر فضل العلم والإشادة بمنزلة أهله . والدعاة إلى الله - عز وجل - هم أولى الناس بهذه المنزلة ، وينبغي أن يكونوا

أسبق الناس إليها .

٢ - ٢ : أهمية العلم في الدعوة إلى الله ؛ فهو لازم من لوازمها ، وشرط من شروطها . قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : « وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها ، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه ، بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي »[1] .

٢ - ٣ : أهمية العلم في صحة العمل وسلامته من الآفات وحماية الدعوة من الانحرافات ؛ فكثير من الأخطاء التي وقعت في مجال الدعوة سببها قلة العلم ؛ ولهذا قال ابن القيم - رحمه الله - : « العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به ، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه ، بل مضرةٌ عليه ، كما قال بعض السلف : مَنْ عَبَدَ اللهَ بغير علمٍ كان ما يفسد أكثر مما يصلح »[2] ؛ ولهذا قيل : « العامل بلا علم كالسائر بلا دليل » .

٢ - ٤ : أثر التفقه في معرفة الداعية لآفات النفوس وأساليب علاجها ، وأهمية العلم بأعمال القلوب ووسائل إصلاحها وصلاحها ؛ وهذا أصل الجهاد وقوامه كما قال الشيخ السعدي - رحمه الله - : « الجهاد نوعان : جهاد يقصد به صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم ، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية ، وفي تربيتهم العلمية والعملية ، وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه ، وعليه يتأسس النوع الثاني ، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين »[3] .

٢ - ٥ : إن التحصيل العلمي من أكبر الدوافع للداعية إلى السعي في نشر الخير وتعليم الناس ؛ فكلما كثر علمه كان أقدر على التأثير وأمكن في التعليم ، وبعكسه الجاهل الذي يضمحل تأثيره مع أول خطوة يخطوها مع المدعو ؛ فينكشف عيبه ، ويظهر عيّه وجهله ، فينصرف عنه الناس ؛ لأن « فاقد الشيء لا يعطيه » .

قال الشاعر :

ونجلب الماء من بئرٍ معطلة ونطلب الخبز من تنور جوعان

٢ - ٦ : حاجة الداعية للعلم في معالجة المشكلات ، واتخاذ القرار الصحيح في المعضلات ، والإجابة على التساؤلات التي تعرض عليه في طريق دعوته ، كما في حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا .. فانظر تفاوت الفقه بين العابد الجاهل والفقيه

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٥٤ ، وانظر صحيح ابن القيم في الدعوة : ١ / ١٤٨ .
(٢) مفتاح دار السعادة : ١ / ٨٢ .
(٣) الثقافة الإسلامية : ١ / ١٨٦ ، انظر أيضًا مجتبى الفوائد الدعوية والتربوية ، ص ٢٣ .

العالم .

٢ - ٧ : ((ضرورة العلم في التمييز بين الحق والباطل في الاعتقادات ، والصواب من الخطأ في المقولات ، والمسنون من المبتدع في العبادات ، والحلال والحرام في التصرفات ، والصحيح من الفاسد في المعاملات ، والفضيلة من الرذيلة في السلوكيات ، والمقبول من المردود في المعايير ، والراجح من المرجوح في الأقوال والأعمال)) [١].

٢ - ٨ : ((أهمية العلم في الحكم العادل على الأفراد والجماعات ، وتقديم المواقف والأحداث تقويمًا سليمًا ، بعيدًا عن الشطط والهوى ، وعن الإفراط والتفريط))[٢].

٣ - فضل العلم وأهله :

تكاثرت النصوص في بيان فضل العلم ومنزلة أهله ، ويزداد هذا الفضل وتلك المنزلة تبعًا لشرف المعلوم ، والتوسع فيه ، والعمل به ، وظهور أثره على حامله .

ولما كان فضل العلم يعرفه العامة فضلاً عن الخاصة فلم يكن بنا حاجة إلى إقامة الأدلة ونصب البراهين على الإشادة به ، وإظهار محاسنه ؛ فذلك قد صنفت فيه كتب مستقلة [٣] ، ولكننا نذكر ما نستنفر به الهمم ، ونقوي به العزائم .

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - أكثر من مائة وثلاثة وخمسين وجهًا في فضل العلم وشرف أهله في الدنيا والآخرة ، نلخص بعض ما ذكره :

١- في قوله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[٤] استشهد سبحانه بأولي العلم على أجلّ مشهود عليه وهو توحيده ، كما أنه قرن شهادتهم بشهادته ، كما أنه تعديل وتزكية لهم ، فإن الله لا يستشهد في خلقه إلا العدول .

٢- نفى سبحانه التسوية بين أهل العلم وغيرهم فقال : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾[٥] ، وهذا يدل على فضلهم وشرفهم .

---

(١) انظر الحياة الربانية والعلم ، ص ٨٩ .
(٢) نحو وحدة فكرية للعاملين ، ص ٢٣ .
(٣) مثل : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، وهناك من جعل العلم في مصنفه كتابًا أو بوّب في فضله بابًا ، مثل : صحيح البخاري ؛ إذ جعل كتابًا للعلم بعد كتاب بدء الوحي ، وكتاب الإيمان . وكذلك بوّب الترمذي في جامعه وابن ماجة في سننه [انظر مراجع البحث] .
(٤) سورة آل عمران [١٨] .
(٥) سورة الزمر [٩] .

٣- أنـه سبحانه جعل أهل الله بمنزلـة العميـان الذين لا يبصـرون فقـال : ﴿ أَفَمَن يَّعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ (١) .

٤- أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم ، وجعل ذلك كالشهادة منهم ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء .

٥- أنه سبحانه مدح أهل العلم ، وأثنـى عليهم ، وشرفهم بـأن جعل كتابـه آيات بينات في صدورهم ، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم فقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾(٣) .

٦- أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم فقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٤)، وكفى بهذا شرفًا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه .

٧- أخبر سبحانه عن رفعة درجات العلم والإيمان خاصة : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٥) .

٨- أخبر سبحانه أن أهل العلم أهل خشيته ، بل خصـهم من بين النـاس بذلك ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٦) .

قال ابن مسعود ؓ : ((كفى بخشية الله علمًا ، وكفى بـالاغترار بـالله جهلاً)) (٧) .

٩- أن أهل العلم هم المنتفعون بالأمثـال التـي يضـربها الله تعالى للنـاس ، وهم المختصـون بعلمهـا فقـال : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾(٨). وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً ، وكان بعض السلف إذا مرَّ بمثل لا يفهمه يبكي ويقول : ((لست من العالمين)) .

١٠- أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه قد أتاه خيرًا كثيرًا فقال تعالى : ﴿ يُؤْتِي

---

(١) سورة الرعد [١٩] .
(٢) سورة الأنبياء [٧] .
(٣) سورة العنكبوت [٤٩] .
(٤) سورة طه [١١٤] .
(٥) سورة المجادلة [١١] .
(٦) سورة طه [٢٨] .
(٧) مفتاح دار السعادة : ١ / ٥١ .
(٨) سورة العنكبوت [٤٣] .

الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) . قال ابن قتيبة والجمهور : ((الحكمة إصابة الحق والعمل به ، وهي العلم النافع والعمل الصالح)) . وقد قال ﷺ : ((مَنْ يُرد الله به خيرًا يفقه في الدين)) (٢) .

١١- أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله - ميّزه على الملائكة بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ؛ ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف - عليه السلام - لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ؛ فحينئذ قدّمه ومكنه وسلم إليه خزائن الأرض .

١٢- أنه سبحانه ذمَّ الجهل في مواضع كثيرة في كتابه فقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾(٣) ، بل لم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾(٤)، وقال تعالى لنبيه : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٥) ، وقال كليمه موسى - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦) .

١٣- العلم حياة ونور ، والجهل موت وظلمة ، والشر كله سببه عدم الحياة والنور ، والخير كلّه سببه النور والحياة ؛ فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها . قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٧) .

١٤- من شرف العلم وفضله ، أن فضّل الله الكلب العالم على الكلب الجاهل ؛ فجعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلَّم ، فقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْه ﴾(٨)، ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلّم والجاهل سواء .

---

(١) سورة البقرة [٢٦٩] .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) سورة الأنعام [١١١] .
(٤) سورة الأنفال [٢٢] .
(٥) سورة الأنعام [٣٥] .
(٦) سورة البقرة [٦٧] .
(٧) سورة الأنعام [١٢٢] .
(٨) سورة المائدة [٤] .

١٥- وبفضل العلم وشرفه سافر نبي الله موسى وكليمه - عليه السلام - حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم .

١٦- ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه ، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم من الجهاد ، فقال - عز وجل -: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١)؛ فهو ترغيب في التفقه في الدين وتعلّمه وتعليمه ، فإن ذلك يعدل الجهاد ، بل ربما يكون أفضل منه .

١٧- قـال الله تعـالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) ، قال الشافعي ﷺ : ((لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم)) ، وبيان ذلك أن المراتب أربعة ، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله : إحداها : معرفة الحق ، والثانية : عمله به ، والثالثة : تعليمه من لا يحسنه ، والرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

١٨- أنه سبحانه ذكر فضله ومِنَّته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم ؛ فذكر نعمته على خاتم رسله ﷺ بقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (٣) ، وفي يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) ، وقال في كليمه موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾(٥).

١٩- أن أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة العلق ؛ فذكر فيها ما مَنَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم ، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه ، وذلك يدل على شرف التعليم والتعلم ، فقال - عز وجل - : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٦) .

٢٠ - كن من الطائفة الطيبة : قال رسول الله ﷺ : ((**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى**

---

(١) سورة التوبة [١٢٢] .
(٢) سورة العصر [١ - ٣] .
(٣) سورة النساء [١١٣] .
(٤) سورة يوسف [٢٢] .
(٥) سورة القصص [١٤] .
(٦) سورة العلق [١ - ٥] .

والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا ؛ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ؛ فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به)) [١] .

٢١- طالب العلم الداعي إلى الهدى له مثل أجور من تبعه : قال ﷺ : ((من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أُجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)) [٢] .

٢٢- العامل بعلمه مغبوط لعظم نفعه وأثره في الناس : قال ﷺ : ((لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها)) [٣] ، فأخبر ﷺ أن لا ينبغي لأحد أن يحسد أحدًا - يعني حسد غبطة - ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا في واحدةٍ من هاتين الخصلتين ، وهي الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله ؛ وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ، ولا تمني مثل حاله لقلة منفعة الناس به .

٢٣- طلب العلم طريق إلى الجنة : قال رسول الله ﷺ : ((من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر)) [٤] ، فقوله ﷺ : ((إن العلماء ورثة الأنبياء)) هذا من أعظم المناقب لأهل العلم ؛ فإن الأنبياء خير خلق الله ، فورثتهم خير الخلق بعدهم ، كما أن فيه تنبيهًا للعلماء على سلوك هدي الأنبياء وطريقتهم في التبليغ من الصبر والاحتمال ، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان ، والرفق بهم ، واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب فضل منْ عَلِمَ وعلّم ، برقم : ٧٩ ، ورواه مسلم ، برقم : ٢٢٨٢ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) رواه الترمذي برقم : ٢٦٨٢ ، وأبو داود برقم : ٣٦٤١ ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ، وقد ذكر الإمام ابن القيم عدة أحاديث في هذا المعنى ، فلتراجع لمن شاء التوسع في مفتاح دار السعادة : ١ / ٦٣ وما بعدها .

٢٤- نزّه نفسك عن حقارة الدنيا بالعلم والتعلّم : قال رسول الله ﷺ : ((**الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلِّم**))(١)، واللعنة هنا بمعنى الحقارة والدناءة .

٢٥- أن الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ويحمدونه ، كما ورد في حديث معاوية .

٢٦- حرص سلف هذه الأمة على العلم ، وتفضيلهم إياه على الكثير من العبادات سوى الفرائض : قال الشافعي : ((ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم)) ، وكذلك قال سفيان الثوري ، وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة ، وكذلك الإمام أحمد في رواية عنه .

٢٨- طلبه عبادة : قال معاذ رضي الله عنه : ((تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، به يُعرف الله ويُعبد ، وبه يُوحَّد ، وبه يُعرف الحلال من الحرام ، وتُوصل الأرحام ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على السرّاء ، والمعين على الضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة وسادة يُقتدي بهم ، أدلة في الخير تُقتص آثارهم ، وتُرمق أفعالهم ، وترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ؛ يستغفر لهم كل رطب ويابس ، حتى الحيتان في البحر وسباع البر .. والعلم إمام للعمل ، والعمل تابعه ، يُلهمه السعداء ، ويُحرمه الأشقياء))(٢) .

٤- حكم طالب العلم :

لم يكتف الإسلام بالحث على العلم والدعوة إليه ، بل جعل تعلم بعض العلوم فريضة شرعية وضرورة دينية ، وقد جاء في الحديث المشهور : ((**طلب العلم فريضة على كل مسلم**))(٣) .

((والمراد بالمسلم في الحديث : الإنسان المسلم ، رجلاً كان أو امرأة ؛ ولهذا أجمعوا على

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن ، ورواه ابن ماجة برقم : ٤١١٢ ، وهو في صحيح الجامع برقم : ٣٤١٤ ، وحسّنه .
(٢) قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١ / ١٢٠) : رواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ .
(٣) رواه ابن ماجة برقم : ٢٢٤ ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله : ١ / ٩ ، وهو في صحيح الجامع برقم : ٣٩١٣ ، وقد صححه الحافظ السيوطي بمجموع طرقه التي بلغت خمسين طريقًا ، قال المزي : ((إن طرقه تبلغ رتبة الحسن)) ، ونقل الحافظ العراقي تصحيحه عن بعض الأئمة ، انظر جامع بيان العلم وفضله : ١ / ٨ ؛ والفقيه والمتفقه : ١ / ٤٣ ، ومجمع الزوائد : ١ / ١١٩ - ١٢٠ ، وشرح السنة للبغوي : ١ / ٢٩٠ ، وكشف الخفاء : ٢ / ٤٣ .

أن الحديث يشمل كل مسلم ومسلمة ، وإن لم يرد لفظ (ومسلمة) في رواية الحديث »[١].

وقد ذكر الإمام ابن القيم أن شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ، ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها ، والله - تعالى - أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا ؛ فطلب العلم فريضة على كل مسلم ، وهل يمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم ؟ وهل يُنال العلم إلا بطلبه ؟ ثم إن العلم المفروض تعلمه ضربان :

● **الضرب الأول** :

فرض عين : لا يسع مسلمًا جهله ، وهو أنواع :

النوع الأول : علم أصول الإيمان الخمسة :

الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ؛ فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان ولا يستحق اسم المؤمن ، فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها .

النوع الثاني : علم شرائع الإسلام :

واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها : كعلم الوضوء ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، وتوابعها ، وشروطها ، ومبطلاتها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية ، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾[٢] ؛ فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول ، لا تباح قط .

النوع الرابع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس ، خصوصًا وعمومًا ، والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم ؛ فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته ، وليس الواجب على من نصّب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البيوع كالواجب على من لا يبيع ولا يشترى إلا ما تدعو الحاجة إليه .

---

(١) الحياة الربانية والعلم : ص ١١٠ .
(٢) سورة الأعراف [٣٣] .

● **الضرب الثاني** :

فرض كفاية : فهو كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين ، وإنما يخالفه بسقوطه عن البعض [١] .

وفرض الكفاية قد يكون في علوم الدين وفي علوم الدنيا : فأما علوم الدين فما ليس بفرض عين فيها فإن تعلّمه والتبحر فيه فرض كفاية ، بحيث يظل في الأمة منْ إذا استُفتي أفتى بعلم ، وإذا قضى قضى بحق ، وإذا دعا دعا على بصيرة ، يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [٢] . فلم يوجب على الجميع النفير لطلب العلم ؛ إنما أوجبه على طائفة في كل فرقة ؛ سواء أكانت هذه الطائفة اثنين ، أم أكثر ، أم أقل ما دامت تكفي لوظيفة التفقه والإنذار .

وأما علوم الدنيا فأعدل ما قيل فيه ما قاله الإمام الغزالي ، وهو أن فرض الكفاية منها : « كل علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا : كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ؛ وكالحساب ، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرِج أهل البلد (يعني : دخل عليهم الحرج والمشقة) ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين » [٣] .

والمقصد أن تكون الأمة قوية عزيزة مكتفية بذاتها ، قادرة على التصدي لأعدائها ، وهذا داخل في قوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ [٤] .

● العلم المباح والعلم المذموم :

وإلى جانب ما هو فرض عين وفرض كفاية هناك من العلوم ما هو مباح : كتعلم رسم الأشجار ، وما لا روح فيه ، وهناك ما هو مذموم : كرسم ذوات الأرواح ، وتعلم الغناء والضرب على مزامير الشيطان ، وكذلك تعلم ضروب السحر والتنجيم ونحوها من المحرمات ، قس على ذلك تعلم كل شيء محرّم أو يعود على صاحبه أو المسلمين بالضرر والفساد المادي أو المعنوي .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٥٦ - ١٥٧ ، بتصرف ، وانظر أيضًا منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى ، ١ / ٢٤٨ - ٢٤٩ .
(٢) سورة التوبة [١٢٢] .
(٣) الحياة الربانية والعلم ، (١١٦ - ١١٧) ، باختصار ؛ وانظر الإحياء : ١ / ٢٨ .
(٤) سورة الأنفال [٦٠] .

- أقوال مأثورة :

- قال أحمد بن حنبل : ((أما ما يقيم به الصلاة وأمر دينه من الصوم والزكاة وذكر شرائع الإسلام فينبغي له أن يعلم ذلك)) .
- قال الحافظ ابن عبد البر - رحمه الله - : ((قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصة نفسه ، ومنها ما هو فرض على الكفاية ، إذا قام به البعض سقط فرضه على أهل الموضع (البلد))) .
- يجب على العلماء تعليم الجاهل ليتميز له الحق من الباطل [1] .

٥ – أنوار على طريق الطلب :

٥ – ١ :التقوى ومراقبة الله تعالى :

فاستعن بطاعة الله وخشيته على تعلم العلم وحفظه ، وقد كان سلفك الصالح إذا استعجم عليه شيء من المسائل فزع إلى الصلاة ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول عن نفسه بأنه يدخل السوق فيكثر من الاستغفار ، فينفتح عليه باب فهم لمسائل لم يكن يدري ما يقول فيها ، ومن قبله الإمام أبو حنيفة - رضي الله عن الجميع - .

قال أحد الفقهاء والأئمة الفضلاء :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

إن للتقوى والإيمان الصادق ومجاهدة النفس أثرًا في تنوير العقل وهداية القلب ، والتوفيق إلى إصابة الحق في الأقوال والسداد في الأعمال .

وقد قال ﷺ : ((**الصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء**)) [2] ، فانظر كم تحتاج في طلب العلم إلى أن تستزيد من النور والبرهان والضياء ليكونوا لك عونًا على الوصول على الهداية والسداد والتوفيق إلى الصواب .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : ((إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها)) .

٥ - ٢ : حسن إدارة الوقت وتنظيمه :

---

(1) الفقيه والمتفقه : ١ / ٤٦ ؛ وانظر أسس العلم وضوابطه في السنة ، ص ٢١ - ٣٩ .
(2) رواه مسلم ، برقم : ٢٢٣ ، وانظر شرحه في جامع العلوم والحكم : ٢ / ٥ - ٣١ .

من أبرز صفات طالب العلم حسن استغلاله لوقته ، ودقة تنظيمه لواجباته ، وإعطاؤه كل ذي حق نصيبه من الاهتمام والرعاية ، فوزّع وقته بين تلك الواجبات ، ولم ينسَ نصيب نفسه من بعض المباحات ترويحًا وتنشيطًا مع عدم الإغراق ؛ لأنه يعلم أن « العمر قصير ، والعلم كثير ، فينبغي ألا يضيع الأوقات والساعات ، ويغتنم الليالي والخلوات . قيل : عن يحيي بن معاذ الرازي : الليل طويل فلا تُقصِّره بمنامك ، والنهار مضيء فلا تكدِّره بآثامك »[1]. ولقد ضرب لنا السلف الصالح أروع الأمثلة على حسن استغلالهم لأوقاتهم وحرصهم عليها واستثمارهم لها .

- فهذا الخليل بن أحمد - رحمه الله - يقول : « أثقل الساعات عليَّ ساعة آكل فيها » ؛ شعورًا منه بأهمية الوقت وغيرة عليه .
- وهذا سليم الرازي الشافعي - رحمه الله - (ت ٤٤٧ هـ) يوصف بأنه يحاسب نفسه على الأوقات ، فلا يدع وقتًا يمضي بغير فائدة ، إما ينسخ ، أو يدرس أو يقرأ ... إلخ ، وكان يحرك شفتيه بذكر الله حين تجهيزه القلم للكتابة ؛ لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ .
- والخطيب البغدادي - رحمه الله - (ت ٤٦٢ هـ) ، يمشي وفي يده كتاب يطالعه[2].

ومن ذكرنا إنما كانوا يقتدون بمن سبقهم ممن قال فيهم الحسن البصري : « أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم » .

٥ - ٣ : الهمة والجدية :

وهما زمامان يرتقيان بالنفس نحو المعالي ، ويحجزانها عن الكسل والتواني ، ويسهلان عليها الصبر والمواظبة ، والجد والمثابرة ، قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : « فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة ، وتطيّب السير » ، وقال أبو حنيفة لأبي يوسف - رحمهما الله - يوصيه بملازمة الجد : « كنت بليدًا فأخرجتك المواظبة ، وإياك والكسل فإنه شؤم وآفة عظيمة » .

وانظر إلى همة وجدية حافظ المشرق الخطيب البغدادي الذي يذكر عن نفسه أنه

---

[1] تعليم المتعلم ، ص ١١٦ .
[2] انظر الترويح وأوقات الفراغ ، (١٢ - ١٣) ؛ للتوسع انظر تذكرة السامع ص ٧٠ ، وتعليم التعلم ص ٢٤ .

قرأ صحيح الإمام البخاري في ثلاثة مجالس على شيخة إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الضرير . قال الخطيب : ((فقرأت جميعه (يعني صحيح البخاري) في ثلاثة مجالس ، اثنان منها في ليلتين كنت أبتدئ بالقراءة وقت المغرب ، وأقطعها عند صلاة الفجر)) ، وأما المجلس الثالث فقال : ((وقرأت عليه من ضحوة النهار إلى المغرب ، ثم من المغرب إلى وقت طلوع الشمس ، ففرغت من الكتاب)) [1] .

فانظر إلى همته وعلو عزيمته وجَلَده وجديته .

بقــدر الكــدِّ تُكتســبُ المعــالي ومــن طلــب العــلا ســهر الليــالي

تــروم العِــزَّ ثم تنــام لــيلاً يغــوص البحــر مــن طلــب الــلآلي

وقد قيل : من طلب شيئًا وجدَّ وجد . ومن قرع الباب ولجَّ ولج ، وبقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى ؛ لهذا قال يحيي بن أبي كثير : ((لا يُستطاع العلم براحة الجسم)) [2][3] .

٥ - ٤ : التدرج :

من معالم هذا الدين وأجل خصائصه التدرج في التشريع والدعوة ، ولما كان طلب العلم والتعليم جزءًا من الدعوة كان التدرج فيهما مطلبًا شرعيًّا ومبدأ تربويًّا [4] ، والتدرج ذو شقين : شق يتعلق بالكم ، وشق يتعلق بالكيف .

أ - التدرج الكمي :

وهو أن يُعطَى المتعلم من العلم المقدار الملائم له ، ولا يكثر عليه الأستاذ ويحمّله ما لا يطيق ، فينوء به ، ويضيعه كله ؛ فهو يريد أن يعطيه الكثير دفعة واحدة ، فيضيع بذلك الكثير والقليل . والعلم متين كالدين ، فيجب أن يوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى .

- وقد أوصى الزهري تلميذه يونس بن زيد بهذا فقال : ((يا يونس ، لا تكابر العلم فإن العلم أودية ، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه ، ولكن خذه مع الأيام والليالي [أي : بالتدرج ، مراعيًا البرنامج الزمني] . ولا تأخذ العلم جملة ، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة ؛ ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي)) .

ب- التدرج الكيفي أو النوعي :

---

(1) تاريخ بغداد : ٦ / ٣١٤ .
(2) نزهة الفضلاء : ١ / ٥١٥ .
(3) انظر العلم بين يدي العالم والمتعلم (٢١ - ٢٢) ، تعليم المتعلم ص ٦٨ ، ٧٢ .
(4) كما في حديث معاذ ﵁ عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن .

وهو أن يبدأ الطالب بالجلي من العلم قبل الخفي ، والبسيط قبل المركب ، والخفيف قبل الثقيل ، والجزئي قبل الكلي ، وبالعملي قبل النظري .

وهكذا ، درج السلف في مؤلفاتهم التي صنّفت للتعليم ، فنرى الغزالي - رحمه الله - يؤلف في فقه الشافعية : الوجيز ، ثم الوسيط ، ثم المبسوط .

وابن قدامة - رحمة الله - يؤلف في فقه الحنابلة على التدرج التصاعدي : العمدة ، ثم المقنع ، ثم الكافي ، ثم المغني . فكانوا يكتبون لكل مرحلة في الطلب ما يليق بها)) (١) .

٥ - ٥ : احفظ العلم بالعمل :

العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع ، ولا خير في علم لم يورث صاحبه عملاً يقربه إلى ربه - عز وجل - فمن جمع الله له بين العلم والعمل فقد أُوتي خيرًا كثير . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) ؛ فتأمل كيف جمع بين الدعوة والعمل ، وأكد توافق المقال مع الحال . « وعلى هذا ، فالعلم لابد له من العمل ، وإلا فلا جدوى ولا فائدة من هذا العلم ، وبه قال سفيان - رحمه الله - : يهتف العلم بالعمل فإنه أجابه وإلا ارتحل » (٣) .

فلابد من رعاية العلم بالعمل به ، وبهذا أوصى الخطيب البغدادي - رحمه الله - طالب العلم فقال : « وليجعل حفظه للحديث حفظ رعاية لا حفظ رواية ، فإن رواة العلوم كثيرين ورعاتها قليل ، وربَّ حاضر كالغائب ، وعالم كالجاهل ، وحامل للحديث ليس معه منه شيءٌ إذا كان في اطِّراحه لحكمه بمنزلة الذاهب عن معرفته وعلمه . وينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق العوام باستعمال آثار رسول الله ﷺ ما أمكنه ، وتوظيف السُّنن على نفسه ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٤) » (٥) .

٥ - ٦ : تعلم الأدب مع العلم :

دأب السلف الصالح رضوان الله عليهم على تربية طلابهم على الأدب كما يعلمونهم العلم . قال ابن سيرين : « كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم » ،

---

(١) انظر الرسول والعلم ، ص ١٣٢- ١٣٤ ، بتصرف ؛ وانظر للتوسع : الطرق الجامعة ، ص ٥٨ ؛ والمشوق ، ص ٣٣ ؛ وتعليم المتعلم ، ص ٨٤ - ٨٩ ، فيه فوائد مهمة ؛ ومفتاح دار السعادة : ١ / ٦٦ .

(٢) سورة فصلت [٣٣] .
(٣) انظر أيضًا : العلاقة بين الفقه والدعوة ، ص ٧٠ ، والرسول والعلم ، ص ٧١ .
(٤) سورة الأحزاب [٢١] .
(٥) الجامع للخطيب : ١ / ٨١ ، نقلاً عن حلية طالب العلم ، (٥٣ - ٥٤) .

والهدى هي السيرة والهيئة والطريقة وحسن السمت . قال الحسن : ((إنه كان الرجل ليخرج في أدب واحد السنتين والسنين ...)) ، ((وعلى هذا كانت وصية حبيب بن الشهيد - وهو من الفقهاء - لابنه : (يا بني ، اصحب الفقهاء والعلماء ، وتعلم منهم ، وخذ من أدبهم ؛ فإنه أحبُّ إليّ من كثير من الحديث) .. وهذا ليس كلام الفقهاء وحدهم ، إنما كلام أهل الحديث ، فاسمع مخلد بن الحسن ، وهو ثقة روى عنه ابن المبارك ، وهو يقول لابن المبارك : (نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من حديث) .. نعم إلى كثير من الأدب أحوج ..))(١) .

فاخلط العلم بالأدب تنل أعلى الرتب ، وأُذكرك بما قاله أبو حامد الغزالي - رحمه الله - في صفات طالب العلم : ((يقصد الصدق ، ويتجنب الكذب ، ويُحدِّث بالمشهور ، ويروي عن الثقات ، ويترك المناكير ، ولا يذكر ما جرى بين السلف ، ويعرف الزمان ، ويتحفظ من الزلل والتصحيف واللحن والتحريف ، ويشكر النعمة ؛ إذ جُعل في درجة الرسول ﷺ ، ويلزم التواضع ، ويكون معظم ما يُحدِّث به نفسه ما ينتفع المسلمون به من فرائضهم وسننهم وآدابهم وفي معاني كتاب ربهم - عز وجل -)) .

٥ - ٧ : من المحبرة إلى المقبرة :

فطلب العلم ليس مرحلة تنتهي ، ولا شهادة يحصل عليها طالب ثم يكتفي ، بل كلما ازداد علمًا تاقت نفسه إلى المزيد ، ولهج لسانه بالدعاء : ((**رب زدني علمًا**)) . وقد ذكر الماوردي - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال [في قصة موسى مع الخضر] : ((لو كان أحد يكتفي من العلم لاكتفى منه موسى - عليه السلام - لمَّا قال : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾(٢) .

ومع ما بلغه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الفقه في كتاب الله والعلم بالكثير من أسراره وأحكامه فإنه كان يقول : ((والله الذي لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت ، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلُغُه الإبل لركبت إليه)) .

ولقد بلغ من حرص السلف على طلب العلم تعلمًا وتعليمًا أنهم كانوا يتذاكرون مسائله حتى في ساعات الاحتضار ، مما يدل على شدة النهمة وسمّو الهمة . قال إبراهيم بن الجراح التميمي تلميذ أبي يوسف [يعقوب الأنصاري صاحب أبي حنيفة] : ((أتيت أبا يوسف أعوده ، فوجدته مغمىً عليه ، فلما أفاق قال لي : يا إبراهيم أيهما أفضل في رمي الجمار ، أن يرميها الرجلُ راجلاً أم راكبًا ؟ فقلت راكبًا . فقال : أخطأت . قلت : ماشيًا . قال : أخطأت . قلت : قل فيها يرضى الله عنك .

---

(١) العلم بين يدي العالم والمتعلم ، (٥٠ ، ٥١ ، ٥٣) .
(٢) سورة الكهف [٦٦] .

قال : أما ما يوقف عنده للدعاء ، فالأفضل أن يرميه راجلاً ، وأما ما كان لا يوقف عنده ، فالأفضل أن يرميه راكبًا .
ثم قمت من عنده ، فما بلغت بابَ داره حتى سمعت الصُّراخ عليه ، وإذا هو قد مات - رحمه الله -)) [1] .

ولما سُئل الإمام أحمد : إلى متى تطلب العلم ؟ قال : ((من المحبرة إلى المقبرة)) .

٥ - ٨ : حسن الصحبة :

قال ﷺ : ((**المرء على دين خليله**)) [2] ، فإذا كان المرء مع قرين يهتم بالعلم ويحرص على تحصيله أعانه ذلك على طلبه وبلوغ مقصده ، وقد كان عمر بن الخطاب يتناوب مع أخ له من الأنصار الذهاب إلى النبي ﷺ حتى لا يفوتهما ما نزل من الوحي . قال عمر رضي الله عنه :
((كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أُمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتفاوت النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يومًا وأنزل يومًا ، فإذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك)) [3] .

وعليه ، فانظر من تخالل ، واعلم أن كل قرينٍ بصاحبه يقتدي ، والأخلاق متعدِّية ، والمجاورَة مؤثرة ، والطبيعة مُسْتَرِقة .

٥ - ٩ : المشورة :

وهي صفة بارزة لأهل العلم والدعوة اقتداءً بإمامهم ﷺ ، الذي أمره ربه فقال : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [4] ، وقد نعت الله عباده الصالحين بها فقال : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾ [5] . قال الحسن - رحمه الله - : ((والله ما استشار قومٌ قطُّ إلا هُدُوا لأفضل ما بحضرتهم ، ثم تلا : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾)) ، وقال آخر : ((الاستشارة عينُ الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه ، وما خاب ما استخار ، ولا ندم من استشار)) [6] .

فحريٌ بطالب العلم أن يستشير أستاذه وشيخه فيما يقرأ وكيف يحفظ ، وما

---

(1) المشوق ، ص ٢٨ ، نقلاً عن الطبقات السنية : ١ / ٧٦ .
(2) قال في المشكاة (٣ / ١٣٩٧) : رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن غريب ، وأبو داود والبيهقي وقال النووي إسناده صحيح ، وحسّن إسناده الألباني في المشكاة .
(3) رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب التناوب في العلم ، برقم : ٨٩ .
(4) سورة آل عمران [١٥٩] .
(5) سورة الشورى [٣٨] .
(6) انظر هذه الأقوال في موسوعة نضرة النعيم : ٦ / ٢٤٣٨ .

السبيل إلى العلم بأفضل وسيلة وأفضل أسلوب ؟ ويشترط فيمن يستشار أن يكون ذا عقل وتجربة ودين ، سليم الفكر من همٍّ قاطع ، وغم شاغل .

٥ - ١٠ : التتلمذ على المشايخ :

الطريقة المثلي لطلب العلم أن يتتلمذ الطالب على يدي المشايخ الذين جمعوا بين العلم والعمل ، والتقوى والورع ، وفي ذلك فوائد منها :

- الاقتداء بالسلف الصالح - رضوان الله عليهم - .
- اختصار الوقت في حل الكثير من المشكلات التي تعترضه كمثل : كيفية التعامل مع مصنفات الفن الذي يريد أن يتفقه فيه .
- التأسي بأخلاق الشيخ ؛ ولذلك لابد من حسن اختياره . قال ابن وهب : ((ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه)) [1] .

٦ - أمور تعين على الارتقاء :

٦ - ١ : ستة أمور لابد منها :

قال بعض الأوائل : ((لا يتم العلم إلا بستةِ أشياء : ذهن ثاقب ، وزمان طويل ، وكفاية ، وعملٌ كثير ، ومعلِّم حاذق ، وشهوة ، وكلما نقص من هذه الستة شيء ، نقص بمقداره من العلم)) [2] .

وقد نظم بعضها الشافعي وأضاف إليها فقال :

أخي لن تنال العلم إلا بستةٍ ... سأُنبيك عن تفصيلها ببيانِ

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغةٌ ... وصحبة أُستاذٍ وطولُ زمان

- والكفاية : يعني بها كفاية مؤونة المعاش ؛ لأنها همٌّ شاغل .
- والشهوة : حب العلم والشوق إليه ؛ لأن النفس إذا اشتهت الشيء كانت أسمح في طلبه وأنشط لالتماسه .
- وعمل كثير : أي الجد في التحصيل ، والعزيمة القوية ، والهمة العالية في طلبه وحفظه .
- ومعلم حاذق : الشيخ الذي يؤخذ عنه العلم ، فلابد أن يكون حاذقًا بطرق التعليم ، عالمًا بتقديم المبادئ ؛ لأن المقدَّم إذا أُخِّر والمؤخر إذا قُدِّم بطل

---

(١) نزهة الفضلاء : ٢ / ٦٢٥ .
(٢) الحث على طلب العلم ، ٥٤ .

نظام التعليم ، وضلت مقدِّمات الأمور ، وعلى قدر الأساس يكون البناء [1] .

٦ ـ ٢ : ليكن علمك في صدرك :

للحفظ أهمية بالغة في طلب العلم ، حتى قال بعضهم : العلم هو المحفوظ ، واستحسن العسكري - رحمه الله - قول القائل :

وليس عِلمًا ما وَعَى القِمَطْرُ ما العلمُ إلا ما وعاه الصدر [2]

ولَحفظُ متنٍ قصيرٍ في فن أنفعُ من قراءة كتاب طويل في الفن نفسه ؛ ولهذا قال الخليل بن أحمد - رحمه الله - : ((الاحتفاظ بما في صدرك أولى من دَرْس ما في كتابك)) .

استودَع العلمَ قرطاسًا مضيعُهُ فبئس مستودَعُ العِلمِ القراطيسُ [3]

وإليك بعض أسباب زيادة الحفظ :

أ – تعويد النفس عليه :

قال الزهري - رحمه الله - : إن الرجل ليطلب وقلبُه شِعبٌ من الشعاب ، ثم لا يلبث أن يصير واديًا ، لا يوضع فيه شيءٌ إلا الْتهمه ، أي : يريد أن أول الحفظ شديد يشق على الإنسان ثم إذا اعتاد سهل [4] .

ب – التكرار مع رفع الصوت :

قال الشعبي - رحمه الله - : وينبغي للدارس أن يرفع صوته في درسِه حتى يُسمِعَ نفسه ، فإن ما سَمِعتْه الأُذن رسَخَ في القلب ، وبهذا أوصى أبو حامد طلابه ، فقال : إذا درستم فارفعوا أصواتكم ، فإنه أثبت للحفظ ، وأذهب للنوم ، وكان يقول : القراءةُ الخفية للفهم ، والرفيعة للحفظ والفهم [5] .

ج – اختيار الوقت والمكان المناسبين :

وقد قيل : ((أجود أوقات الحفظ : الأسحار ، ثم نصف النهار ، ثم الغداة ، وحفظ

---

(1) انظر المرجع السابق (٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧) .
(2) القِمطر : ما تصان فيه الكتب .
(3) الحث على طلب العلم ، ص ٣٠ - ٧٣ .
(4) انظر المرجع السابق ، ص ٧٤ .
(5) المرجع السابق : ص ٧٦ .

الليل أحسن من حفظ النهار ، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع »[1] . وأما المكان فيكون بعيدًا من الملهيات والمشوشات .

د – **فهم الكلام الذي يراد حفظه** : لأن الكلام المفهوم أسرع في الحفظ وأسهل من الكلام المبهم .

ه – **كتابة ما يُراد حفظه** :

و – **الحرص على حفظ المنظوم** : لأنه أسهل في الكلام المنثور أو المرسل .

ز – **وقبل هذا وبعده تقوى الله وصدق النية وقوة العزيمة وكثرة الدعاء**[2] .

٦ - ٣ : « ما تقول » :

كانوا يسمّون طالب العلم في الزمان الأول : « ما تقول »[3] ؛ لكثرة ما يردد على مشايخه هذه الكلمة .. « ما تقول في هذه المسألة ؟ » ، وهي سُنَّة سلفية أبان عنها ابن عباس لمن سأله : بم أدركت العلم ؟ قال : « بلسان سؤول وقلب عقول » . وقد جعلها ابن القيم - رحمه الله - المرتبة الأولى من مراتب العلم الست ، فقال : « أولها : حسن السؤال ، والثانية : حسن الإنصات والاستماع ، والثالثة : حسن الفهم ، والرابعة : الحفظ ، والخامسة : التعليم ، والسادسة وهي ثمرته : العمل به ومراعاة حدوده »[4] .

٦ - ٤ : خذ ما صفا ودع ما كدر :

لا يخلو كتاب من خطأ إلا كتاب الله - عز وجل - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا** ﴾[5] ، وعليه فوجود بعض الأخطاء في كتاب - ولو كانت عقدية - لا يحملنا على الإعراض عنه بالكلية ، بل نأخذ ما صفا ، وندع ما كدر على قاعدة « الحكمة ضالة المؤمن ، أنَّى وجدها فهو أحق بها » ، وقد قيل : « خذ ما صفا لك ، ودع ما كدر »[6] ، ولو أن كلَّ عالم أو كتاب وجدنا فيه خطأ تركناه لما بقي لنا شيء .

٦ - ٥ : التخصص :

إن من الأسس التربوية في السنة النبوية مراعاة الفروق الفردية ، فلكل إنسان

---

(١) انظر الحث على حفظ العلم ، ص ٣٧ .
(٢) انظر أيضًا تعليم المتعلم ، (٨٣ - ٨٦) .
(٣) المرجع السابق ، ص ٩١ .
(٤) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٦٩ ، وغذاء الألباب ، ص ٣٢ .
(٥) سورة النساء [٨٢] .
(٦) تعليم المتعلم ، ص ٩٠ .

قدراته ومؤهلاته التي تميزه عن غيره فترفعه أو تخفضه ، وقد أخذ أئمة الإسلام بهذا المبدأ ، وأشاروا إلى أهمية التخصص بما يتوافق مع القدرات العقلية والمواهب الفكرية ؛ فهذا البخاري - على سبيل المثال - قد بوّب في صحيحة بابًا فقال : ((باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا)) ، كما ينبغي لطالب العلم أن يعكف على فن معين فيتخصص فيه حتى يبرع ويحيط بجزئياته ، وهذا التخصص منهج نبوي - كما أسلفنا - سلكه السلف الصالح في رحلة الطلب ، فنجد منهم الفقهاء والمحدثين والمؤرخين ونحوهم ، وكذلك كان الأمر في حياته ﷺ ؛ إذ قال : ((**استقرؤوا القرآن من أربعة : عبد الله – أي ابن مسعود – وسالم مولى أبي حذيفة ، وأُبيِّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل**)) [١] ، وقوله ﷺ : ((**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقرؤهم لكتاب الله أُبيّ ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**)) [٢] .

وعندما خطب عمر بالجابية خطبته المشهورة ، كان مما قال فيها : ((من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني خازنًا وقاسمًا)) [٣][٤] . وليعلم أهل الدعوة أن من تكلم خارج حدود تخصصه ينزلق في مزالق عظيمة ، ويصدر منه الطامات المريعة التي تسيء إليه وإلى دعوته . وقد قيل : ((من أراد أن يعلم كل شيءٍ ، فينبغي لأهله أن يُداووه ، فإن ذلك إنما تُصُوِّر له لشيء اعتراه)) [٥] .

٦ - ٦ : ما كُتِبَ قرَّ :

من الأمور المهمة في الطلب رصد الفوائد التي تمرُّ بك عند قراءتك لكتاب ، وتنظيمها ، وحسن تصنيفها في جدول خاص بها ، مع وضع عنوان مناسب لها ، وذكر الصفحة والمرجع ؛ وهو ما يسهل عليك الرجوع إليها عند الحاجة بسرعة ، ويمكن أن تجمع الفوائد التي تقع تحت موضوع واحد في مكان واحد في هذا السجل ،

---

(١) رواه البخاري ، كتاب فضل الصحابة ، باب مناقب سالم مولى أبي حذيفة ﷺ ، برقم : ٣٧٥٨ . ورواه مسلم ، فضائل القرآن .
(٢) أخرجه أحمد : ٣ / ١٨٤ ؛ والترمذي : ٤ / ٣٤٤ ، والنسائي ، وابن ماجة في المقدمة رقم : ١٥٥ ، وهو في صحيح الجامع برقم : ٨٩٥ وصححه .
(٣) سنن البيهقي : ٦ / ٢١١ ، مجمع الزوائد ١ / ١٣٥ .
(٤) انظر للتوسع أسس العلم وضوابطه ، ٤١ - ٤٩ .
(٥) الحث على طلب العلم ، للعسكري ، ٧٣ .

ومع مرور الزمن سيجتمع في هذا السجل فوائد كثيرة في موضوعات مختلفة ؛ وهو ما يُمكنك من عرض تلك الموضوعات بسهولة نظرًا لوفرة المادة المجموعة من مصادر مختلفة ، وقد قيل : ((ما حفظ فَرَّ وما كتب قرَّ)) [1] .

٦ - ٧ : كيف تقرأ كتابًا :

لاستيعاب أكبر لمباحث أيِّ كتابٍ تقرؤه استعن بالخطوات التالية :

ما قبل القراءة [2] :

١- اختيار الموضوع الذي تريد أن تقرأ فيه .

٢- انتقاء الكتاب الذي يبحث في الموضوع .

- مستوى الشخص : ينبغي أن تختار الكتاب الذي يتناسب مع مستواك العلمي ، وهذا يكون بالاستشارة والبحث .
- من هو المؤلف ؟ فكرة مبدئية عن مؤلف الكتاب ؛ لأن الكاتب يتأثر بما يحمله من تصورات ويعانيه من ظروف وإرهاق .
- أسلوب المؤلف : من المعاصرين أم من المتقدمين ؟
- محقق ومخرج الأحاديث .
- الطبعة هل هي الأخيرة ؟ وهل هناك دار نشر عنيت بالكتاب أيضًا ؟

٣- اختيار المكان والزمان المناسبين .

القراءة :

ويمكنك تقسيمها إلى المراحل التالية :

١ – **مرحلة التعريف** :

- اسم الكتاب .
- المقدمة : قراءة المقدمة والاستفادة مما أورده المؤلف فيها من تنبيهات حول سبب تأليفه ، وطريقته في التأليف ، ونحو ذلك من الفوائد .
- الفهرس : الاطلاع على المباحث الأساسية للكتاب .

٢ – **مرحلة القراءة الأولية** : القراءة السريعة المجملة للإلمام بمنهج المؤلف وطريقة عرضه لما يريد أن يوصله للقارئ .

---

(1) انظر المجموع ، للإمام النووي : ١ / ٣٩ .
(2) سيأتي تفصيل تلك الخطوات في كتاب القائد - إن شاء الله - .

٣ – مرحلة القراءة التفصيلية : ويراعى فيها :
- التركيز .
- النقد .
- التنبه للعبارات المهمة .
- التلخيص .
- المراجعة الجزئية : وذلك بالرجوع لكل مبحث بعد الانتهاء من قراءته ومراجعته مراجعة سريعة .

٤ – مرحلة المراجعة النهائية : وذلك عن طريق المرور بمباحث الفهرس ، وتذكر ما مرَّ بك من أفكار من خلال قراءتك لعناوين المباحث .

ما بعد القراءة :

وهي مرحلة الإفادة والمراجعة ، وهي زكاة العلم ، وكلما بذلته للناس ونشرت علمك ازداد حفظك له وتذكرك لمباحثه ؛ ولهذا قال الألبيري - رحمه الله - عن العلم :

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفًّا شددْ

٦ - ٨ : تنبيهات على كيفية الطلب :
أمامك أمور لابد من مراعاتها في كلِّ فن تطلبه :
١ - حفظ مختصر فيه .
٢ - ضبطه على شيخ متقن .
٣ - عدم الاشتغال بالمطوّلات وتفاريق المصنفات قبل الضبط والإتقان لأصله .
٤ - لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب ، فهذا من باب الضجر .
٥ - اقتناص الفوائد والضوابط العلمية .
٦ - جمع النفس للطلب والترقي فيه ، والاهتمام والتحرّق للتحصيل ، والبلوغ إلى ما فوقه ؛ حتى تفيض إلى المطولات بسابلة موثقة [١] .

٧ - محاذير ومعوقات :

إليك بعض محاذير الطريق وشيئًا من منزلقاته ، وقانا الله وإياك شرَّها :

٧ - ١ : احذر أن تكون من قطاع الطرق :

---
[١] حلية طالب العلم ، ص ٢٦ .

قال ابن القيم - رحمه الله - : ((علماء السوء جاسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعون إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس هلمّوا ، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له ، فهم في الصورة أدلاء ، وفي الحقيقة قطاع طرق))[١] ، وجعل - رحمه الله - من أسباب حرمان العلم عدم العمل به فقال : ((حرمان العلم من هذه الوجوه الستة : أحدها ترك السؤال ، والثاني : سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع ، والثالث : سوء الفهم ، والرابع : عدم الحفظ ، والخامس : عدم نشره وتعليمه فإن من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاء من جنس عمله ، وهذا أمر يشهد به الحس والوجود ، والسادس : عدم العمل به فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه ، فإذا أهمل العمل به نسيه))[٢] .

وسيأتي في مبحث مستقل ذكر آثار السلف في التحذير من ترك العمل بالعلم .

٧ - ٢ : التجري دون تحري :

المسارعة للفتوى دون تريث ، وإصدار الأحكام دون تثبت منزلق يؤدي إلى النار ، وقد قال ﷺ : ((**أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار**))[٣] .

والتحليل والتحريم مركب صعب ، كان السلف يتدافعون ركوبه ، ويتهيبون صعوده ، وكانوا له أهلاً ؛ ولكن حملهم على ذلك خوفهم من الله ، وخشيتهم له ، ووقوفهم عند قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾[٤] ؛ فهذه المحرمات الأربع تحريمها لذاتها تحريمًا أبديًّا في جميع الشرائع والملل ، ومراتب الشدة فيها في الآية الكريمة على سبيل التعلي فقال الله سبحانه :

﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ . هذا أولها ، ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم فقال : ﴿ **وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ ، ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم فقال : ﴿ **وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ ، ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم فقال : ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ ؛ إذ القول على الله تعالى بلا علم هو أصل الشرك والكفر والبدع المضلة والفتن الجائرة))[٥] .

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى - رحمه الله - : ((أدركت عشرين ومائة من

---

(١) الفوائد ، ص ٨٠ .
(٢) مفتاح دار السعادة : ١ / ١٧٢ .
(٣) انظر سنن الدارمي ، كتاب المقدمة .
(٤) سورة الأعراف [٣٣] .
(٥) التعالم ، ص ١١٢ .

أصحاب رسول الله ﷺ فما كان منهم محدث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولا مفتٍ إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا)) .

وقال ابن وهب : ((سمعت مالكًا يقول : لم يكن من أمر الناس ولا مَنْ مضى من سلفنا ولا أدركت أحدًا اقتدى به يقول في شيء : هذا حلال ، وهذا حرام ، وما كانوا يجترئون على ذلك ، وإنما كانوا يقولون : نَكْرهُ كذا ، ونرى هذا حسنًا)) ، وفي رواية : ((أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (1)، الحلال ما أحله الله ورسوله ﷺ ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ﷺ (2). قال سحنون - رحمه الله - : ((أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علمًا)) (نزهة الفضلاء : ٢ / ٧٨١).

٧ - ٣ : الجهل بعلم القلوب :

قال ابن قدامة - رحمه الله - : ((فأما علم المعاملة وهو علم أحوال القلب ، كالخوف والرجاء ... وغير ذلك ؛ فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء ، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم : كسفيان الثوري ، وأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد . وإنما انحطت رتبة المسلمين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه . وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظهار واللعان والسبق والرمي ، ويفرع التفريعات التي تمضي الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها ، ولا يتكلم في الإخلاص ، ولا يحذر من الرياء ، وهذا عليه فرض عين ؛ لأن إهماله هلاكه ، والأول فرض كفاية)) (3) .

وأمثلة هذا الخلل في واقعنا كبيرة ؛ فهناك من يخوض في علم العقائد ، فيحفظ أسماء الفرق المبتدعة القائم منها والبائد ، ويسرد شبهاتها وبدعها ومخالفاتها ، ويحلُّ ألفاظ علم الكلام ، ويشرح غوامضه ؛ ولكنك لا تجد أثر العقيدة الصافية النقية من كدورات أهل الأهواء ، تبدو على ملامحه أو تظهر في واقعه ، حتى إذا تكلم ظننت أنه لا يثبت صفة السمع ، وإذا خلا ظننت أنه لا يؤمن بصفة المعية ؛ فأين ثمرة علم العقيدة في قلبك ؟ وأين أثرها على عملك ؟

عن مطر الوراق قال : ((سألت الحسن البصري عن مسألة فقال فيها .. فقلت : يا أبا سعيد ، يأبى عليك الفقهاء . فقال الحسن : ثكلتك أمك يا مطر ، وهل رأيت بعينك فقيهًا قط ؟ وقال : تدري ما الفقيه ؟ الفقيه الورع الزاهد المقيم على سنّة رسول

(1) سورة يونس [٥٩] .
(2) انظر للتوسع إعلام الموقعين : ٢ / ١٨٤ ، جامع بيان العلم وفضله (٢ / ١٥٣ ، ١٦٣ وما بعدها) ، الطريق إلى نصف العلم ، ٦٠ - ٧١ .
(3) مختصر منهاج القاصدين ، ٢٠ .

الله ﷺ ، الذي لا يسخر بمن أسفل منه ، ولا يهزأ بمن فوقه ، ولا يأخذ على علمٍ عَلَّمَه الله إياه حطامًا ›› [1] . وعنه - رحمه الله - قال : ‹‹ كان الرجل إذا طلب بابًا من العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وبصره ولسانه ويده وزهده وبدنه ، وإن كان الرجل ليطلب الباب من العلم فلهو خير له من الدنيا وما فيها ›› [2] .

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله - لأهل الحلقة : ‹‹ تفقهوا مع فقهكم هذا بمذاهب أهل الإخلاص ›› [3] .

إنما العلم ما زادك من الله خشية ؛ فأقامك على طاعته ، وصرفك عن معصيته .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ‹‹ كفى بخشية الله علمًا ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً ›› .

٧ - ٤ : المراء والجدل :

كلاهما مما يقسي القلب ويبدد الوقت ، ويجلب الشحناء ويسبب البغضاء ، فإذا بالقلوب متنافرة متشاحنة ، هذا مع صدِّهما للمرء عن العمل ؛ ولهذا قيل : ‹‹ إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبدٍ شرًّا أغلق عليه باب العمل وفتح له باب الجدل ›› [4] ، فكل مسألة أو علم لا ينبني عليه عمل ، وليس وراءه فائدة ، فإن العاقل لا يلتفت إليه ولا يعبأ به . وقال الإمام مالك - رحمه الله - : ‹‹ الجدال في الدين يُنشيء المراء ، ويذهب بنور العلم في القلب ويقسِّي ، ويُورث الضِّغن ›› [5] .

٧ - ٥ : الحسد :

آفة من آفات العلماء ، وداء يدبُّ في قلوب القرناء - إلا من رحمه الله فعصمه - حتى قال ابن عباس : ‹‹ استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض ، فو الذي نفسي بيده لهم أشد تغايرًا من التيوس في زربها ››[6] . قال أحمد - رحمه الله - لمن حوله : ‹‹ اعلموا - رحمكم الله تعالى - أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئًا من العلم ، وحُرِمَهُ قرناؤه وأشكاله حسدوه ، فرموه بما ليس فيه ، وبئست الخصلة في أهل العلم ›› .

وبناءً على هذا ، فإنَّ طعن الأقران بعضهم ببعض يطوي ولا يروي ، لا سيما

---

(1) رواه الدارمي في سننه (المقدمة - باب : من قال العلم الخشية : ١ / ٧٦) .
(2) رواه أحمد في الزهد ، ٣٧٠ - ٣٧١ .
(3) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقة (٢ / ٨٩) . انظر مزيدًا في هذه الأقوال في كتاب العلاقة بين الفقه والدعوة ، ص ٦٦ - ٧٣ .
(4) الحلية : ٨ / ٣٦١ ، وانظر نزهة الفضلاء : ١ / ٥٧١ ، فيها قول الأوزعي - رحمه الله - : ((إذا أراد الله بقوم شرًّا فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل)) .
(5) نزهة الفضلاء : ٢ / ٦٢٣ .
(6) جامع بيان العلم : ٢ / ١٥٠ .

فيمن اشتهرت عدالته ، وحسنت سيرته ، وكان له في الإسلام أثر وفضل وقدم صدق . قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : ((لا يكون الرجل عالمًا حتى لا يحسد من فوقه ، ولا يحقر من دونه ، ولا يبتغي بعلمه ثمنًا)) [1] .

٧ - ٦ : تتبع الشذوذات والرخص :

المعقود في اعتقاد أهل السنة والجماعة النهي عن حمل الشاذ . قال الطحاوي - رحمه الله تعالى - في سياقته له : ((ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة)) ، وقال : ((ونرى الجماعة حقًّا وصوابًا ، والفرقة زيغًا وعذابًا)) .

وعليه : فإن الإشاعة لغثاثة الرخص ، والتجسيد للآراء الشاذة ، وتربية مولودهما من ((التلفيق ، بمعنى جمع الرخص والشواذ من المذاهب ، منابذةً للاعتقاد السليم ، بل هي من صنع صنائع العداء ، ومحتضنها يكون بأسًا على المسلمين وبلاء)) [2] .

وقال الإمام الذهبي - رحمه الله - : ((ومن تتبع رُخَصَ المذاهب ، وزلات المجتهدين ، فقد رق دينه)) [3] .

وقال إبراهيم بن شيبان : ((من أراد أن يتعطل ويتبطل فليلزم الرخص)) [4] .

٧ - ٧ : تتبع الزلات :

فمن أخطر المزالق تتبع زلات الأئمة الأعلام والفرح بها ، وطلب السمعة والشهرة بالرد عليها ، وتضليلهم والحط من شأنهم ، أو الدعوة إلى العزوف عن كتبهم . قال الإمام الذهبي في ترجمة الإمام محمد بن نصر - رحمه الله - : ((ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له ، قمنا عليه ، وبدّعناه وهجرناه ، لما سلم معنا لا ابن نصر ، ولا ابن منده ، ولا من هو أكبر منهما ، والله هو هادي الخلق إلى الحق ، وهو أرحم الراحمين ، فنعوذ بالله من الهوى والفضاضة)) .

ولما تأول ابن حزيمة حديث الصورة ، قال الإمام الذهبي : ((وكتابه في التوحيد مجلد كبير ، وقد تأول في ذلك حديث الصورة ، فليعذر من تأوّل بعض الصفات . وأما السلف فما خاضوا في التأويل ، بل آمنوا وكفوا ، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله . ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده ، مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق ، أهدرناه

---

(١) رواه الدارمي ، في المقدمة : ١ / ٧٦ .
(٢) التعالم ، ٨٩ .
(٣) السير : ٨ / ٨١ .
(٤) السير : ١٥ / ١٩٣ .

وبدّعناه ، لقلَّ مَنْ يسلم من الأئمة معنا . رحم الله الجميع بمنه وكرمه)) [١] .]
وحديث الصورة في صحيح الإمام البخاري : ((**خلق الله آدم على صورته**)) (الفتح : ٥ / ١٣٣)] .

وقال عن الكرخي - رحمه الله - : ((الشيخ الإمام الزاهد ... ، وكان رأسًا في الاعتزال ، الله يسامحه)) .

وقال - رحمه الله - في ترجمة الإمام القفّال الشاشي ، وقد انتقد لنصرته لمذهب المعتزلة :
((قلت : الكمال عزيز ، وإنما يمدح العالم بكثرة ما له من الفضائل ، فلا تُدفنُ المحاسن لورطة ، ولعله رجع عنها ، وقد يُغفر له باستفراغه الوُسْعَ في طلب الحق ، ولا قوة إلا بالله)) [٢] .

٧ - ٨ : الاستغراق في المباحات :

كثرة إتيان المباحات تقعد المرء عن المعالي ، وتحبب إليه الكسل والتواني ؛ ((ولهذا ذكر ابن القيم أن الشبع المفرط يقضي إلى فساد القلب وكسل الجوارح عن الطاعات وتحركها إلى الشهوات ، ولم يُر أحد من الأولياء والأئمة الأعلام وصف أو يوصف بكثرة الأكل ، ولا حمد به ، وإنما يُحمد بكثرة الأكل الدواب التي لا تعقل ، بل هي مُرصدة للعمل ، ولو لم يكن في آفات كثرة الطعام والشراب إلا الحاجة إلى كثرة دخول الخلاء لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يصون نفسه عنه)) [٣] .

- قال عقبة الراسبي : ((دخلت على الحسن البصري وهو يتغدى فقال : هلم ، فقلت : أكلت حتى لا أستطيع ، فقال : سبحان الله ! أويأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟ !)) .
- قال ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم : ((من أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملال ، أكل القدْر اليسير من الحلال)) .
- قال الشافعي : ((ما شبعت منذ ست عشرة سنة)) .

قال ابن جماعة : ((على طالب العلم أن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثماني ساعات ، وهو ثلثي الزمان)) [٤] .

٧ – ٩ : التفريط في العبادة :

---

(١) ينظر لمزيد من الأمثلة الفضلاء (الفهرس) ، التعالم وأثره على الفكر والكتاب ، ٧٩ و ما بعدها .
(٢) نزهة الفضلاء : ٢ / ١١٧٨ ، عن السير : ١٦ / ٢٨٣ - ٢٨٥ .
(٣) آداب المتعلمين ، ص ١٤١ ، بتصرف .
(٤) المرجع السابق ، ١٤٣ .

لا ينبغي لطالب علم أن يخلي يومه وليلته من ورد وأذكار ، وتسبيحات واستغفار يجلو بها صدأ قلبه ، ويزكي بها نفسه ، وكم أحدثت النزعة العلمية البحتة في بعض القلوب من قسوة وجلافة ، ومن خلق وصلافة ، بل ورقة في الديانة ووهن في الاستفادة . قال الإمام الذهبي - رحمه الله - : ((والعالم إذا عَرِيَ التصوف والتألُّه ، فهو فارغ ، كما أن الصوفي إذا عَرِيَ من علم السنَّة ، زلَّ عن سواء السبيل)) ، والتصوف والتأله الذي يعنيه الذهبي - رحمه الله - هو : ((ما جاء عن أصحاب محمد رسول الله ﷺ من الرضا عن الله ، ولزوم تقوى الله ، والجهاد في سبيل الله ، والتأدب بآداب الشريعة من التلاوة بترتيل وتدبرٍ ، والقيام بخشية وخشوع ، وصوم وقت ، وإفطار وقت ، وبذل المعروف ، وكثرة الإيثار ، وتعليم العوام ، والتواضع للمؤمنين ، والتَعزُّزِ على الكافرين ...)) [١] .

٧ - ١٠ : ومحاذير أخرى :

- الحذر من التأويلات الباطلة المخالفة لمذاهب السلف .
- الغلو في المذهبية (بحجة توقير الأئمة) أو اللامذهبية بحجة اتباع الدليل ؛ إذ ليست معرفة صحة الدليل هي الفيصل الوحيد في الترجيح ، كما أنها ليست كل ما يحتاجه المرء لاستنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية كما هو واقع بعض طلبة العلم اليوم [٢] .
- الحذر من ((المزاجية)) في القراءة .. كل يوم لك كتاب تقرأ فيه صفحة أو صفحتين ثم تمضي لغيره .
- الحذر من ((الفوضوية)) في ترتيب الكتب المقروءة . فابدأ بالأسهل وليس بالأضخم الذي ترائي به وتفخر .

---

(١) نزهة الفضلاء : ٢ / ١١٢٩ .

(٢) إذ يستدلون بقول الشافعي : ((إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي)) ، فيجيزون لأنفسهم من خلال حديث صحيح استنباط الأحكام وهم غير مؤهلين لذلك ، ويتجرءون على تخطئه الأئمة بحجة ((إذا صح الحديث فهو مذهبي)) ، وما علموا أن الإمام مالك والليث بن سعد وقد ورد أيضًا عن سفيان بن عينية أنه قال : ((الحديث مضلة إلا للفقهاء)) ، يريد أن غيرهم قد يحمل شيئًا على ظاهره ، وله تأويل من حديث غيره ، أو دليل يخفى عليه ، أو متروك أوجب تركه غير شيء مما لا يقوم به إلا من استبحر ، وليعلم أن لكلمة الشافعي تأويلاً ، فقد قال الإمام النووي - رحمه الله - : ((هذا الذي قاله الشافعي ليس معناه أن كل أحد رأى حديثًا صحيحًا قال : هذا مذهب الشافعي ، وعمل بظاهره ، وإنما هذا فيمن له رتبة الاجتهاد في المذهب ، وشرطه أن يغلب على ظنه أن الشافعي -رحمه الله- لم يعقب على هذا الحديث ، أو لم يعلم صحته ، وهذا إنما يكون بعد مطالعة كتب الشافعي كلها ،= = ونحوه من كتب الأخذ عنه وما أشبهها ، وهذا شرط صعب قل من يتصف به ، وإنما اشترطوا ما ذكرنا ؛ لأن الشافعي - رحمه الله - ترك العمل بظاهر أحاديث كثيرة رآها وعلمها ، لكن قام الدليل عنده على طعن فيها أو نسخها أو تخصيصها أو تأويلها ، أو نحو ذلك)) . قال الشيخ ابن الصلاح : ((ليس العمل بظاهر ما قاله الشافعي بالهين ؛ فليس كل فقيه يسوغ له أن يستقل بالعمل بما يراه حجة من الحديث ...)) [انظر الطريق إلى نصف العلم ، ص ١١٣ - ١١٤] .

- الحذر من القعود عن تبليغ ما علمته ، ((فإن المتخلف عن أداء واجب وظيفته هذه ، يحمل من الإثم بقدر تخلفه))[١]، وقد قال رسول الله ﷺ : ((**بلِّغوا عني ولو آية**))[٢].

- الحذر من آفات القلوب ، وخاصة :

● الرياء والإعجاب .

● السخرية بالآخرين والتكبر عليهم .

- قال ابن مسعود : ((لو سَخِرتُ من كلبٍ لخشيتُ أن أُحوَّلَ كلبًا)) .

٨ - من عجائب الطلاب :

٨ - ١ : الموقف من شذوذات الآراء والرخص :

قال إسماعيل القاضي - رحمه الله - [وقد دخل على المعتضد العباسي] :

((ودخلت مرة فدفع إليّ كتابًا ، فنظرت فيه فإذا قد جمع له فيه الرخص من زلل العلماء ، فقلت : مصنف هذا زنديق . فقال : ألم تصح هذه الأحاديث ؟ قلت : بلى ، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة ، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء ، وما من عالم إلا وله زلة ، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه . فأمر بالكتاب فأحرق))[٣] .

٨ - ٢ : الأصول أولاً والاولويات ابتداءً :

عن ابن جريج (ت : ١٥٠هـ) الإمام العلامة الحافظ - رحمه الله - قال : ((أتيت عطاء [يعني شيخه ابن أبي رباح] وأنا أريد هذا الشأن (طلب العلم) ، وعنده عبد الله بن عبيد ابن عمير ، فقال لي ابن عمير : قرأت القرآن ؟ قلت : لا . قال : فاذهب فاقرأه ثم اطلب العلم ...))[٤] . قلت : وبعض الطلاب يبدأ بحفظ بعض مسائل الخلاف ؛ لكي يشغل وقته بالحديث عنها ، وهو بعدُ لم يحفظ جزء الثلاثين ! ! .

٨ - ٣ : حب القراءة وأهميتها في الطلب :

قال ابن الجوزي - رحمه الله - : ((وإني أخبر عن حالي : ما أشبع من مطالعة الكتب ، ولو قلت : إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر ، وأنا بعد في الطلب)) ، ثم يقول لكل طالب علم : ((ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه ، وتحادث سطور كتابك

---

(١) التعالم ، ص ٢٥ .
(٢) رواه البخاري .
(٣) السير : ١٣ / ٤٦٥ .
(٤) السير : ٦ / ٣٢٦ ، نزهة الفضلاء : ١ / ٥٤٢ .

، وتجري في حلبات فكرك » (١) .

٨ ـ ٤ : الاهتمام بالوقت :

نقل ابنُ رجب من « الفنون » لابن عقيل أنه قال عن نفسه : « أنا أقصِّر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتى أختار سفَّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبز ؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ؛ توفّرًا على مطالعةٍ ، أو تسطير فائدة لم أُدركها فيه » (٢) .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في روضة المحبين : « وحدثني أخو شيخنا (يعني أحمد بن تيمية) عبد الرحمن ابن تيمية ، عن أبيه (عبد الحليم) قال : كان الجد (أبو البركات) إذا دخل الخلاء يقول لي : اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع » (٣) .

٨ ـ ٥ : الترفع عن الاستغراق في المباحات :

قال ابن الجهم : « إذا غشيني النعاس في غير وقت نوم ـ وبئس الشيءُ النوم الفاضلُ عن الحاجة ـ قال : فإذا اعتراني ذلك تناولت كتابًا من كتب الحِكَمِ ، فأجد اهتزازي للفوائد والأريحية التي تعتريني عند الظَّفر ببعض الحاجة ، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعز التبيّن أشدَّ إيقاظًا من نهيق الحمير وهدَّة الهدم » .

طرفة : ذكر الجاحظ في البيان والتبيين قال : « قال رجل لخالد بن صفوان (أحد بلغاء العرب وفصحائها) : ما لي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار ، وتتدارسون الآثار ، وتتناشدون الأشعار ، وقع عليَّ النوم ؟ قال : لأنك حمارٌ في مسْلاخ إنسان » (٤) .

٨ ـ ٦ : عذر غير مقبول :

يعتذر بعض الدعاة في قلة قراءتهم بكثرة أشغالهم وانشغالهم في أمور عملهم من التفرغ للقراءة . وهذا وإن كان ليس بمقبول فإنه غير وجيه ؛ إذ الكثير من العلماء وطلبة العلم كانوا يشتغلون في نهارهم وطرفًا من ليلهم ، ومع ذلك لم يحجبهم ذلك عن القراءة . فهذا الشيخ على الطنطاوي ـ رحمه الله ـ يقول عن نفسه : « ربما مرَّ عليَّ يوم أقرأ فيه ثلاثمائة صفحة ، ومعدل قراءتي مائة صفحة من سنة ١٣٤٠ إلى هذه السنة (١٤٠٢) » ، وله في المذكرات أيضًا حديث عن قراءته ومقدارها مع اشتغاله بالقضاء في دمشق (كل يوم ثلاثون قضية) مع الإشراف على مجالس التحكيم ، والعمل رئيسًا لثلاثة مجالس : الأوقاف ، والأيتام ، والمجلس الأعلى للكليات الشرعية ؛ مع إلقاء دروس في الكلية

---

(١) صيد الخاطر ، ص ٥٥٧ ، ص ٣١٨ ، عن المشوق إلى القراءة وطلب العلم ، ص ٣٩ .
(٢) المشوق ، ص ٤٠ .
(٣) روضة المحبين ، ص ٧٠ ، المشوق ص ٤٢ .
(٤) البيان والتبيين : ١ / ١٧٠ .

والثانويـة للبنيـين والبنـات ، وكـان إلـى جانـب ذلـك خطيـب جمعـة ، ومحاضـرًا فـي النوادي ، ولـه أحاديث في الإذاعة ، وكتابة يومية في إحدى الجرائد ، كان يصنع هذا كله ، ومع ذلك كان يقرأ كل يوم مائة أو مائتين أو ثلاثمائة صفحة .. (١)

٨ ـ ٧ : التكرار يعلم :

- قال المُزنـي ـ رحمه الله ـ : ((أنا أنظر في كتاب الرسالة منذ خمسين سنة ، ما أعلم أنـي نظرت فيه مرةً إلا وأنا أستفيد شيئًا لم أكن عرفته ..)) (٢) .
- وقد جاء في ترجمة الإمام ابن عطية المحاربي (ت : ٥١٨ هـ) أنـه كـررّ ((صحيح البخاري)) سبع مائة مرة .
- وابن التبَّان ـ رحمه الله ـ قال عنه القاضـي عيـاض : ((وكـان كثيـر الـدرس ، ذكر أنه درس كتابًا ألف مرة)) يعني المدوّنة .
- والإمام الثقة عبد الغافر الفارسي (ت : ٤٤٨ هـ) قُرِئ عليـه صـحيح الإمـام مسلم أكثر من ستين مرة (٣) .

٨ ـ ٨ : طلبة الشيخوخة ليست مانعًا :

العلامة المتفنن ، صاحب التصانيف ، أبو الفرج ابن الجوزي (ت : ٥٦٨ هـ) يقرأ في آخر عمره وهو فـي الثمـانين القراءات العشر علـى ابن البـاقلاني ، مـع ابنـه يوسف)) (٤) ، وهذا يـدل علـى أن طلـب العلم من المحبـرة إلـى المقبـرة لا يتوقـف عنـد سن معين ، وليسـت الشيخوخة بعـائق عن طلبـه إذا كـان مـع الشيخوخة همـة عاليـة وعزيمة ماضية .

٨ ـ ٩ : وللمرأة دور :

إن التاريخ الإسلامي سجل بحروف من نور أسماء صحابيات جليلات .. منهن : أسـماء بنـت أبـي بكـر ، وأم عطيـة الأنصـارية ، وأم كبشـة القضـاعية ، وأسـماء بنـت عمـــــــــــــــــــــــــــــــــــيس ، وأم سليم ، وأم الدرداء ، وفاطمة بنت قيس ، كن جميعًا مـن راويـات أحاديث رسـول الله ﷺ .

وإذا راجعنا طبقات النساء من المحدثات التابعيات ، لطالعنا أسماء عديدة لهن ، من بينهن حفصة بنت سيرين ، وزينب بنت المهاجر ، وصفية بنت شيبة ، وعائشة بنت سعد بن أبي وقاص ، وغيرهن .

---

(١) المشوق ، ص ٦٧ بتصرف يسير .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى : ٢ / ٩٩ ، عن المشوق ، ص ٩٠ .
(٣) المشوق ، ص ٩٧ - ١٠٠ .
(٤) السير : ٢١ / ٣٧٧ ، نقلاً عن المشوق ، ص ٣٣ .

ولقد بلغ عدد التابعيات المحدثات ، في مسند الإمام أحمد وحده ، نحوًا من خمسين تابعية .

وفي قرطبة ، كانت هناك نحو ستين فقيهة من فقيهات الإسلام كن يشتغلن بالفتوى ، وكانت توقد على بيوتهن السرج ، وما كان يوقد السراج إلا على بيوت أهل الفتوى والفقه .

وكانت فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي صاحب (تحفة الفقهاء) قد تفقهت على أبيها ، وحفظت تحفته ، وتزوجها علاء الدين بن أبي بكر صاحب (البدائع) ، وكان زوجها يخطئ فترده إلى الصواب . وكانت الفتوى تأتي ، فتخرج وعليها خطها وخط أبيها ، فلما تزوجت بصاحب البدائع ، كانت تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها .

وكتب أبو مسلم الفراهيدي المحدث عن سبعين امرأة من الحرائر والإماء استبقن في ميدان التربية ... حتى إن شهدة الكاتبة كانت تقعد للحديث في القرن السادس الهجري ، وقد بَعُد صيتها ، وسمع عليها الخلق الكثير .

وختم الشيخ جلال الدين السيوطي في القرن العاشر الهجري كتابه « بغية الوعاء » بمسلسلات ، قرأ منها على الأصيلة الثقة الخيرة الفاضلة الكاتبة أم هانيء بنت الحسن الهوريني ، وعلى هاجر بنت محمد المصرية ، وأخبرته الشيختان المسندتان أم هانيء وأم الفضل بنت محمد المقدسي ، وقرأ على الأصيلة نشوان بنت عبد الله الكناني ، وأخبرته كمالية بنت محمد بن أبي بكر الجرجاني ، وأنبأته أمة الخالق بنت عبد الله العقبي ، وأخبرته أمة العزيز بنت محمد الأمياسي ، وفاطمة بنت علي بن اليسير مشافهة بالفسطاط ، وخديجة بنت أبي الحسن بن الملقن(١).

وما أحوجنا اليوم إلى مثل هؤلاء السيدات الفضليات ، خاصة ونحن نعيش معركتنا الضارية الشرسة ضد الغزو الفكري الصليبي ، والهجمات الساخرة والمقنعة من قِبَل الصهيونية العالمية والشيوعية الدولية على الإسلام وأهله في كل مكان ، والإساءة إليه ، وتصويره أنه العدو اللدود للمرأة والعلم ، إضافة إلى ما ينشرونه من شبهات ضد الإسلام وما ينفثونه من مبادئ قاتلة هدامة (٢) .

٩ - آثار في التحذير من ترك العمل بالعلم :

وإنما ذكرناه استقلالاً لأهميته وأثره في تربية النفس وانتشار الدعوة .

٩ - ١ : عن أبي رزين في قوله تعالى : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ قال : يتبعونه حق اتباعه ، يعملون به حق عمله .

(١) إن أردت المزيد عنهن فارجع إلى (الإصابة) ، ج ٧ ، ٨ .
(٢) المرأة المسلمة في طلب العلم ، ص ١٩ - ٢١ .

٩ - ٢ : قال الشعبي : ((إنّا لسنا بالفقهاء ، ولكنا سمعنا الحديث فرويناه ، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل)) .

٩ - ٣ : ((إذا عَلِمَ العالم ولم يعمل كان كالمصباح يُضيء للناس ويحرمه نفسه)) .

٩ - ٤ : ((**اطلع قوم من أهل الجنة على قومٍ من أهل النار فقالوا : بم دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم ؟ قالوا : إنا كنا نأمركم ولا نفعل**)) (ضعيف مرفوعًا) ، وأفضل منه الحديث الصحيح : ((**يؤتى بالرجل يوم القيام فيلقى في النار فتنزلق أقتابُه ، فيقال : أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا أفعله ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**)) [١] .

٩ - ٥ : قال السري السقطي - رحمه الله - : ((كلما ازددت علمًا كانت الحجة عليك أوكد)) .

٩ - ٦ : قال أبو الحسين الواعظ : ((كل من لم ينظر بالعلم فيما لله عليه ، فالعلم حجة عليه ووبال)) .

٩ - ٧ : قال سفيان الثوري - رحمه الله - : ((ليتني لم أكتب العلم ، وليتني أنجو من علمي كفافًا ، لا عليَّ ولا لي)) .

٩ - ٨ : قال سفيان بن عيينه : ((العلم إن لم ينفعك ضرك)) .

قلت (الخطيب البغدادي) : ((يعني إن لم يِنفعْهُ بأن يعمل به ضرَّه بكونه حجةً عليه)).

٩ - ٩ : عن مالك قال : ((إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظتُه عن القلوب كما يزلُّ القطرُ عن الصفا)) .

٩ - ١٠ : من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو يماري به السفهاء ، أو يصرف وجوه الناس ، فَلَهُ من علمه النار .

٩ - ١١ : وحديث أبي برزة ﵁ مرفوعًا : ((**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماذا عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه**)) [٢] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) صححه الألباني ، في اقتضاء العلم العمل ، برقم : ١ ، وقد رواه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح .

١٠ ـ أسئلة في طريق الطلب :

١٠ ـ ١ : أيهم أفضل : العلم ، أم الجهاد ، أم الإكثار من صلاة التطوع ؟

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : إن كثيرًا من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم :

- فقال الشافعي : ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ؛ وهذا الذي ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه .
- وكذلك قال سفيان الثوري .
- وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة .
- وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات :

إحداها : أنه العلم ؛ فانه قيل له : أي شيء أحب إليك : أجلس بالليل أنسخ أو أصلي تطوعًا ؟ قال : نسخك تعلم به أمور دينك فهو أحب إليّ .. ، وذكر الخلال عنه في كتاب العلم نصوصًا كثيرة في تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه : « الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب » ، وقد تقدم .

والرواية الثانية : أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاح التطوع ، واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ : « **واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة** » ، وبقوله في حديث أبي ذر وقد سأله عن الصلاة فقال : «**خير موضوع** » ، وبأنه أوصى من سأله مرافقته في الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة ، وكذلك قوله في الحديث الآخر : « **عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة** » ، وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة .

والرواية الثالثة : أنه الجهاد ؛ فإنه قال : لا أعدل بالجهاد شيئًا ، ومن ذا يطيقه . ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد .

- وأما مالك فقال ابن القاسم : سمعت مالكًا يقول : إن أقوامًا ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم ، فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم ، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك . قال مالك : وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا .. فكتب إليه عمر أن افرض لهم من بيت المال ، فلما كان في العام الثاني كتب إليه أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك . فكتب إليه عمر أن امحهم من الديوان ، فإني أخاف من أن يسرع الناس في القرآن أن يتفقهوا في الدين فيتأولوه على غير تأويله . وقال ابن وهب : كنت بين يدي مالك بن أنس فوضعت ألواحي

وقمت إلى الصلاة ، فقال : ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته .

قال شيخنا : وهذه الأمور الثلاثة التي فضل كل واحد من الأئمة بعضها ، وهي الصلاة ، والعلم ، والجهاد ، هي التي قال فيها عمر بن الخطاب ﷺ : لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها ؛ لولا أن أحمل أو أجهز جيشًا في سبيل الله ، ولولا مكابدة هذا الليل ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر لما أحببت البقاء . فالأول : الجهاد ، والثاني : قيام الليل ، والثالث : مذاكرة العلم ؛ فاجتمعت في الصحابة بكمالهم ، وتفرقت فيمن بعدهم .

ثم ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - حديثًا عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال : ((**فضل العلم خير من نفل العمل وخير دينكم الورع**)) .. ثم قال : وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسألة ، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضًا ، فلابد منهما : كالصوم ، والصلاة ؛ فإذا كانا فضلين وهما النفلان المتطوع بهما ، ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها ؛ لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه ، والعبادة يختص نفعها بصاحبها ، ولأن العلم تبقى فائدته وعلمه بعد موته والعبادة تنقطع عنه ، ولما مر من الوجوه السابقة [1] .

وذكر أيضًا عن ابن عباس وأبي هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل : تذاكر العلم بعض ليلة أحبُّ إلينا من إحيائها .. (أ . هـ) . وسِيَر أولئك الأخيار تدل على جمعهم بين هذه كلها ، وإن آثروا بعضها على بعض في الجملة .

وذهب قوم إلى أن أفضل العبادة هو العمل على مرضاة الرب في كل وقتٍ بما هو مقتضي ذلك الوقت ووظيفته . فالأفضل في وقت الجهاد الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار ؛ والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقة والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل ؛ والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والدعاء والذكر والاستغفار ؛ والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه ، والخلوة ، والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ؛ حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء [2] .

١٠ - ٢ : هل تعلم العلوم الدنيوية (كتعلم الطب والهندسة) لصاحبها أجر عند الله ؟ :

((إن الذي يطلب العلم الديني أو الدنيوي ، أو هما معًا يقضي سنوات كثيرة من

---

(1) مفتاح دار السعادة ، باختصار : ١ / ١١٩ - ١٢٠ .
(2) التفسير القيم لابن القيم ، ص ٧٧ .

عمره في طلب العلم ، مجهدًا نفسه ، مسهرًا عينه ، مضنيًا جسمه ، فإذا مر ذلك كله بعيدًا عن الله والإخلاص لـه - تعالى - في طلب العلم فما أكثر الضياع الذي لحق بالإنسان المتعلم ، وما أكثر خسارته ، وما أحمقه وأجهله ؟ ! ولو أن هذا الطالب تفقه في دينه وعرف الطريق إلى مرضاة الله في طلب العلم لنال ثوابًا عظيمًا ، ودرجات رفيعة في الدنيا والآخرة .

وخير ما يوصل الإنسان إلى رضاء الله - سبحانه وتعالى - هو أن يبتغي بعلمه وجه ربه مخلصًا له دينه ، بعيدًا عن شهوات حب الظهور والمناصب والمادة والوصولية وغيرها .

ولو أن طالب العلوم الدينية أراد بها الدنيا لكانت وبالاً عليه شديدًا .

ولو أن طالب العلوم الدنيوية أراد بها وجه الله ، ونفع الأمة الإسلامية ، وإعلاء شأنها ، وخدمة أفرادها ومجتمعها لنال عند الله حظوته ، وما ضاعت عليه لحظة من لحظات جهده في طلب العلم)) [1] .

وقد قال تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [1] .

وقال ﷺ : ((**إنما الأعمال بالنيات**)) [2] .

وقد أنكر الإمام الغزالي - رحمه الله - على أهل زمانه توجه جمهور متعلميهم إلى الفقه ونحوه ، على حين لا يوجد في البلد من بلدان المسلمين إلا طبيب يهودي أو نصراني يوكل إليه علاج المسلمين والمسلمات ، توضع بين يديه الأرواح والعورات [4] .

١٠ - ٣ : هل هناك كتب تنصح بها للدعاة غير المتخصصين في العلوم الشرعية ؟:

ينبغي للمسلم أن يحرص على تعلم ما يحتاج إليه من أمور دينه لتكون عبادته صحيحة ، متبعًا فيها للرسول ﷺ لا مبتدعًا ؛ ونظرًا لقلة وجود العلماء الأكفاء أو عدمهم في بعض البلاد ، أو صعوبة الاتصال بهم والاستفادة منهم وملازمتهم لظروف الحياة ومتطلبات المعيشة ، فإن على الدعاة أن يجتهدوا في الاطلاع على كتب أهل العلم ، مع الحرص - بقدر المستطاع - على مجالسة من تيسر من أهل العلم وسؤالهم والإفادة من علمهم ورأيهم .

---

(١) السلوك الاجتماعي ، ص ٤٤٤ .
(٢) سورة الأنفال [٦٠] .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) الرسول والعلم ، ص ٢٢ .

وأما الكتب التي أنصح بقراءتها :

أ – **كتاب الله** - عز وجل - ؛ فهو أصل العلم ومصدره ومنبعه ، أوصي نفسي وإخواني بحفظه - بقدر المستطاع - والعكوف على تدبره ، وتأمل حكمه وأحكامه .

وفي علوم القرآن :

مباحث في علوم القرآن لمناع القطان - رحمه الله - ، وحفظ تحفة الأطفال للجمزوري في التجويد .

ب – في الحديث :

- جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ، حفظ الأحاديث مع قراءة الفوائد والأحكام المستفاده منها .
- رياض الصالحين .
- اللؤلؤ والمرجان .
- حفظ البيقونية في مصطلح الحديث ، مع الاطلاع على أحد شروحها .
- قراءة ما تيسر في علوم المصطلح ، مثل :
  - تيسير مصطلح الحديث للطحان .
  - الباعث الحثيث .
  - مقدمة ابن الصلاح .

جـ – التفسير :

- ابن كثير .
- تيسير الكريم المنان للسعدي - رحمه الله - .
- مختصر التفسير والمفسرون .

د – العقيدة :

- مختصر العقيدة الطحاوية .
- شرح كتاب التوحيد (من مثل فتح المجيد) .
- فتاوى في العقيدة لابن عثيمين .
- سلسلة اليوم الآخر (١ - ٣) لعمر الأشقر .
- الإيمان ، نعيم ياسين .

هـ – الفقه :

- العدة شرح العمدة .
- منار السبيل .
- شرح عمدة الأحكام .
- سبل السلام .

و – أصول الفقه :

- الواضح في أصول الفقه ، لمحمد الأشقر .
- شرح الورقات [حفظ نظم العمريطي إن أمكن] .

– السيرة :

- مختصر سيرة ابن هشام .
- فقه السيرة للبوطي .
- السيرة النبوية ، مهدي رزق الله .
- مختصر زاد المعاد ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - .
- فقه السيرة للغزالي .

د : كتب الرجال والسير والتاريخ :

- نزهة الفضلاء في تهذيب سير أعلام النبلاء ، محمد عقيل موسى .
- البداية والنهاية .
- العواصم من القواصم .
- موسوعة الفرق والمذاهب ، الذي أصدرته الندوة العالمية .

ي – اللغة العربية :

- الأجرومية .
- قطر الندى .

ك – السلوك :

- تهذيب مدارج السالكين .
- مختصر منهاج القاصدين .
- الإحياء (قراءة بحسب الحاجة مع مراعاة ما فيه من ملاحظ) .

ل – علوم أخرى :

- كتب في الدعوة ومناهجها وأساليبها ووسائلها .
- كتب في الإدارة .

- وكتب في السياسة والاقتصاد ونحوها .
- كتب في الأدب العربي (الأمالي ، العقد الفريد ، ...) .

خامسًا : تنبيهات دعوية تتعلق بالمصطلح أو تراعى عند عرضه :

١- لا نعني بطلب العلم العزلة عن الناس وعدم مخالطتهم بحجة التفرغ لطلب العلم ؛ إذ زكاة العلم نشره بين الناس ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] ، فمهمة الإنذار هي زكاة العلم ، التي لابد وأن يقوم بها طلبة العلم ، وذلك بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ولقد كانت سنة المصطفى ﷺ وخلفائه وجميع صحابته هي الاختلاط بالناس ودعوتهم إلى الخير الذي أنعم الله به عليهم .

٢ - بالنسبة للكتب الفقهية لم نذكر إلا كتب الحنابلة ؛ لأن الفقه الحنبلي هو السائد ، وينبغي للمربي أو الداعية أن يراعي المذهب السائد في المكان الذي هو فيه ، ومع هذا يربي طلابه على اتباع الحق الذي عليه الدليل .

٣ - ربط الطالب بأصول الإيمان ، والخوف من الله - عز وجل - ومراقبته من خلال الإيمان بأسمائه وصفاته ، وأثر ذلك في الواقع أهم بكثير من تشتيت ذهنه في الردود على فرقة أهل الأهواء ، لا سيما والكثير منها قد انقرض ، والأجدر والأولى والأحكم دراسة الفرق الجديدة المعاصرة ، مثل : العلمانية ، والحداثية ، والقومية ، والليبرالية ؛ ومعرفة أفكارها الاعتقادية ، وتحذير الطلاب من شبهاتها الفكرية ؛ فهي أولى من الكلابية ، والصفرية ، ونحوها من الفرق التي طفحت بها الكثير من كتب العقائد .

سادسًا : من التطبيقات العملية للدرس :

١- الالتزام بدرس أسبوعي لأحد المشايخ - إن تيسر - وإلا فسماع أشرطة بعض المشايخ في شرح متن من المتون العلمية كبديل ، والجمع بينهما أفضل .
٢- التعهد بمداومة القراءة يوميًا .
٣- وضع برنامج أسبوعي أو شهري للقراءة ، مع سؤال المربي للطالب عنه .
٤- حفظ بعض المتون ، وعمل مسابقات بين الطلاب في حفظها وإتقانها .
٥- زيارة المكتبات ، والاطلاع على الكتب فيها ، والوقوف على الجديد من الإصدارات أولاً بأول .

---

(١) سورة التوبة [١٢٢] .

سابعًا : بعض مراجع الموضوع :

١- العلم فضله ، طلبه ... ، الأمين الحاج محمد أحمد ، دار المطبوعات الحديثة ، ط ١ .
٢- مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ، دار الفكر .
٣- السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، دار الندوة الجيدة ، ط ٤ .
٤- الطريق إلى العلم ، عمرو عبد المنعم ، مكتبة صنعاء الأثرية ، ط ٢ .
٥- مفاتيح للفقه في الدين ، مصطفى العدوي ، دار الفضيلة ، ط٢ .
٦- ثقافة الداعية ، يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ .
٧- التفكير العملي ، مجموعة ، مكتبة العبيكان ، ط١ .
٨- حلية طالب القلم ، بكر أبو زيد ، دار العاصمة ، ط ٥ .
٩- تعليم المتعلم ، الإمام برهان الدين الزرنوجي ، مكتبة القرآن .
١٠- نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام ، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، ط ١ .
١١- العلم بين يدي العالم والمتعلم ، جاسم الياسين ، دار الدعوة ، ط٣ .
١٢- المكتبة بيئة العلم والثقافة والبحث ، منيرة الحميدي ، مكتبة الأمة ، ط١ .
١٣- الحث على طلب العلم ، العلامة أبو هلال العسكري ، دار الصحابة للتراث ، ط١ .
١٤- الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ ، للإمام أبي الفرج بن الجوزي ، دار الدعوة ، ط١ .
١٥- الطرق الجامعة للقراءة النافعة ، محمد بن حسن بن عقيل موسى ، دار الأندلس الخضراء ، ط٢ .
١٦- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، للسفاريني ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
١٧- العمل بالعلم بين الواقع والواجب ، عبد الله الفوزان ، دار المسلم ، ط١ .
١٨- اقتضاء العلم العمل ، الخطيب البغدادي ، المكتب الإسلامي ، ط٥ .
١٩- المشوق إلى القراءة وطلب العلم ، علي العمران ، دار عالم الفوائد ، ط١ .
٢٠- الحياة الربانية والعلم ، يوسف القرضاوي ، دار الفرقان ، ط١ .
٢١- الطريق إلى نصف العلم ، محمد زكي عبد الدايم ، دار الطباعة والنشر الإسلامية .
٢٢- الرسول والعلم ، يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .
٢٣- أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية ، د . فاروق حماده ، دار طيبة ، ط ١ .
٢٤- طريقك إلى الإخلاص والفقه في الدين ، د . عبد الله الرحيلي ، دار الأندلس الخضراء

، ط١ .
٢٥- الطريق إلى الفقه ، د . حمد الشتوي ، دار الأندلس الخضراء ، ط ١ .
٢٦- آداب المتعلمين ، د . أحمد الباقلي ، دار القاسم ، ط ١ .
٢٧- الفقيه والمتفقه ، الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية .
٢٨- التربية في السنة النبوية ، أبو لبابة حسين ، دار اللواء ، ط ٢ .
٢٩- منهاج طلب التعلم ، صالح الأسمري ، دار البيان الحديثة ، ط١ .
٣٠- الطريق إلى التفوق ، حسين شحاته ، دار التوزيع والنشر الإسلامية .
٣١- التعالم ، بكر أبو زيد ، دار الراية ، ط٢ .
٣٢- العلم وأخلاق أهله ، سماحة العلامة عبد العزيز بن باز ، دار الذخائر ، ط ١ .
٣٣- نشر العلم ، أسعد الصاغرجي ، دار القبلة الثقافية .
٣٤- الارتقاء إلى النجاح الدراسي ، سليمان العلي ، دار المجتمع .
٣٥- المرأة المسلمة في طلب العلم ، دار الأرقم ، ط ٢ .
٣٦- أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم ، دار الجيل .
٣٧- العقل والعلم في القرآن الكريم ، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، ط١ .
بالإضافة إلى عشرات المراجع في التفسير والحديث والرجال واللغة ..

قدوة

القدوة

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغة :

▪ قال ابن فارس - رحمه الله - :

(((قدو) القاف والدال والحرف المعتل : أصل صحيح يدلُّ على اقتباس بالشيء واهتداء ، ومُقادَرة في الشيء حتى يأتي به مساريًا لغيره . من ذلك قولهم : فلان قُدوةٌ (بضم القاف وكسرها) : يقتدى به . ويقولون : إن القَدْوَ : الأَصل الذي يتشعب منه الفروع))[1].

▪ وقال ابن منظور - رحمه الله - :

((والقُدْوَةُ والقِدْوةُ : الأُسوةُ . يقال : فلانٌ قُدوة يُقتدَى به)) [2] .

ب - اصطلاحًا :

▪ قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...** ﴾ [3] : ((الأسوة كالقُدوة ، وهي اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها حسنةً أو قبيحة)) [4] .

ونعني بالقدوة في الدعوة : الداعية الذي جمع إلى سلامة معتقده وقوة إيمانه حُسنَ خلقهِ وعلوَّ همته ، وجمع إلى سعة علمه حسن فقه العمل به والدعوة إليه ، وصبر على ذلك كلّه .

ج - المصطلحات المقاربة :

– **الأسوة :**

قال ابن منظور - رحمه الله - : ((الأُسوةُ والإسوةُ : القدوة ، ويقال : ائتسي به ، أي : اقتدِ به ، وكن مثله . قال الليث - رحمه الله - : فلان يأتسي بفلانٍ أي يرضى لنفسه ما رضيهُ ويقتدي به)) [5] . فالأسوة هي القدوة سواء بسواء .

---

(1) معجم مقاييس اللغة : ٥ / ٦٦ - ٦٧ باختصار .
(2) لسان العرب : ٥ / ٣٥٥٦ .
(3) سورة الممتحنة [٤] .
(4) أضواء البيان : ٨ / ١٣٥ ، عن موسوعة نضرة النعيم : ٢ / ٣٤٩ .
(5) لسان العرب : ١٤ / ٣٥ ، نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم : ١ / ٣٤٩ .

وعليه سنستعمل في هذا المبحث الأسوة بمعنى القدوة ، والقدوة بمعنى الأسوة .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من عرض هذا الموضوع إلى عدة أمور ، منها :

١- التأكيد على أهمية القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله ، وأثرها في تربية النشء والارتقاء به .

٢- التعريف بمرتكزات القدوة ، وبيان مكملاتها ؛ لتصبح محل اهتمام الدعاة إلى الله في التربية والتكوين .

٣- التحذير من الإخلال بالقدوة ، وذلك من خلال بيان لبعض الصفات الذميمة والأعمال المشينة ، التي تضعف معاني القدوة ، وتقلل من آثارها .

٤- عرض نماذج من سير سلفنا الصالح ؛ ليحصل الاقتداء بهم ، والسعي للتشبه في علو هممهم وقوة عزائمهم وثباتهم على الحق ، والصبر على معوقات الطريق .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١ - ماذا نعني بالقدوة ؟ وهل هناك فرق بين القدوة والأسوة ؟

٢ - لماذا الحديث عن القدوة ؟ (أهمية القدوة في التربية والدعوة) .

٣ - أنواع القدوة .

٤ - ركائز القدوة ومكملاتها .

٥ - صور من الإخلال بالقدوة :

٥ - ١ : التفريط في الطاعات .

٥ - ٢ : عدم المبالاة بملابسة الشبهات والمكروهات .

٥ - ٣ : القعود عن الدعوة .

٥ - ٤ : الإكثار من الرخص وتتبع الشذوذات .

٥ - ٥ : وصور أخرى من الإخلال بالقدوة .

٦ - نماذج من القدوة في حياة السلف .

٧ - التحذير من الإخلال بالقدوة .

٨ - شبهة وجوابها .

رابعًا : العرض :

١- ماذا نعني بالقدوة ؟ وهل هناك فرق بين القدوة والأسوة ؟

(انظر دلالة المصطلح) .

٢- لماذا الحديث عن القدوة ؟ :

٢ - ١ : لأن للقدوة أثرًا عظيمًا في بناء المقتدي (التابع / المدعو)، وصياغة شخصيته ، وتنمية قدراته ، ودفعه للتضحية والفداء والبذل والعطاء ؛ ولهذا فإن الله - عز وجل - بعث الرسل إلى أُممهم لتبليغ دعوته قولاً وعملاً ؛ ليرى الخلق الدعوة تتجسد في واحدٍ منهم ، يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون ؛ فيتأثروا به ، ويقتدوا به ؛ فيعملون بعمله ، ويأتسون بخلقه .

٢ - ٢: لأن للقدوة الحسنة تأثيرًا كبيرًا على إقبال الناس على الدعوة واستجابتهم لها ، وتأثرهم بها ، وانقيادهم إليها ، وثقتهم بها ؛ فالتاريخ يروي أنه لم يُسلّ سيف ولم يقاتل جيش في فتح إندونيسيا والفلبين والملايو ، ومن جهة الغرب نيجيريا والسنغال وتنزانيا والصومال .. لقد تأثر الناس بتجار المسلمين الذين التزموا دينهم وتمسكوا به عقيدة وعبادة ومعاملة فكانوا سفراء يدعون إلى دين الله - عز وجل - بحسن خلقهم وطيب تعاملهم .

قال أحد السلف : ((فعلُ حكيم في ألف رجل ، أنفع من موعظة رجل في رجل)) [١] .

٢ - ٣ : القدوة وسيلة تربوية حيّة تجسد الكلمات إلى أفعال ، والأقوال إلى أعمال ؛ ولهذا فإن الله - عز وجل - أمرنا بالائتساء بالرسول ﷺ ، ومن قبله بإبراهيم والذين آمنوا معه ، وقد جعل الشيخ حسن البنا - رحمه الله - شعار دعوته : ((الرسول قدوتنا)) ، وهي شعار كل مؤمن يحب الله - عز وجل - حقًّا ، ويسعى لنيل رضاه صدقًا .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [٢] .

٢ - ٤ : منهج السلف الصالح في طلب القدوة ، وحرصهم عليها ؛ سواء كان ذلك من خلال ائتسائهم بالقدوات من الأخيار الذين في عصرهم ، أو من خلال القراءة في كتب سير الصالحين والأئمة المتقين . وقد عرض القرآن الكريم الكثير من سير الأنبياء والصالحين وأمرنا بالاقتداء بهم ، كما قال تعالى بعد ذكره لجمع من الأبرار : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [٣] .

٢ - ٥ : استخدام بعض وسائل الإعلام لمفهوم القدوة استخدامًا مغلوطًا سيئًا ، وذلك من خلال تلميع النكرات ، والإشادة بأهل السفاهة والنزهات وأصحاب الرذائل والمنكرات ؛ ليكونوا قدوات لأبناء المسلمين ؛ فنسمع ألقاب التعظيم للممثلين إذ

---

(١) الممرات : ٣ / ١٦٨ .
(٢) آل عمران [٣١] .
(٣) سورة الأنعام [٩٠] .

يسمونهم نجومًا ، ويخلعون صفات التفخيم على الرياضيين إذ يلقبونهم أبطالاً ، في الوقت الذي يُغفلُ فيه أهل الفضل والعلم ويُغيّبون في ظل الظل .

٢ - ٦ : ضرورة اتصاف الداعية بصفات القدوة الحسنة ؛ ليرى فيه الآخرون أسوة تقتدى ، ومثلاً يحتذى ؛ يستدركون نقصهم من خلال رؤيتهم لكمال صفاته . وقد قيل : ((من لا يستطيع تصحيح أخطاء نفسه فلا يصح له أن يكون قيّمًا على أخطاء الآخرين ، يصحح لهم وينقد))(١). فينبغي لكل مربٍّ أن يكون قدوة حسنة وأسوة صالحة لتلاميذه ، يرون فيه قوة الإيمان ، وحسن الخلق ، وسلامة السمت من خوارم المروءة .

٢ - ٧ : إن منزلة القدوة الحسنة منزلة رفيعة شريفة ، ومنّة من الله عظيمة ؛ ولهذا كانت أمنية المتقين ، وأملاً يسعى إليه عباد الله الصالحين ، يسألون ربهم أن يبلغهم إياها . قال الله تعالى عن دعائهم بها : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ (٢)، قال قتادة – رحمه الله – في قوله تعالى : ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ ، ((أي قادة في الخير ودعاة هدى يؤتم بنا في الخير)) (٣) . وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ((اجعلنا أئمة هدىً ليُهتدى بنا ، ولا تجعلنا أئمة ضلالة)) (٤).

٢ - ٨ : عظم ما يترتب على القدوة من الأجور إن كانت على هدى . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجُور من تبعَهُ ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلي ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**))(٥).

٢ - ٩ : إن الداعية القدوة جديرٌ بأن يُمكَّن له في الأرض ، وحريٌّ بأن يستخلف فيها ؛ ولهذا عندما جعل الله إبراهيم إمامًا يُقتدى به قال عليه صلوات الله وسلامه : ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِي**﴾ (٦) ، فقال الله - عز وجل - له : ﴿ **قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾(٧) .

٣ - أنواع القدوة :

الناس في القدوة مراتب ؛ فمنهم من جعل نفسه قدوة في الخير ، ومنهم من

(١) فضائح الفتن ، ص ٥ .
(٢) سورة الفرقان [٧٤] .
(٣) أخرجه عبد بن حميد بسند صحيح ، انظر المصفى من صفات الدعاة ، ص ١٤ .
(٤) الفتح : ١٣ / ٢٦٥ ، عن موسوعة نضرة النعيم ، ٢ / ٣٥ .
(٥) رواه مسلم ، كتاب العلم ، باب : من سن سنّة حسنة أو سيئة ... ، برقم : ٢٦٧٤ .
(٦) سورة البقرة [١٢٤] .
(٧) سورة البقرة [١٢٤] .

أوثقها ، فكانت قدوة في الضلال والباطل ، وما بين هاتين المرتبتين من مراتب قدوات المخلطين ما لا يحصيه إلا الله - عز وجل - ، كما أن الناس في اقتدائهم بالقدوات مراتب ؛ فمنهم من جعل قدوته رسول الله ﷺ ، ومنهم من جعل قدوته فنانًا ساقطًا أو لاعبًا غافلاً .

٣ - ١ : القدوة الحسنة :

٣ – ١ – أ : رسول الله ﷺ : وهو القدوة العظمى ، والأسوة الكبرى ، صاحب الخلق الأكمل والمنهج الأعظم ، رسول الله ﷺ ، وفيه يقول الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا** ﴾[1] . وفي الآية فوائد منها :

● قال القرطبي - رحمه الله - : ((واختلف في هذه الأسوة بالرسول عليه السلام : هل هي على الإيجاب ، أو على الاستحباب . على قولين : أحدهما : على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب ، والثاني : على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب . ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين ، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا))[2] .

ويمكن أن يقال ما دلَّ الدليل على إيجابه ، فيجب الائتساء به ، وما دلَّ الدليل على استحبابه فيستحب ، وما دلَّ على الإباحة فهو مباح .

● ((ومن دقيق المعنى في هذه الآية الكريمة أن الله جعل الأُسوة في رسول الله ﷺ [مطلقة] ، ولم يحصرها في وصف خاص من أوصافه أو خلق من أخلاقه أو عمل من أعماله الكريمة ؛ وما ذلك إلا من أجل أن يشمل الاقتداء أقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله وسيرته كلها ؛ فيقتدي به ﷺ بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ويقتدى بأفعاله وسلوكه من الصبر والشجاعة والثبات والأدب وسائر أخلاقه ، كما يشمل الاقتداء بأنواع درجات الاقتداء من الواجب والمستحب وغير ذلك مما هو محل الاقتداء))[3] .

٣ – ١ – ب : الاقتداء بالرسل والأنبياء عمومًا :

بعد أن ذكر الله جملة من أنبيائه الكرام ، أمر رسوله ﷺ بالاقتداء بهم واتباع نهجهم في الدعوة إلى توحيد الله - عز وجل - والاتصاف بفضائل الأعمال وكمال

---

(1) سورة الأحزاب [٢١] .
(2) الجامع لأحكام القرآن : ١٤ / ١٥٩ .
(3) القدوة : مبادئ ونماذج : ٥ - ٦ .

الخصـال ، فقـال - عـز وجـل - : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (١) . قـال السعدي - رحمه الله - : « أي : امش - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار واتبع ملتهم . وقد امتثل ﷺ ، فاهتدي بهدي الرسل قبله ، وجمع كل كمال فيهم ؛ فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين ، وكان سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين » (٢) .

وقد كان ﷺ يستحضر بعض مواقف القدوة للأنبياء قبله ؛ ليكون ذلك عونًا على حسن الاقتداء بهم ، كما فعل ﷺ عندما قسم غنائم حنين ، فقال رجل من الأنصار : ما أراد بها وجه الله ، فسمعه عبد الله بن مسعود ، فأتى النبي ﷺ فأخبره ؛ فتغير وجهه ، ثم قال : « **رحمةُ الله على موسى ، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر** » (٣) . قال ابن حجر - رحمه الله - : « وفي الحديث الإعراض عن الجاهل ، والصفح عن الأذى ، والتأسي بمن مضى من النظراء » (٤) .

وقد كان ﷺ يقصُّ على أصحابه بعض مواقف القدوة لأنبياء الله ليقتدوا بهم . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم ؛ ضربه قومَهُ فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ، يقول : **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** »(٥). قال شيخنا ابن عثيمين - رحمه الله - في شرحه للحديث : « العبرة من هذا أن نصبر على ما نؤذى به من قولٍ أو فعلٍ في سبيل الدعوة إلى الله ، وأن نقول متمثلين :

هل أنت إلا إصْبع دَميتِ ... وفي سبيل الله ما لَقيتِ (٦)

وأن نصبر على ما يصيبنا مما نسمعه أو يُنقل إلينا مما يُقال فينا بسبب الدعوة إلى الله ، وأن نرى أن هذا رفعة لدرجاتنا وتكفير لسيئاتنا ، فعسى أن يكون في

---

(١) سورة الأنعام [٩٠] .
(٢) تيسير الكريم الرحمن ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، انظر أيضًا الجامع لأحكام القرآن : ٧ / ٣٥ ، والتفسير المنير : ٧ – ٢٨٥ .
(٣) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الطائف في شوال ، برقم : ٤٣٣٥ .
(٤) الفتح : ٨ / ٥٦ .
(٥) رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ٥٤ ، برقم : ٣٤٧٧ ، ورواه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، برقم : ١٧٩٢ .
(٦) قاله النبي ﷺ وقد دميت إصبعه في بعض المشاهد ، أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد برقم : ٢٨٠٢ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم : ١٧٩٦ .

دعوتنا خلل من نقصٍ في الإخلاص أو من كيفية الدعوة وطريقها ، فيكون هذا الأذى الذي نسمع كفارة لما وقع منا ؛ لأن الإنسان مهما عمل فهو ناقص لا يمكن أن يكمل عمله أبدًا إلا أن يشاء الله ، فإذا أُصيب وأُوذي في سبيل الدعوة إلى الله فإن هذا من باب تكميل دعوته ورفعة درجته ، فليصبر وليحتسب ولا ينكص على عقبيه)) [1] .

٣ – ١ – ج : الاقتداء بعباد الله الصالحين ممن هم دون الأنبياء :

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [2] . قال القرطبي - رحمه الله - في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ : ((يعني أصحاب إبراهيم من المؤمنين)) ، وقد ضربَ الرسول ﷺ العديد من مواقف القدوة للمؤمنين الصادقين ، وأولياء الله المتقين ، الذين ثبتوا على دعوتهم على الرغم من شدة الابتلاء وبطش الأعداء .

وفي ذلك حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال ﷺ : ((**قد كان من قبلكم يُؤخذُ الرجل فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتي بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد – ما دون لحمه وعظمه – ما يصُدُّهُ ذلك عن دينه ، واللهِ ليُتمَّنَّ اللهُ هذا الأمر حتى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون**))[3]. وفي الحديث : ((**التأسي بالصالحين الذين امتحنوا في دينهم فصبروا**))[4]. وكذلك قصَّ عليهم خبر أصحاب الأخدود الذي جاء مجملاً في سورة البروج ، ونحوها من المواقف التي تثبِّت قلوب المؤمنين على الحق ، وتكشف لهم بوضوح طبيعة الطريق الذي سلكوه .

٣ - ٢ : القدوة السيئة :

وهي الأسوة المرفوضة ، والاتباع المنهي عنه ؛ لما يشتمل من مفاسد العقائد والأهواء والبدع والضلالات .. وقد حذّر منها القرآن الكريم والرسول الأمين ﷺ ؛ وذلك عبر صور عديدة ، منها :

٣ – ٢ – أ : النهي عن اتباع الفاسد من عقائد الآباء [5] :

---

(١) شرح رياض الصالحين : ١ / ١٨١ - ١٨٢ .
(٢) سور الممتحنة [٤] .
(٣) رواه البخاري ، كتاب علامات النبوة ، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .
(٤) نزهة المتقين : ١ / ٧٣ .
(٥) معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم : ١ / ٢٢٧ .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (١) ، وقال عز وجل : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٢) .

٣ – ٢ – ب : النهي عن اتخاذ أهل الكتاب قدوة في أهوائهم وضلالهم والنهي عن التشبه بهم في ذلك :

قال الله تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(٣) .

وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ (٤) .

وقوله ﷺ : ((**من تشبه بقوم فهو منهم**)) (٥) .

وقد جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فرآه النبي ﷺ فغضب ، وقال : ((**والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيُخبروكم بحق فتُكذّبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده ، لو أنَّ موسى ﷺ كان حيًّا ما وسِعَهُ إلا أن يتبعني**)) (٦) . وقد قيل : ((لن يهدوكم وقد ضلوا)) (٧) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ (٨) : ((ففي قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة [١٧٠] .
(٢) سورة الزخرف [٢٢ - ٢٤] .
(٣) سورة المائدة [٤٨] .
(٤) سورة المائدة [٤٩] .
(٥) صحيح الجامع : حديث رقم : ٢٨٣١ .
(٦) رواه أحمد (٣ / ٣٨٧) ، قال الألباني في المشكاة (١ / ٦٣) : حسن .. وانظر أيضًا الإرواء : ٦ / ٣٨٣٤ .
(٧) رواه أحمد (٣ / ٣٣٨) .
(٨) سورة الحديد [١٦] .

﴿ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ نهي مطلق عن مشابهتهم ، وهو خاص أيضًا في النهي عن مشابهتهم في قسوة قلوبهم ، وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي ›› [1] . قال الحافظ ابن كثير : ‹‹ نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية أوالفرعية ›› [2] [3] .

٣ – ٢ – ج : النهي عن اتخاذ أهل الفسوق والفجور قدوة :

وقد جاء النهي عن اتخاذ قائد أهل الفسوق والفجور قدوة وهو الشيطان ، فقال - عز وجل - : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [4] ، ونهى عن التشبه به في أحواله وأعماله ، مثل الأكل بالشمال ، فإن هذا من عمل الشيطان ؛ ولهذا فإن التشيطن مذموم شرعًا وعقلاً ، وينبني على هذا أن كل ما هو من خصال المتبعين للشيطان والغاوين من الفساق والعصاة والمجرمين والزنادقة ونحوهم يكون منهيًّا عنه .

إن المحاكاة العمياء ، والتبعية الحمقاء لأهل الفجور في أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم وسلوكهم من غير نظر أو دليل ، ولا تأمل أو تفكير - مرض يمسخ الشخصية المسلمة ، ويذهب تميزها ، ويقضي على أصالتها .

٤ - ركائز القدوة ومكملاتها :

لكي تتجلى القدوة في الداعية لابد من أن تقوم عدة ركائز في شخصيته ، فتظهر واضحة جلية ، يراها التابع فيتأثر بها ، وينجذب إليها ، ويحاول أن يقتدي بها ، وإلى جانب تلك الركائز هناك مكملات ملحقة بها ، تزيدها وهجًا وإشراقًا ، وتألقًا وضياء ؛ تلفت الأنظار إليها ، وتقبل النفوس نحوها ، وتتعلق القلوب بها .

ومن تلك الركائز :

٤ - ١ : قوة الإيمان وسلامة المعتقد [5] :

إيمان القدوة يشرق في القلب سناه ، ويخط في أعماق نفسه مجراه ؛ يجري فيه مجرى الدم ، ويسري كما تسرى الروح ؛ إيمان لا يتزعزع ولا يضطرب ، يدفعه للجهاد والتضحية ، والبذل والعطاء : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [6] . ويجمع القدوة في إيمانه

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم : ١ / ٨٥ .
(2) تفسير ابن كثير : ٤ / ٣٣٢ .
(3) انظر للتوسع التدابير الواقية من التشبه بالكفار : ١ / ٥٣ .
(4) سورة فاطر [٦] .
(5) انظر للتوسع ، الإيمان والحياة ، ١٥ وما بعدها ، والعقيدة وأثرها في بناء الجيل .
(6) سورة الحجرات [١٥] .

بـين القـوة فـي الرسـوخ والسـلامة والوضـوح .. فإيمانـه سـليم مـن كـدورات البـدع وشـوائب الشـرك والإلحـاد فـي أسـماء الله وصـفاته ، اقتفـى هـدي سـلفه الصـالح فـي وضوح معتقدهم وسلامة منهجهم من لوثات التعطيل والتأويل والتشبيه والتجسيم .. كما أنه إيمان يجمع بين التصديق والإقرار والعمل بالأخبار .. إيمان تظهر آثاره في واقع حياته وشؤون معاشه ..

٤ - ٢ : حسن الخلق :

وهو الركيزة الكبرى ، والعامل الأقوى في إبراز القدوة وتجليته للناس ، وحبهم له وتأثرهم به ، وانجذابهم إليه . وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾[1] ، وقد كان لرسولنا ﷺ في هذه الركيزة ما أخبرنا الله به في قوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[2] ، وجعل غاية مبعثه والهدف من رسالته إتمام مكارم الأخلاق ، فقال ﷺ : ((**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**))[3] . وكان ﷺ ترجمة عملية لأخلاق الإسلام ، وصورة حية للفضائل التي دعا إليها القرآن ، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - : ((**كان خلقه القرآن**))[4] .

والأمثلة العملية على حسن خلقه كثيرة ، فاضت بها سيرته العطرة ، بل إن سبب إسلام بعض المشركين تأثرهم بحسن خلقه ﷺ ، وقد كانوا يسمعون القرآن من ثغره ﷺ فيحرك في قلوبهم دواعي الإيمان .. والأمر نفسه حصل مع تجار المسلمين في الكثير من الأقطار التي جاءوا إليها متاجرين ، فأصبحوا بحسن خلقهم وأمانتهم وصدقهم دعاة فاتحين ، فتحوا قلوب الناس للإيمان ودعوة الحق ، فشهدت بالتوحيد لرب العالمين .

قال ﷺ : ((**البرُّ حسن الخلق**))[5] ، وقال : ((**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن**))[6] ، ومن أهم الأخلاق التي ينبغي أن تكون بارزة في تعامل القدوة مع الناس عمومًا والمدعووين خصوصًا : الصبر ، والرفق ، والحلم ، والعفو ، والبذل ، والجود ، والتواضع ، والصدق .

---

(1) سورة آل عمران [١٥٩] .
(2) سورة القلم [٤] .
(3) مسند أحمد ، رقم : ٨٥٩٥ .
(4) صحيح الجامع ، رقم : ٤٨١١ .
(5) رواه مسلم .
(6) رواه الترمذي ، وقال حسن صحيح .

٤ ـ ٣ : العلم :

أما الحد الأدنى منه فهو من ركائز القدوة وأركانها التي لا تقوم إلا بها ، وما زاد عن ذلك فهو من مكملاتها . والحد الأدنى منه ما يُعرف به الخالق فيُخشى ويُرجى ، وما تصح به العبادات ، ويسلم العبد به من الوقوع في المحرمات والبدع والضلالات . ثم بعد ذلك كلما ارتقى منه درجة ازدادت أسوة الناس به ؛ ولهذا قال يوسف لمن أرا د دعوتهم إلى التوحيد : ﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾[1]، فأظهر أن عنده من فضيلة العلم ما يستحق به أن يكون قدوة يقتديان به في توحيد الله ونبذ الشرك . وقد قال عمر ﷺ : « تعلموا قبل أن تسودوا » [2] ، « فالسيادة في الدعوة تحتاج إلى علم يتأكد فيه القدوة من صحة خطواته ، ويصحح فيه خطوات الآخرين » [3] .

٤ ـ ٤ : البعد عن مواطن الشبه وخوارم المروءة :

« يحسن بالقدوة أن يكون على درجة من الشفافية والتحسس ؛ ليبقى بعيدًا عن موارد الظنون ومواقع التاويلات ..

جاءت أم المؤمنين صفية بنت حيي زوج رسول الله لتزوره في معتكفه في المسجد في العشر الأخير من رمضان ، فمكثت عنده وتحدثت ساعة ، ثم قامت راجعة إلى بيتها ، فقام معها النبي ﷺ مصاحبًا لها حتى يبلغها بيتها ، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مرَّ رجلان من الأنصار فسلَّما على رسول الله ﷺ فقال لهما النبي ﷺ : « **على رسلكما إنما هي صفية بنت حيي** » ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله . وكَبُرَ عليهما . فقال النبي ﷺ : « **إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا** » [4] .

قال الحافظ في الفتح : « وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتياط من كيد الشيطان والاعتذار » . قال ابن دقيق العيد : « وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدي بهم ، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم ، وإن كان لهم فيه مخلص ؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم »[5] » [1] .

(1) سورة يوسف [٣٧] .
(2) البخاري : فتح ١ / ١٦٥ .
(3) المصفى من صفات الدعاة ، ١٩ .
(4) رواه البخاري ، كتاب الاعتكاف ، باب : هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، برقم : ٢٠٣٥
(5) الفتح : ٤ / ٢٨٠ .

٤ ـ ٥ : موافقة الأقوال للأعمال :

الأقوال التي ليس لها رصيد من الأفعال كالجسد بلا روح ؛ ولهذا فهي باردة هامدة ، فإذا سرت فيها روح العمل عادت حيّة نضرة ، تهتز لها القلوب ، وتتأثر بها النفوس ، وتنجذب إليها الأبصار .. قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : ((اتخذ النبي ﷺ خاتمًا من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب ، فقال النبي ﷺ : ((**إني اتخذت خاتمًا من ذهب**)) ، فنبذه وقال : ((**إني لن ألبَسَهُ أبدًا فنبذ الناسُ خواتيمهم**)) [1] .

قال عبد الواحد بن زياد : ((ما بلغ الحسن البصري ما بلغ إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه ، وإذا نهاهم عن شيء يكون أبعدهم عنه)) [2] .

٤ ـ ٦ : تقديم النفع للمسلمين :

مما يتميز به القدوة حبه لإخوانه المسلمين ، وسعيه لتقديم العون لهم ، وتنفيس كرباتهم وتضميد جراحاتهم ، ومواساتهم في أحزانهم ، ومشاركتهم أفراحهم ، وتقديم النفع لهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : ((**خير الناس أنفعهم للناس**)) [4] ، وهذا السعي المبارك لنفع الآخرين لا يريد به إلا وجه الله ؛ ولهذا ((فلا تتحكم به مشاعر شخصية ، أو مواقف عارضة ، وقد عاتب ربُّنا ـ عز وجل ـ أبا بكر ﷺ حين حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة لمشاركته في حديث الإفك (فحلف أبو بكر ألا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا) ، وأوقف ما كان يعطيه من المال ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿**وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [5] ، قال أبو بكر : ((بلي والله إنا لنحب أن يغفر لنا)) [6] ، وأعاد النفقة على مسطح [7] .. بل ربما نسي القدوة نفسه من متاع دنيوي مؤثرًا به غيره طمعًا فيما عند الله ـ عز وجل ـ ، فهو خير وأبقى .. فقد جاء لعائشة ـ رضي الله عنها ـ مبلغًا من المال كبير ، فما زالت تتصدق به حتى فني ، فقالت لها جارية تخدمها : ((هلا أبقيت لنا ما نفطر به اليوم ؟))، وكانتا صائمتين . قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : ((لو ذكرتيني لفعلت !)). فالقدوة يعيش هموم أمته ، ويُعنى بقضاياها ، ويسعى جاهدًا لنصرة دينه ودعوته ، ويوظف طاقاته وملكاته في خدمتها ونصرتها .

٤ ـ ٧ : الصبر :

---

(١) القدوة مبادئ ونماذج ، ٣٣ ـ ٣٤ .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب : ٤ ، برقم : ٧٢٩٨ .
(٣) الفتح : ١٣ / ٢٧٥ .
(٤) صحيح الجامع ، برقم : ٣٢٨٩ . (حسن) .
(٥) سورة النور [١٨] .
(٦) انظر تفسير ابن كثير تفسير الآية [١٨] من سورة النور .
(٧) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًّا ، ١٥٤ ـ ١٥٥ .

وهو وإن كان داخلاً تحت صفة حسن الخلق ، إلا أننا خصصناه بالذكر نظرًا لأهميته في شخصية القدوة . وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) [للتوسع راجع مصطلح الصبر في الرائد] .

٥ - صور من الإخلال بالقدوة :

٥ - ١ : التفريط في الطاعات :

أ - ما يجوز للعوام من الناس أن تفرط فيه قد ينكر على القدوة أن يفرط به أو يتكاسل عنه ويزهد فيه ، ومن ذلك قيام الليل ، والتساهل في ترك السنن والنوافل والأذكار . وقد قال النبي ﷺ : ((**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**)) . وعبد الله هو عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - ؛ ولهذا قال سالم بعد روايته للحديث السابق : ((فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً))(٢)، ((ومعنى قوله ﷺ : ((**لو كان يصلي من الليل**))، أي أتمنى أن يفعل ذلك حتى يكون أكثر فضلاً . وقال ﷺ : ((**يا عبد الله** [هو عبد الله بن عمرو بن العاص راوي الحديث] ، **لا تكن مثل فلان : كان يقوم الليل فترك قيام الليل**))(٣)، وفي الحديث : ((الاقتداء بالمجتهدين وعدم التأسي بالمقصرين)) (٤).

ب - فكيف بالتخلف عن الصلوات في المسجد وفوات تكبيرة الإحرام ، والتطفيف في أركانها وواجباتها وخشوعها ، ونحو ذلك ..

٥ - ٢ : عدم المبالاة بملابسة الشبهات والمكروهات :

ترك الشبهات هو سمة القدوة ، وديدنه ذلك لأنه حريص على طلب البراءة لدينه وعرضه من النقص والشين . وقد قال ﷺ : ((**الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما أمور مُشبَّهات ، لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه** ..))(٥) . قال بن حجر - يرحمه الله - : ((ونقل ابن المنير في مناقب شيخه القباري عنه أنه كان يقول : المكروه عقبة بين العبد والحرام ، فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام ، والمباح عقبة بينه وبين المكروه ، فمن استكثر منه تطرّق إلى المكروه ... ، والحلال حيث يخشى أن يؤول

---

(١) سورة السجدة [٦] .
(٢) رواه البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عبد الله بن عمر ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - .
(٣) رواه البخاري ، كتاب التهجد ، باب ما يكره من ترك قيام الليل ، ومسلم ، كتاب الصيام ، باب النهي عن صيام الدهر .
(٤) نزهة المتقين : ٢ / ٨٣٣ - ٨٣٤ .
(٥) رواه البخاري – كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، برقم : ٥٢ ، ورواه مسلم

فعله مطلقًا إلى مكروه أو محرم ينبغي اجتنابه ، كالإكثار مثلاً من الطيبات ، فإنه يحوج إلى كثرة الاكتساب الموقع في أخذ ما يستحق أو يفضي إلى بطر النفس ، وأقل ما فيه الاشتغال عن مواقف العبودية » .

وقال - رحمه الله - تعالى : ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصير فيه جرأة على ارتكاب المنهي في الجملة ، أو يحمله اعتياده ارتكاب المنهي غير المحرم على ارتكاب المنهي المحرم إذا كان من جنسه ، أو يكون ذلك لشبهة فيه ، وهو أن من تعاطى ما نُهي عنه يصير مظلم القلب لفقدان نور الورع فيقع في الحرام ولو لم يختر الوقوع فيه »[1] .

قال النبي ﷺ : « **إني لأنقلب إلى أهلي فأجد الثمرة ساقطة على فراش فأرفعها لآكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها** »[2] ، وربما وقع في مشتبه فيصيبه أرق من كثرة التفكير في أمره ، كما في حديث عمر بن شعيب ، عن أبيه عن جده ، أن النبيَّ ﷺ أصابه أرق من الليل ، فقال له بعض نسائه : يا رسول الله ، أرقت الليلة . فقال : « **إني كنت أصبت ثمرةً تحت جنبي ، فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة ، فخشيت أن تكون منه** »[3] .

٥ ـ ٣ القعود عن الدعوة :

من الإخلال بالقدوة غلبة هموم الدنيا على الراعية ، وتشعب قلبه في أوديتها ، وكثرة الانشغال بها ، والتكاسل عن العمل لنداء الدين ، وخلوده إلى الأرض مع القاعدين أو المتثاقلين . والاكتفاء من القدوة بالسمت الظاهري ، والاقتصار على لقاء أسبوعي مع بعض الصالحين ، ربما ردَّد فيه بعض هذه الهموم التي أصبحت حديثه في المجالس . أما واجبات الدعوة ، ومسؤوليات الأسرة ، وأمانة التبليغ والنصرة فقد حجبتها عن قلبه حُجب الراتب والسيارة والبيت والعقار ونحوها من متاع الدنيا .. وما أعظم ذلك التحذير من هذا المنزلق الخطير ؛ إذ يقول عنه عز وجل : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾[4] .

ويقول الرسول ﷺ : « **إن العبد إذا كان همه الآخرة كف الله تعالى عليه ضيعته ، وجعل**

---

(1) الفتح : ١ / ١٢٧ – ١٢٨ .
(2) رواه البخاري ، ومسلم برقم : ١٠٦٩ .
(3) رواه أحمد في مسنده (٢ / ١٨٣ ، ١٩٣) ، وحسّنه محقق جامع العلوم والحكم .
(4) سورة التوبة [٢٤] .

غناه في قلبه ، فلا يصبح إلا غنيًّا ولا يمسي إلا غنيًّا ، وإذا كان همه الدنيا أفشى الله تعالى ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ؛ فلا يمسي إلا فقيرًا ، ولا يصبح إلا فقيرًا)) [1].

٥ ـ ٤ : الإكثار من الرخص وتتبع الشذوذات :

الأصل في القدوة أن يأخذ نفسه بالعزيمة ويربيها على المعالي ويُلزمها بالأحوط والأورع والأرجح ، ولا بأس برخصة احتاج إليها بعد أن توافرت شروطها ومقتضياتها ؛ لأن الله ـ عز وجل ـ يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، ولكنها رخصة عارضة لا يركن إليها ويسترسل فيها .

وإن مما يؤسف له أن ترى من يُحسب قدوة قد انغمس في غثاثة الرخص ، وشواذ الفتاوى ؛ حتى رق دينه ، وبهتت شخصيته الإيمانية . قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : ((أهل العزائم بناء أمرهم على الجد والصدق ، فالسكون منهم إلى الرخص رجوع وبطالة)) . وصدق والله الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ إذ يقول : ((ومن تتبع رخص المذاهب وزلات المجتهدين فقد رقَّ دينه)) . كما قال الأوزاعي أو غيره : ((مَنْ أخذ بقول المكيين في المتعة ، والكوفيين في النبيذ ، والمدنيين في الغناء ، والشاميين في عصمة الخلفاء فقد جمع الشر . وكذا من أخذ في البيوع الربوية بمن يتحيَّل عليها ، وفي الطلاق ، ونكاح التحليل بمن توسَّع فيه ، وشِبْه ذلك ، فقد تعرّض للانحلال ، فنسأل الله العافية والتوفيق))[2] .

وما زال السلف يحذرون القِدى (جمع قدوة) من الرخص التي ربما فتحت على العامة من الناس باب فتنة ؛ ولهذا لما رأى ابن عباس أخاه عبيد الله صائمًا يوم عرفة حذّره بقوله : ((إنكم أئمة يُقتدى بكم)) ، وقال : ((قد رأيت رسول الله ﷺ دعا بحلاب في هذا اليوم فشرب)) [3] . ولما نهى عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن لبس الخفين في الحج أخذًا بالرخصة في ذلك ـ لخشية عمر أن يتوسع الناس في ذلك ـ قال له : ((عزمت عليك إلا نزعتَهما ، فإني أخاف أن ينظر الناس إليك فيقتدون بك)) [4] ، وكذلك إنكار عمر إلى طلحة حين رآه يلبس ثوبًا مصبوغًا وهو مُحرِم ، فقال له : ((إنكم ـ أيها الرهط ـ أئمة يقتدي بكم الناس)) [5][6].

٥ ـ ٥ : وصور أخرى :

ويمكن للأخ الداعية أن يضيف إلى ما ذكرنا في صور الإخلال بالقدوة بحسب ما

---

(1) انظر حديث رقم : ١٤٩٩ في ضعيف الجامع .
(2) سير أعلام النبلاء : ٨ / ٩٠ .
(3) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٤٦ ، برقم : ٣٢٣٩ .
(4) مسند الإمام أحمد : ١ / ١٩٢ .
(5) موطأ مالك : ١ / ٣٢٦ ، الحديث ١٠ من كتاب الحج ، باب ٤ .
(6) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا ، ٢٢٦ ، بتصرف يسير .

يراه مناسبًا لمن يريد الحديث إليهم ... أذكره ببعض الصور التي يكثر الحاجة إلى الحديث فيها مثل :

- العزوف عن تعلم العلم الشرعي .
- الزهد ببعض السنن .
- هدر الأوقات .
- زيغ الأبصار [عدم المبالاة بالنظر إلى حرم الله] .
- مجالس الضرار واللغو : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣] .
- التخلف عن نشاطات الدعوة .
- التنصل من المسؤوليات .
- التلبس ببعض خوارم المروءة .

٦ - نماذج من القدوة في حياة السلف [١] :

إن من أعظم وسائل التربية الاطلاع على سير السلف الصالح ، والحديث عنها ليحصل الاقتداء بهم ، واقتفاء أثرهم ، والانتفاع بعلمهم ... إن دراسة سيرهم تورث زيادة الإيمان ، وتقود إلى زكاة النفس ورقة القلب وعلو الهمة وسموِّ الخلق ؛ ولهذا قال أحد السلف : « سير الرجال أحب إلينا من كثير من مسائل الفقه » .

وإليك بعض النماذج من سير رجال لنا فيهم قدوة :

٦ - ١ - اقتداء الخلف بالسلف :

أ - عن النعمان بن سالم ، عن عمرو بن أوس قال : حدثني عنبسةُ بنُ أبي سفيان في مرضه الذي مات فيه ، قال : سمعت أمَّ حبيبة تقول : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « **من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُني له بهن بيتٌ في الجنة** » . قالت أم حبيبة : فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ . وقال عنبسةُ : فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة . وقال عمرو بن أوس : ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة . وقال النعمان بن سالم : ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس[٢].

وأنت أيها الداعية القدوة قد جاء دورك في هذا الاقتداء المبارك لتكون في هذا العقد الفريد ، فتعزم وتقول : « وأنا ما تركتهن منذ سمعتهن من صحيح الإمام مسلم -

---

(١) يمكن أيضًا عرض نماذج من الدعاة المعاصرين : كالشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ حسن البنا ، والشيخ أبي الأعلى المودودي ، والشيخ عز الدين القسّام ونحوهم من أصحاب التأثير في الأمة وممن كانت لهم جهود عظيمة في نشر الدعوة .

(٢) رواه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن ، وبيان عددهن ، برقم : ٧٢٨ .

رحمه
الله-)) ، ليقول بعدك أتباعك وطلابك : ((ونحن ما تركناهن منذ سمعناهن من ... !))
.

ب – بعضهم يقتدي ببعض :

قال سيّار [تلميذ ثابت البناني] : كنت أمشي مع ثابت البُنانيّ [تلميذ الصحابي الجليل أنس بن مالك] ، فمرَّ بصبيان فسلم عليهم ، وحدَّث ثابت أنه كان يمشي مع أنس فمرَّ بصبيان فسلم عليهم ، وحدَّثَ أنس أنه كان يمشي مع رسول الله ﷺ فمرَّ بصبيان فسلم عليهم(١).

٦ ـ ٢ : قدوات يموتون في حديدهم :

يوسف بن يحيى البويطي ، خليفة الإمام الشافعي ، ((وكانت الفتاوى ترد على البويطي من السلطان ، فمن دونه وهو متبوع في صنائع المعروف ، كثير التلاوة ، لا يمر بيوم ولا ليلة غالبًا حتى يختم ، فسعى به من يحسده ، وكتب فيه إلى ابن أبي دؤاد بالعراق ، فكتب إلى والي مصر أن يمتحنه - أي يسأله هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق ، وهي بدعة المعتزلة ، وكان على رأسهم ابن أبي دؤاد فامتحنه فلم يُجب - أي بخلق القرآن - فقال له : قل فيما بيني وبينك ، قال : ((إنه يقتدي بي مائة ألف ولا يدرون المعنى)) .. وكان أمر أن يُحمل إلى بغداد في أربعين رطل حديد - يقول الربيع صاحب الشافعي : ولقد رأيته على بغل وفي عنقه غل ، وفي رجليه قيد ، وبين الغل والقيد سلسلة حديد وهو يقول : إنما خلق الله الخلق بكُنْ ، فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقًا خلق بمخلوق ، ولإن أدخلت عليه لأصدقنه ، ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم)) (٢).

٦ ـ ٣ : التربية العملية :

في صلح الحديبية ، وعندما فرغ النبي ﷺ من كتابة الكتاب بينه وبين كفار قريش
،
قال ﷺ لصحابته : ((**قوموا فانحروا ، ثم احلقوا**)) ، قال : فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ؛ فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : ((يا رسول الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلق لك)) . فقام ، فخرج ، فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك ؛ نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ؛ فلما رأى الناس ذلك قاموا

(١) رواه مسلم ، كتاب السلام ، باب : استحباب السلام على الصبيان ، برقم : ٢١٦٨ .
(٢) طبقات الشافعية : ١ / ٢٧٥ ، نقلاً عن المصفى من صفات الدعاة : ٣٢ – ٣٣ .

فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضًا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا ›› (١) .

قال ابن حجر - رحمه الله - في استنباط بعض فوائد الحديث : ‹‹ وفيه أن الفعل إذا انضم إلى القول كان أبلغ من القول المجرد ›› (٢) .

٦ - ٤ : البدء بالنفس والأهل :

عندما خطب النبي ﷺ المسلمين في حجة الوداع كان مما قال فيها وهو يخطب الناس :
‹‹ **وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله** ››(٣)، ومعنى موضوع كله : أي بطلان الزيادة الحاصلة على رأس المال بسبب الربا . فبعد أن نهى النبي ﷺ الناس عن الربا ابتدأ بتطبيقه عمليًّا على عمه ليكون - بأبي هو وأمي ﷺ - قدوة في القول والعمل ، فردَّ ﷺ ربا العباس بن عبد المطلب وأبطله .

٦ - ٥ : وقت الداعية القدوة لا يتسع لكثير من المباحات :

(يحيى بن يحيى) الذي أهداه الإمام مالك جزاءً على ذلك لقب (عاقل أهل الأندلس) ؛ وذلك أنه قد رحل إلى الإمام مالك وهو صغير وسمع منه وتفقه ، وكان مالك يعجبه سمته وعقله .

‹‹ روي أنه كان يومًا عند مالك في جملة أصحابه ؛ إذ قال قائل : قد حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالك لينظروا إليه غيره (أي : وبقي يحيى مكانه) ، فقال له مالك : لِمَ لا تخرج فترى الفيل لأنه لا يكون بالأندلس ؟ فقال له يحيى : إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك ، ولم أجئ لأنظر إلى الفيل ، فأعجب به مالك وسمّاه (عاقل أهل الأندلس) ›› (٤).

‹‹ إنه من المباح مشاهدة حيوان غريب .. ولكن وقت الداعية القدوة أضيق من أن يشغل شيئًا منه في مباح لا يجني من ورائه شيئًا لقضيته التي تشغله ليل نهار ›› (٥) .

٦ - ٦ : الأتباع ينظرون إلى عمل الداعية والمربي :

● قال أبو جعفر الأنباري - رحمه الله - : لما حُمِلَ أحمد بن حنبل إلى المأمون أخبرت ، فعبرت الفرات ، فإذا هو جالس في الخان ، فسلمت عليه ، فقال : يا أبا

(١) رواه البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، برقم : ٢٧٣١ – ٢٧٣٢ .
(٢) الفتح : ٥ / ٣٤٧ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ، برقم : ١٢١٨ .
(٤) طبقات الفقهاء ، ص ١٥٢ ، نقلاً عن المصفى من صفات الدعاة ، ص ٢١ .
(٥) المصفى من صفات الدعاة ، ص ٢١ .

جعفر ، تَعنَّيْتَ . فقلت : يا هذا أنت اليوم رأس ، والناسُ يقتدون بك ، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن لَيُجيبنَّ خلق ، وإن أنت لم تُجِب ، ليمتنعن خلق من الناس كثير . ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت ، لابد من الموت ، فاتق الله ولا تجب . فجعل أحمد يبكي ويقول : ما شاء الله ، ثم قال : يا أبا جعفر ، أعد عليَّ . فأعدت عليه وهو يقول : ما شاء الله .

● قال محمد بن إبراهيم البُوشَنْجي : جعلوا يُذاكرون أبا عبد الله بالرَّقة في التَّقيَّة وما روي فيها ، فقال : كيف تصنعون بحديث خَبَّاب : ((**إنَّ مَنْ كان قبلكم كان يُنشر أحدهم بالمنشار ، لا يصدُّه ذلك عن دينه**)) فأيسنا منه .

● وقال : لستُ أبالي بالحبس ، ما هو ومنزلي إلا واحد ، ولا قتلاً بالسيف ؛ إنما أخاف فتنة السوط . فسمعه بعض أهل الحبس ، فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلا سوطان ، ثم لا تدري أين يقع الباقي ، فكأنه سُرِّي عنه .

● قال أبو عبد الله : ما رأيتُ أحدًا على حداثة سنِّه وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح ، إني لأرجو أن يكون قد خُتم له بخير ، قال لي ذات يوم : يا أبا عبد الله ، الله الله ؛ إنك لست مثلي ، أنت رجل يُقْتدى بك . قد مدّ الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك ، فاتق الله واثبت لأمر الله ، أو نحو هذا . فمات وصليت عليه ودفنته)) [١] .

((وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد ، ويمتحن فيها أشد الامتحان ، لم ينس نصيحة الأنباري ، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له : ((يا أستاذ ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾[٢]، فقال أحمد : يا مروزي اخرج ، انظر أي شيء ترى !! قال : فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصي عددهم إلا الله ، والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم ؛ فقال لهم المروزي : أي شيء تعملون ؟ فقالوا : ننظر ما يقول أحمد فنكتبه . قال المروزي : مكانكم . فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له : رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه . فقال : يا مروزي أضل هؤلاء كلهم !! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء)) [٣].

٧ - التحذير من الإخلال بالقدوة :

---

(١) نزهة الفضلاء : ٢ / ٨٢١ – ٨٢٢ .
(٢) سورة النساء [٢٩] .
(٣) القدوة مبادئ ونماذج ، ص ١٠ – ١١ .

٧ ـ ١ : قال الله تعالى في كتابه : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١). قال ابن جريج : ((كان الأحبار يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصي ، وقيل : كانوا يحضّون على الصدقة ويبخلون . والمعنى متقارب)) (٢) . فذمّهم الله ووبّخهم على سوء صنيعهم ، ولأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ويأمرون بما لا يعملون به في أنفسهم .

٧ ـ ٢ : وقال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : ((﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ ، على أن يقول الإنسان عن نفسه ما لا يفعله . أما في الماضي فيكون كذبًا ، وأما في المستقبل فيكون خلفًا)) .

٧ ـ ٣ : من حَمَلَ القرآن فأخلَّ بالعمل به :

قال عز من قائل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤). قال الإمام ابن القيم في تفسير الآية : ((فقاس الله من حمّله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبّره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبّر ولا تفهّم ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها . وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا . فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره)) .

ثم قال ـ رحمه الله ـ تعالى : ((فهذا المثل ، وإن كان قد ضُرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ، ولم يؤدِّ حقه ، ولم يرْعه حقَّ رعايته)) (٥) .

٧ ـ ٤ : تشبيه الذي ترك العمل بعلمه بالكلب :

قال عز وجل : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ

(١) سورة البقرة [٤٤] .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١ / ٣٦٥ .
(٣) سورة الصف [٢ – ٣] .
(٤) سورة الجمعة [٥] .
(٥) إعلام الموقعين : ١ / ١٦٥ [الهوامش : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦] ، نقلاً عن السلوك وأثره في الدعوة إلى الله : ٢٨ .

كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١). شبَّه الله تعالى مَنْ علَّمه العلم فترك العمل به بالكلب .

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله - : ((فشبَّه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره ، فترك العمل به ، واتبع هواه ، وآثر سخط الله تعالى على رضاه ، ودنياه على آخرته ، والمخلوق على الخالق - بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات ، وأوضعها قدرًا ، وأخسّها نفسًا ، وهمته لا تتعدى بطنه ، وأشدها شرهًا وحرصًا)) (٢) .

٧ - ٥ : يدور كما يدور الحمار :

قال أسامة بن زيد ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار ، فتندلق أقتابه (أمعاؤه) في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ، ما شأنك ؟ أليس كنت تأمُرُنَا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمُركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**))(٣). قال القرطبي - رحمه الله - : ((فقد دلَّ الحديث الصحيح على أن عقوبة من كان عالمًا بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه ؛ وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله ومستخف بأحكامه ، وهو ممن لا ينتفع بعلمه)) .

٧ – ٦ : حامل المسك المزكوم :

قال ابن الجوزي - رحمه الله - : ((من لم يعمل بعلمه لم يدر ما معه [كـ] حامل المسك إذا كان مزكومًا فلا حظَّ له فيما حمل)) (٤) .

٨ - شبهة وجوابها :

قد يحجم بعض الناس عندما يسمع قول الله تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ الآية ، وبعض الأحاديث التي تحذر من مخالفة القول العمل ، فيحجم عن الدعوة بحجة أنه ليس بقدوة في هذا الشأن ، أو عنده بعض المعاصي ، ونحو ذلك من الشبهات الشيطانية ، فيَحرِمُ نفسه والدعوة من خير كثير .. وقد أجاب أهل العلم عن هذه الشبهة وفندوها وبيّنوا باطلها . وإليك بعض ما ذكروه :

---

(١) الأعراف [١٧٥ – ١٧٦] .
(٢) إعلام الموقعين : ١ / ١٦٥ ، نقلاً عن السلوك وأثره في الدعوة إلى الله ، ص ٢٩ .
(٣) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ، برقم : ٣٢٦٧ ؛ ورواه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ... ، برقم : ٢٩٨٩ .
(٤) اللطف في الوعظ ، ص ٤٣ ، نقلاً عن السلوك وأثره في الدعوة إلى الله تعالى .

- قال الإمام القرطبي يردُّ على هذه الشبهة : « اعلم - وفقك الله تعالى - أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر ، لا بسبب الأمر بالبر ؛ ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قومًا كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون به ، فوبّخهم به توبيخًا يُتْلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ (1) الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إن قومـــا يأمـــرونا بالـــذي لا يفـــعلونا

لمجـــانين وإن هـــم لم يكونـــوا يصـــرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصـفت كـلَّ حـيٍّ كأنـك ذا تقـى وريـح الخطـايا مـن ثيابـك تسـطع

وقال الحسن لمطرف بن عبد الله : عِظ أصحابك ، فقال : إني أخاف أن أقول ما لا أفعل . قال : يرحمك الله ! وأيُّنا يفعل ما يقول ! ويود الشيطان أنه قد ظَفِر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن : سمعت سعيد بن جُبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيها شيء ، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصدق ؛ من ذا الذي ليس فيه شيء » (2) .

وقال الفخر الرازي : « إن المكلَّف مأمور بشيئين : أحدهما ترك المعصية ، والثاني : منع الغير عن فعل المعصية ؛ والإخلال بأحد التكليفين لا يقتضي الإخلال بالآخر » (3) .

وقال الإمام النووي - رحمه الله - : « قال العلماء : ولا يُشترك في الآمر والناهي أن يكون كاملَ الحال متمثلاً ما يأمر به ، مجتنبًا ما ينهى عنه ، بل عليه الأمر ، وإن كان مخلاً بما يأمر به ، والنهي وإن كان متلبسًا بما ينهى عنه ، فإنه

---

(1) تفسير القرطبي : ١ / ٣٦٧ - ٣٦٨ ، (باختصار) .
(2) تفسير القرطبي : ١ / ٣٦٧ - ٣٦٨ ، (باختصار) .
(3) التفسير الكبير : ٣ / ٤٧ .

يجب عليه شيئان : أن يأمر نفسه وينهاها ، ويأمر غيره وينهاه ، فإذا أخلَّ بأحدهما ؛ فكيف يُباح له الإخلال بالآخر ؟ »(١) .

ومع هذا كله فإنه القدوة ، يحرص على أن يتوافق ظاهره مع باطنه ، وقوله مع فعله ؛ حتى لا يدع لمتقوّل مقالاً يشوّه فيه صورة الداعية ، بل والدعوة ، لا سيما في عصرنا هذا الذي كثر فيه الحاقدون الذين يتربصون بالدعاة والدعوة شرًّا ، ويتخذون أخطاء
بعض الدعاة متكئًا في تشويه صورتهم عند الناس ؛ فيضخمون أخطاءهم ، ويبالغون في الحديث عنها ، وتنفير الناس منهم .. فأنت - أخي الداعية القدوة - على ثغر فلا يؤتين من قِبَلك ..

خامسًا : من التطبيقات العملية للدرس :

١- الالتزام بهدي المصطفى ﷺ في خُلقه ، وكان « خلقه القرآن » ، لا سيما الصدق والصبر والعفو عن المسيء ، وحسن التعامل مع الناس : كبشاشة الوجه ، والسلام ، وتفقد الغائب ، وزيارة المريض ، ونحوها .

٢ - الالتزام بهدي النبي ﷺ في عبادته ، لا سيما :

- أداء الصلوات الخمس في أوقاتها وفي المسجد بخشوع وخضوع .
- الحرص على قيام الليل ، لا سيما الوتر ؛ لأنه من آكد السنن .
- كثرة الذكر ، لا سيما أذكار الصباح والمساء ، والمناسبات : كدخول البيت والخروج منه ، ودخول المسجد والخروج منه ، ونحوها .

٣ - الالتزام بهدي النبي ﷺ في سَمْتِه الظاهري :

- الالتزام باللباس الشرعي .
- إعفاء اللحية وحف الشارب (والمحافظة على سنن الفطرة) .

٤ - الابتعاد عن مواطن الشبه والريبة ، وكذلك أماكن الفتن : كالأسواق ، والمجمعات التي يكثر فيها السفهاء ويكثر فيها اللغو واللغط إلا عند الحاجة .

٥ - الحضور المبكر للأنشطة الدعوية ، وعدم المجيء متأخرًا ، مع حسن التفاعل والإفادة من البرامج النافعة .

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم : ٢ / ٢٣ . راجع للتوسع في دحض هذه الشبهة ، السلوك وأثره في الدعوة إلى الله تعالى ، ص ١٩٦ – ٢٠٩ .

٦ - عدم الإكثار من المزاح ، والتزام الآداب الشرعية عند ممازحة المدعوين .

٧ - الارتقاء العلمي عن طريق حضور حلق المشايخ ، والقراءة اليومية في كتب العلوم الشرعية .

٨ - استثمار الفرص للدعوة إلى الله تعالى في البيت والعمل والحي .

سادسًا : بعض مراجع الموضوع :

١ - موسوعة نضرة النعيم ، مجموعة من المختصين ، دار الوسيلة ، ط١ .

٢ - نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ، محمد حسن موسى ، دار الأندلس الخضراء ، ط٢ .

٣ - دعوة إلى السنّة ، د . عبد الله الرحيلي ، مطبعة سفير ، ط٢ .

٤ - القدوة على طريق الدعوة ، مصطفى مشهور ، مكتبة دار البيان ، ط١ .

٥ - تهذيب مدارج السالكين عبد المنعم العزي ، مؤسسة الرسالة ، ط٤ .

٦ - ممرات الحق ، د . رائد عبد الهادي .

٧ - القدوة الصالحة ، حسني أدهم جرار ، دار الضياء ، ط١ .

٨ - السلوك وأثره في الدعوة إلى الله ، د . فضل إلهي ، مكتبة المعارف ، ط١ .

٩ - نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ، مصطفى الخن وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، ط٥ .

١٠ - جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ .

١١ - شرح رياض الصالحين ، الشيخ ابن عثيمين ، دار الوطن ، ط١ .

١٢ - التعالم وأثره على الفكر والكتاب ، بكر أبو زيد ، دار الراية ، ط٢ .

١٣ - التدابير الواقية من التشبه بالكفار ، د . عثمان دوكوري ، مكتبة الرشد ، ط١ .

١٤ - القدوة : مبادئ ونماذج ، صالح بن حميد ، دار إشبيليا للنشر ، ط١ .

١٥ - فقهيات في التعامل الحركي ، بسام عطية فرج ، دار البشير ، ط١ .

١٦ - المصفى من صفات الدعاة ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .

١٧ - هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًّا ، محمود الخزندار ، دار طيبة ، ط١ .

١٨ - معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم ، عبد الصبور مرزوق ، دار الشروق ، ط١ .

١٩ - فضائح الفتن ، محمد أحمد الراشد ، دار البشير للثقافة والعلوم ، ط ١٤١٩هـ .
٢٠ - زاد المعاد ، ابن قيم الجوزية .
٢١ - خلق المسلم ، محمد الغزالي ، الاتحاد الإسلامي العالمي .
٢٢ - الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات ، محمد بن عثيمين ، دار المجد للنشر ، ط١ .
٢٣ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ابن قيم الجوزية ، مكتبة عباس الباز .
٢٤ - القيادة المؤثرة ، جمال ماضي ، المدائن للنشر والتوزيع ، ط١ .
٢٥ - العقيدة وأثرها في بناء الجيل ، عبد الله عزام ، دار الرسالة الحديثة .
٢٦ - مقومات الداعية الناجح ، علي بادحدح ، دار الأندلس الخضراء .
٢٧ - الدعوة قواعد وأصول ، جمعة أمين عبد العزيز ، دار الدعوة ، ط٢ .
٢٨ - تأملات دعوية في السنة النبوية ، عبد الله بن وكيل الشيخ ، دار إشبيليا ، ط١ .

كتمان

الكتمان

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغة :

- قال ابن فارس - رحمه الله - : (((كتم) الكاف والتاء والميم أصل صحيح يدل على إخفاء وستر . من ذلك : كتمت الحديث كتمًا وكتمانًا . قال الله تعالى : ﴿ **وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا** ﴾)) [1] .
- ويقال : ((ناقة كتوم : لا ترغو إذا ركبت ، قوة وصبرًا)) [2] .
- ((والكتمان : نقيض الإعلان ، كتم الشيء يكتمه كتمًا وكتمانًا ، واكتتمه وكتَّمهُ ... والكُتمان (بالضم) : موضع ، وقيل : اسم جبل)) [3] .

ب - اصطلاحًا :

- قال ابن القيم - رحمه الله - : ((هو الصبر عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام)) [4].
- وقال الميداني : الكتمان : ((هو ضبط النفس ضد دوافع التعبير عما يختلج فيها ، وذلك لا يتم إلا بالصبر ، وقوة الإرادة المستندة إلى صحة العقل وسلامة الرأي)) [5] .
- وقيل : ((هو كل ما تكتمه وتخفيه في نفسك ولا تطلع عليه أحدًا لدفع ضرر أو لجلب مصلحة ، أو تحض به من تثق به دون سواه)) [6] .
- وقال ابن سينا : ((كتمان السر أن يضبط الكلام من الإنسان عن إظهار ما في ضميره مما يضر به إظهاره وإبداؤه قبل وقته)) [7] .

جـ - المصطلحات المقاربة :

- السرية :

– **لغة** : ما أخفيت وكتمت ، وهو خلاف الإعلان ، ويستعمل في المعاني

---

(1) سورة النساء [٤٢] .
(2) معجم مقاييس اللغة : ٥ / ١٥٧ .
(3) لسان العرب : ٥ / ٣٨٢٤ .
(4) عدة الصابرين : ١٧ ، نقلاً عن حث الأخيار على حفظ الأسرار ، ص ١١ .
(5) الأخلاق الإسلامية : ٢ / ٣٥٨ (بتصرف) .
(6) سلسلة المنهاج : ٢ / ٤٨ .
(7) فضل الله الصمد : ٢ / ٤٠ .

والأعيان ، والجمع : أسرار [1] .

- **اصطلاحًا** : جاء في فتاوى الفقه الإسلامي بيان لمعنى السر بأنه : ((هو ما يفضي به الإنسان إلى آخر مستكتمًا إياه من قبل ، أو من بعد ، ويشمل ما حفت به قرائن دالة على طلب الكتمان إذا كان العرف يقتضي بكتمانه ، كما يشمل خصوصيات الإنسان وعيوبه التي يكره أن يطلع عليها الناس))[2].

وقيل : ((هو ما قدم في الذهن مقيدًا بوجوب الكتمان)) .

قلت والسرية في الدعوة : ((كتمان ما يترتب على كشفه مفسدة للدعوة أو الداعية وهي على قسمين :

- سرية عامة : وهي كتمان أسرار الدعوة والداعية عن عموم الناس ؛ سواء كان ذلك الكتمان في الشخصيات ، أو المعاني والخطط .
- سرية خاصة : وهي كتمان أسرار الدعوة والداعية عن بعض الأفراد ممن هم في نفس الوسط الدعوي)) [3] .

((والكتمان والسرية كلاهما بمعنى واحد في هذا البحث)) .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف في عرض هذا الموضوع إلى عدة أمور ، منها :

١ - التأصيل الشرعي لأسلوب الكتمان في بعض ميادين الدعوة ، وبيان ضرورته في نجاحها والحفاظ على مكتسباتها وأفرادها .

٢ - غرس صفة الكتمان في نفوس الدعاة ؛ حتى يعتادوا ذلك في أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم ، التي يترتب على كشفها مفاسد كبيرة ومخاطر عظيمة .

٣ - عرض الأساليب النبوية في الكتمان من خلال سيرته العطرة وأيامه العبقة .

٤ - التعريف بمجالات الكتمان في حياة الداعية ، وعرض بعض الأدلة الشرعية والنماذج الواقعية على ذلك .

٥ - بيان بعض الأسباب ، التي تعين على تحقيق الكتمان عند الداعي ، وتعالج آفة التسريب ، التي قد يبتلى بها بعض الدعاة .

---

(١) لسان العرب : ٢ / ٢١٦ .

(٢) مجلة البحوث الفقهية المعاصرة : ص ٢٤٣ ، نقلاً عن ((كتمان السر وإنشاؤه في الفقه الإسلامي)) ، ص ١٥ - ١٧ .

(٣) انظر كأمثلة على هذا النوع من السرية [٦ - ١ - ب] .

٦ - ذكر بعض الإجراءات العملية للحفاظ على الأسرار من الاختراق الخارجي .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١ - ماذا نعنى بالكتمان أو السرية ؟
٢ - التأصيل الشرعي للكتمان والسرية .
٣ - الكتمان المذموم .
٤ - أهمية الكتمان في شخصية المسلم .
٥ - أهمية الكتمان والسرية في ميدان الدعوة .
٦ - بعض الأساليب النبوية في السرية والكتمان .
٧ - مَنْ الذي نستأمنه على أسرارنا ؟
٨ - كيف يمكنك أن تكتم الأسرار ؟
٩ - بعض مجالات الكتمان .
١٠ - السرية والكتمان عند الأعداء .
١١ - حديث في السرية والكتمان « دروس وفوائد » .
١٢ - أسئلة حول الكتمان والسرية .

رابعًا : العرض :

١- ماذا نعني بالكتمان أو السرية ؟ (انظر دلالة المصطلح) .

٢ - التأصيل الشرعي للكتمان والسرية :

٢ - ١ : السر أمانة :

اعلم بأن السر أمانة لدى من استودع حفظه فهو مؤتمن عليه ؛ ولهذا جاء في حديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة** » [1] ، فعده ﷺ أمانة ، والأمانة يجب الحافظ عليها والوفاء بها ؛ ولهذا كان إفشاء السر خيانة . قال الحسن : « إن من الخيانة أن تحدّث بسر أخيك » .. وقال الغزالي - رحمه الله - : « وهو - أي : إفشاء السر - حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار » [2] أ هـ . كما أن الخيانة من صفات المنافقين .. قال ﷺ : « **آية المنافق ثلاث (ومنها) : وإذا**

(1) رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، (تخريج الإحياء : ٣ / ١٣٢) ، حسنه الألباني في صحيح الترمذي .
(2) الإحياء : ٢ / ١٣٢ ، انظر أيضًا «كتمان السر وإفشاؤه » ، ص ٢٥ – ٢٦ .

اؤتمن خان)) [1] .

٢ ـ ٢ : السر عهد :

السر عَهدٌ عَهِدَ إليك صاحبه بحفظه ، فيجب عليك الوفاء بالعهد بكتمان سره ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً** ﴾ [2] .

٢ ـ ٣ : الرسول ﷺ يحث على الكتمان ويأمر به :

قال ﷺ : ((**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود**)) [3] .

٢ ـ ٤ : تحذيره ﷺ من إفشاء الأسرار :

ومن الأسرار التي نهى الرسول ﷺ عن إفشائها وحذر من إعلانها : الأسرار الزوجية ، كما في حديث أبي سعيد الخدري ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((**إن من أشرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة : الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ، ثم ينشر سرَّها**)) [4] .

بل إن المحافظة على الأسرار الزوجية لم تكن في الحياة الزوجية فقط ، بل حتى عند الفرقة ، وقد نقل الغزالي رواية عن أحد الصالحين ((أنه أراد طلاق امرأته ، فقيل له : ما الذي يريبك فيها ؟ فقال : العاقل لا يهتك ستر امرأته . فلما طلقها قيل له : لم طلقتها ؟ فقال : ما لي ولامرأة غيري)) [5] .

٢ ــ ٥ : الأمر بالاستئذان رعاية لأسرار الناس وستر عوراتهم :

فمن أجل الحفاظ على أسرار المسلمين داخل بيوتهم شُرع الاستئذان . قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمُ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾ [6] .

كل ذلك من أجل الحفاظ على الأسرار من الانكشاف .

٢ ـ ٦ : الحث على ستر أسرار المسلمين :

---

(1) رواه البخاري كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق برقم : ٢٣ ، ورواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق ، برقم : ٥٩ .
(2) سورة الإسراء [٣٤] .
(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم : ٩٤٣ .
(4) رواه مسلم كتاب النكاح ، باب تحريم سر المرأة ، برقم : ١٤٣٧ .
(5) الإحياء : ٢ / ١١٧ ، وانظر ((كتمان السر وإفشاؤه)) ، ص ٤٣ .
(6) سورة النور [٢٧ ــ ٢٨] .

قال ﷺ : ((**المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**)) (١) . ويتأكد وجوب الستر عندما يكون في إشاعته وإفشائه ترويج للفاحشة : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ (٢) .

٢ ـ ٧ ـ إفشاء السر صورة من صور النميمة المحرمة :

فقد عدَّ الغزالي إفشاء السر نميمة ، بل هو حقيقة النميمة فقال : ((اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول : فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا . وليست النميمة مختصة به ، بل حدُّها كشف ما يُكره كشفه ؛ سواء كان الكشف بالقول ، أو الكتابة ، أو بالرمز ، أو بالإماء ؛ وسواء المنقول من الأعمال ، أو من الأقوال ؛ وسواء كان ذلك عيبًا ونقصًا في المنقول عنه ، أو لم يكن .. بل حقيقة النميمة : إفشاء السر ، وهتك الستر عما يكره كشفه)) (٣) .

وقال رجل لعمرو بن عبيد : ((إن فلانًا ما يزال يذكرك بشر)) ، فقال عمرو للقائل : ((يا هذا ، ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا ، والقبر يضمنا ، والقيامة تجمعنا ، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين)) (٤) ، وقد قال ﷺ : ((**لا يدخل الجنة نمّام**)) (٥) .

٢ ـ ٨ : إفشاء السر مضرة :

إفشاء السر أذية للمسلم الذي استودعك إياه ، والأذية للمسلم محرمة . قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ : ((الذي عليه أهل العلم أن السر لا يُباح به إذا كان على صاحبه منه مضرة ، وأكثرهم يقول : إنه إذا مات لا يلزم من كتمانه ما كان يلزم في حياته إلا أن يكون عليه غضاضة)) .

قلت (القائل ابن حجر ـ رحمه الله ـ) : ((الذي يظهر انقسام ذلك بعد الموت

---

(١) البخاري : كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه ، برقم : ٢٤٤٢ ، ورواه مسلم : كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، برقم : ٦٥٢١ .
(٢) سورة النور [١٩] .
(٣) الإحياء : ٣ / ١٦ ، باختصار ؛ وانظر للتوسع المرجع نفسه .
(٤) الإحياء : ٣ / ١٥٧ بتصرف ، وانظر أيضًا أدب الدنيا والدين للماوردي ، ص ٢٦٧ .
(٥) رواه البخاري : كتاب الآداب ، باب ما يكره من النميمة : ٦٠٥٦ ، ورواه مسلم : كتاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة ، برقم : ١٠٥ .

إلى : ما يباح ، وقد يستحب ذكره ولو كرهه صاحب السر ، كأن يكون في تزكية له من كرامة أو منقبة أو نحو ذلك ؛ وإلى ما يكره مطلقًا ، وقد يحرم ؛ وهو الذي أشار إليه ابن بطال ؛ وقد يجب (أي يجب إفشاؤه) كأن يكون فيما يجب ذكره كحق عليه كان يعذر القيام به فيرجى بعده إذا ذكر لمن يقوم به عنه أن يفعل ذلك)) (١) .

فحرمة إفشاء السر مناطة بمصلحة أو مفسدة من يتعلق به السر جلبًا ودفعًا ، فتعظم الحرمة مع عظم المفسدة المترتبة على إفشائه ، والله تعالى أعلم .

٢ - ٩ : حفظ الأسرار هو فعل السلف الصالح :

فلما كان حفظ الأسرار وكتمانها من أسمى الفضائل ، وخلة من خلال المروءة والنبل كان السلف الصالح من أحفظ الناس للأسرار وأشدهم لها كتمانًا ؛ ولهذا بوّب الإمام البخاري في صحيحه بابًا فقال : باب حفظ الأسرار ، إشارة إلى أهميتها وضرورتها للمسلم ، وأنها خلق من أخلاقه وجزء من شخصيته ؛ ثم أورد حديث أنس بن مالك ﵁ الذي قال فيه : ((أسرَّ إليَّ النبي ﷺ سرًّا فما أخبرت به أحدًا بعده ، ولقد سألتني أم سليم فما أخبرتها به)) (٢) ، وكذلك فاطمة - رضي الله عنها - وقد أسرَّ إليها رسول الله ﷺ بسر ، فسألتها عائشة - رضي الله عنها - فقالت : ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرَّه)) (٣) .

ولقد سلك عليٌّ ﵁ في دعوة أبي ذر (في قصة إسلامه) أساليب سرية عديدة ، سيأتي ذكرها - إن شاء الله - في مبحث مستقل (رقم : ١١) .

٢ - ١٠ : **ثم إن الكتمان – بعد هذا كله وقبله – هو هدي النبي ﷺ** في الأمور التي يترتب على إعلانها مضرة أو خطر أو فشل ؛ ولهذا شرع للأمة العديد من وسائل وأساليب السرية والكتمان ، والتي تتناسب مع الشيء المراد كتمانه ، وما يترتب على إعلانه من عواقب . فقد كان ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها ، ولا يطلع على بعض خططه إلا المقربين من صحابته ، ونحوها من أساليب السرية التي سنذكرها فيما بعد - إن شاء الله - (٤) .

كما أن الأمر بالكتمان والسرية هدي الأنبياء - عليهم السلام - من قبل كأمر يعقوب ليوسف - عليهما السلام - بالسرية والكتمان لخبر رؤياه عن إخوته ؛ دفعًا لمضرة كيدهم وأذاهم .

٣ - الكتمان المذموم :

---

(١) فتح الباري : ١١ / ٨٢ .
(٢) رواه البخاري : كتاب الاستئذان ، باب حفظ السر برقم : ٦٢٨٩ .
(٣) رواه البخاري : كتاب الاستئذان ، باب : من ناجى بين يدي الناس ، ولم يخبر بسر صاحبه ، فإذا مات أخبر به ، برقم : ٦٢٨٥ ــ ٦٢٨٦ .
(٤) انظر المبحث رقم : ٦ .

إذا كان الأصل هو وجوب كتمان السر وعدم إفشائه ، فإن هناك ما يُستثنى من هذا الأصل ؛ نظرًا لتعلق المصلحة الشرعية بإعلانه وإفشائه . ومن ذلك :

٣ - ١ : العلوم النافعة :

لا سيما علوم الدين التي أمرنا بتبليغها للناس ، وقد أخذ الله - عز وجل - العهد والميثاق على أهل العلم بإظهاره ونشره والدعوة إليه .

((قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ [1] . قال ابن عباس وجماعة : ((نزلت في اليهود والنصارى)) ، وقيل : ((في اليهود لكتمهم صفة محمد ﷺ التي في التوراة)) ، وقيل : ((إنها عامة)) وهو الصواب ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولأن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية ، وكتمان الدين يناسب استحقاق اللعن فوجب عموم الحكم عند عموم الوصف ، وقد صرح جمع من الصحابة بالعموم : كعائشة ، فإنها استدلت بالآية على أنه ﷺ لم يكتم شيئًا مما أوحي إليه ؛ وأبي هريرة ، فإنه احتج بأنه لولا أن هذه الآية ونحوها ما كثر الحديث .

والكتم ، وترك إظهار الشيء المحتاج إلى إظهاره ونظيرها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ [2] ، ونظيرها أيضًا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [3] . فهاتان وإن كانتا في اليهود أيضًا لكتمهم صفته ﷺ وغيرها ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ كما تقرر . والبيّنات : ما أنزل على الأنبياء من الكتب والوحي . والهدى : الأدلة النقلية والعقلية .

قيل : وفي الآية دلالة على أن من أمكنه بيان أصول الدين بالدلائل العقلية لمن كان محتاجًا إليها ثم تركها أو كتم شيئًا من أحكام الشرع مع الحاجة إليه فقد لحقه هذا الوعيد

(انتهى) . واللعنة لغة : الإبعاد ، وشرعًا : الإبعاد من الرحمة)) [4] .

---

(1) سورة البقرة [١٥٩] .
(2) سورة البقرة [١٧٤ - ١٧٥] .
(3) سورة آل عمران [١٨٧] .
(4) الزواجر : ١ / ١٧٤ .

وقال ﷺ : ((**من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**)) (١) ؛ ولكن ينبغي أن يفهم أن كتم العلم ليس معصية على الإطلاق ، ((فإن الكتم قد يجب ، والإظهار قد يجب وقد يندب بحسب ما يترتب عليه . ففيما لا يحتمله عقل المستمع ويخشى عليه من إعلامه به فتنة يجب الكتم عنه ، وفي أمور الدين التي هي فرض عين كالصلاة ونحوها يجب الإعلام . والحاصل : أن التعليم وسيلة إلى العمل فيجب في الواجب عينًا في العين وكفاية فيما هو على الكفاية ، ويندب في المندوب ويحرّم في الحرام : كالسحر ، والشعوذة . قال بعض المفسرين : لا يجوز تعليم المبتدع الجدل والحجاج ليحاج به أهل الحق ، ولا تعليم الخصم على خصمه حجة يقتطع بها ماله ، ولا السلطان تأويلاً يتطرق به إلى الإضرار بالرعية ، ولا نشر الرخص في السفهاء يتخذونها طريقًا لارتكاب المحظورات وترك الواجبات)) (٢) .

٣ - ٢ : أهل الفسق والفجور الذين أعلنوا عن فسادهم وفجورهم ، لا سيما إن كانوا يثيرون الشبه ، ويدعون إلى أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين ، من الحداثيين والعلمانيين وسائر أهل النحل والأفكار الهدامة ؛ فهؤلاء وأمثالهم يجب التحذير منهم وفضحهم ، وبيان باطلهم ؛ حتى لا ينخدع بهم العوام . وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ (٣)، وقال جلَّ ذكره : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ (٤) ، ((فالتبين معرفة القائل والقول معًا)) (٥) .

وقد درج المفسرون عند تفسير هذه الآية على ذكر اسم الفاسق الكذاب الذي وصفه الله بالفسق ، وهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط ؛ فكيف بفسقة زماننا هذا الذين جاسوا فسادًا في الديار ، فأكثروا فيها الفساد - أسأل الله أن يصب عليه سوط عذاب - إنهم لا كرامة لهم ولا حرمة في ذكر أسمائهم ، وما ذكروه من كلمات فسق ، بل وكفر وانحلال ورِدَّة .

قال الغزالي - رحمه الله - : ((فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه ، فلك أن تكشف له بدعته وفسقه)) (٦) .

٣ - ٣ : الشهادة :

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حبان ، وقد صححه الألباني .
(٢) الزواجر : ١ / ١٧٦ - ١٧٧ ، بتصرف .
(٣) سورة الأنعام [٥٥] .
(٤) سورة الحجرات [٦] .
(٥) حث الأخيار ، ص ٦٨ .
(٦) الإحياء : ٣ / ٣٠٢ .

((وهي إخبار عن أمور سرية تخفى عن القاضي ، والمراد من أداء الشهادة إظهار الأسرار لإثبات الحق في مجلس القضاء ، وقد نهى الحق - عز وجل - عن كتمان الشهادة فقال عز وجل : ﴿ **وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾ [1])) [2] .

٣ - ٤ : كتمان الأخ عن إخوانه ما فيه مصلحة له أو للدعوة :

فقد يرى فرصة سانحة يمكن أن تنفذ منها الدعوة إلى ميادين من الخير واسعة ؛ أرأيت لو كتم الهدهد خبر بلقيس ؟ أرأيت لو كتم الرجل الذي اطلع على خطط الملأ من قوم فرعون الذين يخططون لقتل موسى - لو كتم خبرهم عن موسى أو لم يهتم به ؟ إن زيد بن أرقم ﷺ نقل ما سمعه من عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حيث قال : ((والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)) ، فنزلت سورة ((المنافقون)) [انظر الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ] .

٣ - ٥ : ثلاثة مجالس لا حرمة لأسرارها :

قال ﷺ : ((**المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس : سفك دم حرام ، أو فرج حرام ، أو انقطاع مال بغير حق**)) [3] .

٤ - أهمية الكتمان في شخصية المسلم :

تبدو أهمية الكتمان في شخصية المسلم وضرورة تحلّيه بها ، وحرصه عليها من خلال ذكر بعض فوائد الكتمان والسرية ؛ سواء في الجانب الشخصي أو في الميدان الدعوي :

٤ - ١ : حفظ الأسرار صفة من صفات المروءة والنبل ، وآية من آيات الشرف والعقل ، وسمة من سمات المجد والرشد ؛ ولهذا فقد اتفق الناس على امتداح صاحبها ، واستدلالهم بها على شرفه وهمته وكرم معدنه ومروءته ، ونضوج عقله وشجاعته ، حتى قالوا : ((صدور الأحرار قبور الأسرار)) [4] .

قال البنا - رحمه الله - : ((... أن تكون شجاعًا عظيم الاحتمال ، وأفضل الشجاعة الصراحة في الحق وكتمان السر ، والاعتراف بالخطأ ، والإنصاف من النفس وملكها عند الغضب)) [5] .

---

(١) سورة البقرة [٢٨٣] .
(٢) انظر ((كتمان السر وإفشاؤه في الفقه الإسلامي)) ، ص ١١٣ ــ ١١٤ .
(٣) رواه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في نقل الحديث ، برقم : ٤٨٤٨ . قال المناوي (إسناده حسن) .
(٤) انظر حث الأخيار على حفظ الأسرار : ص ٦ ، قلت : وقد ذكر الماوردي ذلك فقال : قلوب العقلاء حصون الأسرار .
(٥) مجموعة رسائل البنا ، ص ٣٦٦ .

٤ - ٢: إن الكتمان من أعظم أسباب إنجاح الأعمال وبلوغ تمامها والوصول إلى كمالها ، وقد قال ﷺ : ((**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود**))[1]، وقيل : ((من كتم سره بلغ ما يريد من أمره)) ، وذلك بعد الأخذ بالأسباب المعتبرة وإعداد العدة التي توصل إلى الهدف المنشود ، يحاط ذلك كله بسياج من الكتمان والسرية لا يسهل تسلقه أو اختراقه . قال الأصفهاني - رحمه الله - : ((من وَهْي الأمر إعلانه قبل إحكامه))[2].

٤ - ٣ : إن الكتمان من أعظم أسباب النصر على الأعداء وإلقاء الرعب في قلوبهم . قال الماوردي - رحمه الله - : ((وليس يصح الصبر في الأمور بالتسرع إليها دون كتمان السر فيها ؛ فهو أقوى أسباب الظفر بالمطالب ، وأبلغ في كيد العدو المحارب)) [3] .

٤ - ٤ : كم أُريق في إفشاء الأسرار من دماء ، وانتهكت أعراض ، وما ذلك إلا لاستهانة بعض الناس بأهمية حفظها وعدم اكتراثهم برعايتها وكتمانها . وقد قال الماوردي - رحمه الله - : ((كم من إظهار سرّ أراق دم صاحبه ، ومنع من نيل مطالبه ، ولو كتمه كان من سطوته آمنًا ، وفي عواقبه سالمًا ، ولنجاح حوائجه راجيًا)) [4] .

٤ - ٥ : درء مفسدة الحقد والحسد :

فإن كتمان العبد لبعض أحواله وما أنعم الله به عليه ، لا سيما عن ضعيفي الإيمان من الناس ، مما يجنبه الكثير من آفات الحسد وشرور الضغائن والحقد . وقد قال يعقوب ليوسف - عليه السلام - : ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [5] .

٤ - ٦ : تقوية صلات الأخوة :

إذ حفظ أسرار الإخوان من أعظم حقوقهم ، وأقوى أسباب جلب ودهم ، وتحصيل ثقتهم ؛ ولهذا عدها الغزالي من حقوق الأخوة فقال - رحمه الله - : ((وليسكت على أسراره التي يبثها إليه ولا يبثها إلى غيره ألبتة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن))[6]، فحظ إخوانك من وفائك وأخوتك أن تحفظ أسرارهم ، وتكتم الخفي من أخبارهم ،

---

(1) رواه الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب ، وهو في صحيح الجامع برقم : ٩٤٣، وقد صححه الألباني .
(2) الذريعة : ص ١٩٤ .
(3) أدب الدنيا والدين ، ص ٣٠٧ ، نقلاً عن كتمان السر وإفشاؤه ، ص ١٠٩ .
(4) أدب الدنيا والدين : ٢٦٧
(5) سورة يوسف [٥] ، وانظر للتوسع في هذا المعنى صيد الخاطر ، ص ١٨٨ .
(6) الإحياء : ٢ / ١٧٦ .

وتستر عوراتهم .

قال الأصفهاني - رحمه الله - : ((إن كتمان [السر] من الوفاء)) [١] ، فبقدر كتمانك تنل ثقتهم وتفوز بمحبتهم وتؤدي - قبل ذلك كله وبعده - حقوقهم في كتم أسرارهم والحفاظ على ما ائتمنوك عليه من أخبارهم .

٤ - ٧ : تقوية الثقة بين الزوجين :

فكتمان الزوجين لأسرارهما الزوجية ، وعدم إفشاء كل منهما لأسرار الآخر - لا سيما فيما يتعلق بأسرار الفراش وعورات البيت - يُعد من أعظم أسباب دوام الثقة بينهما واستدامة المحبة والطمأنينة ؛ ولهذا فقد رعى الإسلام الأسرار الزوجية بسياج من التوجيهات التي تحفظ عدم فشوها ، ورعاية حرمتها . قال ﷺ : ((**إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ، ثم ينشر سرها**)) [٢] .

٥ - أهمية الكتمان والسرية في ميدان الدعوة :

٥ - ١ : إن السرية تهيئ للدعوة الجو التربوي الهادئ الذي تسري فيه آمنة مطمئنة إلى القلوب ؛ حتى يصلب بالحق عودها ، وترسخ على سبيله أقدامها ، وهذا من أعظم حكم سرية الدعوة في أول عهدها في مكة المكرمة . بيد أنها ليست مرحلة تنتهي بجميع أساليبها ووسائلها كما يزعم البعض ، فقد ظل - كما سنرى قريبًا - الرسول ﷺ يحافظ على سرية الدعوة في بعض جوانبها مستخدمًا في ذلك أساليب عدة ، حتى بعد هجرته وقيام الدولة الإسلامية .

٥ - ٢ : إن المعالنة تعري الدعوة في ميدان لا تتكافأ فيه القوى ؛ وهو ما يعرض الدعوة إلى الاستئصال .

٥ - ٣ : إن في السرية والكتمان تركيزًا لجهد الدعاة في البناء والتكوين بدل تشتيتها في مدافعة الأعداء المتربصين ، وبالتالي سرعة بناء قاعدة صلبة تقف عليها الدعوة في جهادها .

٥ - ٤ : إن في السرية تحقيقًا لسلامة الدعاة من مكر الماكرين ، وكيد الحاقدين ؛ ولهذا هاجر النبي ﷺ سرًّا وكذلك صحابته إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ إذ غلب على ظنه أنه لن يجرؤ أحدٌ من المشركين على قتاله أو اعتراضه .

٥ - ٥ : إن من أكبر الأسباب التي تمكن للأعداء تحقيق مآربهم ووضع خططهم

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ص١٩٤ ، بتصرف .
(٢) رواه مسلم ، كتاب النكاح ، باب تحريم إفشاء سر المرأة ، برقم : ١٤٣٧ .

في محاربة الدعوة ومحاصرة الدعاة - اطلاعهم على بعض أسرار الدعوة والدعاة ؛ ولهذا حرص النبي ﷺ حرصًا شديدًا ، واهتم اهتمامًا كبيرًا بسرية خططه وكتمان الكثيرة من تحركاته ، فلقد تحرك جيش ذي لجب فيه أكثر من عشرة آلاف مقاتل لفتح مكة ، يتألف من العديد من القبائل دون أن يعرف الأعداء عن وجهته ، فضلاً عن تفاصيل خطته ، والدول الكبرى اليوم تنفق المليارات من أجل التجسس لتوفير أكبر حد ممكن من المعلومات التي تعينها في وضع خططها .

٥ - ٦ : إن في السرية إلقاء للرعب في صدور الأعداء ؛ إذ لا يستطيعون تقدير حجم الدعوة ، ولا إحصاء عدد أفرادها ؛ وهو ما يوهمهم باتساعها وانتشارها ، فيحسبون لها ألف حساب ، لا سيما مع اتساع الدعوة العامة .

٥ - ٧ : إن في السرية اقتفاء لهدي الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ؛ إذ لا تخلو سيرهم في الدعوة من هذا الأسلوب لتحصيل مصلحة أو درء مفسدة ، فإبراهيم - عليه السلام - يحطم الأصنام سرًّا ، ونوح - من قبل - قول : ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[1] . وموسى - عليه السلام - يسير ببني إسرائيل سرًّا في جنح الظلام ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾[2] . قال القرطبي - رحمه الله - : « أمر موسى - عليه السلام - بالخروج ليلاً . سير الليل في الغالب إما يكون عن خوف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدو فيتخذ الليل سترًا مُسدلاً ؛ فهو أستار الله تعالى . وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بِحرٍّ أو جدب ... »[3] . وكذلك أمر لوط - عليه السلام - : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ ، وهو هدي سيد المرسلين وإمام الأنبياء المصطفين ﷺ ؛ إذ هاجر سرًّا ، وبعث بالسرايا والعيون سرًّا .

٦ - بعض الأساليب النبوية في الكتمان والسرية :

فقد سلك ﷺ العديد من الأساليب التي أراد بها أن يحافظ على سرية خططه أو اتباعه لتحقيق الأمن والنجاح في الوصول إلى هدفه . وإليك بعض تلك الأساليب النبوية :

٦ - ١ : الرسالة المكتومة :

---

(1) سورة نوح [٩] .
(2) سورة الدخان [٢٣] .
(3) الجامع لأحكام القرآن : ١٦ / ١٣٦ .

وهي عبارة عن رسالة سرية لا يعرف حاملها ما كتب فيها ، ويأمر بعدم فتحها إلا في وقت التنفيذ أو في مكان محدد ؛ إمعانًا في السرّية . وقد استخدمه الرسول ﷺ في ((سَرِيّة نَخْلَة)) ؛ ((إذ بعث عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له كتابًا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ؛ وذلك إمعانًا في السرية ، وحتى لا يعلم أحد إلى أين الاتجاه . وفعل ما أمر به . وعندما فض الكتاب وجد فيه الأمر بأن يمضي حتى ينزل نخلة ، بين مكة والطائف ، ليرصد بها قريشًا ، ويعلم له من أخبارهم ، وألا يستكره أحدًا من أصحابه . وعندما أخبر أصحابه بأمر الرسول ﷺ مضوا معه جميعًا إلى وجهته))[1]. لقد استعمل الرسول ﷺ أسلوب الرسالة المكتومة للحفاظ على سرية المعلومات وكتمان حركة جنوده وأهدافهم حتى عن جنوده أنفسهم . وفي هذه القصة فوائد يجدر تأملها ، منها :

أ - سبق الرسول ﷺ في استخدام هذا الأسلوب في السرية ؛ إذ لم يعرف هذا الأسلوب في الحروب الحديثة إلا في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) حيث استخدمه الألمان .

ب - في القصة بيان للسرية الخاصة ، وهي كتمان أسرار العمل حتى عن الفريق المنفذ له ، وعدم إطْلاعهم على المعلومات إلا بقدر الحاجة أو في وقت التنفيذ ، وأن ذلك ليس طعنًا في أمانتهم ولا لقلة الثقة بهم ، ولكن نظرًا لمصلحة الدعوة والحفاظ عليها .

٦ - ٢ : المعاريض :

ففي غزوة بدر خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر يتحسسان أخبار قريش ، ولقيا شيخًا فسألاه عن جيش قريش ، فاشترط عليهما أن يخبراه ممن هما ، فوافقا ، وطلبا منه أن يخبرهما هو أولاً ، فأخبرهما بأنه قد بلغه أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن صدق الذي أخبره فهم اليوم بمكان كذا وكذا (للمكان الذي به جيش المسلمين) ، وإن صدق الذي أخبره بجيش قريش فهم اليوم بمكان كذا (للمكان الذي به جيش قريش) . ولما فرغ من كلامه قال : ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ : ((نحن من ماء)) ، ثم انصرفا عنه ، وتركاه يقول : من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟))[2] .

٦ - ٣ : اللحن بالقول :

---

(1) أخرج قصة هذه السرية : الطبراني كما ذكر ابن حجر في الإصابة (٢ / ٢٧٨) ، بإسناد متصل . وقال الهيثمي في المجمع (٦ / ٦٦ - ٦٧) : ((إن الطبراني رواها بإسناد واحد ، وهو إسناد حسن)) ، نقلاً عن السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٣٣٤ .

(2) رواها ابن إسحاق بإسناد منقطع ، ابن هشام : ٢ / ٣٠٦ - ٣٠٧ . انظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص٣٤٣.

((هو أن تقول قولا يفهمه عنك شخص ويخفى على الآخرين ، نظرًا لما فيه من التورية)) [1] . ومثال ذلك في سيرته ﷺ : في غزوة الأحزاب ، وصل خبر إلى النبي ﷺ أن بني قريظة قد نكثوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين ، وقد كان يحيط بالمدينة جيوش الكفر من عدة جهات ومن عدة قبائل من قريش وغطفان وأشجع وسُلم وبني أسد ، فبعث النبي ﷺ سعد بن معاذ ليتحقق من الخبر ، وأوصاه أن يلحن له بالقول إن كان الخبر حقًّا حتى لا يفت في أعضاد المسلمين ، وإن كان الخبر كاذبًا فيجهر به في الناس . فلما استطلع سعد الخبر ورآه حقًّا عاد إلى النبي ﷺ فقال له : ((عضل والقارة)) ، أي : كغدر عضل والقارة . فقال رسول الله ﷺ : ((**الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين**)) [2] .

٦ ـ ٤ : إعفاء الأثر :

((كما في طريق هجرته ﷺ ؛ إذ كان عامر بن فهيرة يرعى غنمه قريبًا من الغار ليخفي آثار الأقدام ، وليطعم النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه من ألبانها)) [3] .

٦ ـ ٥ : تقليل عدد المطلعين على الأخبار والخطط :

فقد كان ﷺ لا يطلع على خبر غزواته وخططه فيها إلا من يحتاج إلى إطلاعه عليها ، ومن تلك الأمثلة التي توضح هذا الجانب من تكتمه وسريته : فتح مكة ؛ حيث لم يكن يعلم بوجهته التي يريد - حتى قبيل تحركه إليها - أقرب الناس إليه كأبي بكر رضي الله عنه ، حيث ((دخل رضي الله عنه إلى ابنته عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وهي تهيئ جهاز النبي ﷺ ، فقال لها : أي بُنية ! أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فتجهز . قال : فأين ترينه يريد ؟! قالت : والله لا أدري))[4] .

٦ ـ ٦ : تتبع مصدر تسريب الأسرار :

وهو مع تحفظه في نشر الأخبار والكشف عن المعلومات ، وحرصه على سريتها ، يبث العيون لترصد أي تسريب للأخبار ، ولتحول دون وصولها إلى الأعداء . فقد بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ليدركا المرأة التي تحمل رسالة كتبها حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه يخبر قريشًا بتحرك الرسول

---

(1) انظر لسان العرب : ٥ / ٤٠١٣ ، والقرطبي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (١٦ / ٢٥٣) .

(2) انظر فقه السيرة للبوطي ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

(3) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٢٦٨ .

(4) دروس في الكتمان من الرسول القائد ، ص ٣٢ ، وانظر دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (من خلال سيرته الشريفة) ، ص ٢٤٧ وما بعدها .

ﷺ لفتح مكة ، فاستطاع أن يحجز الرسالة قبل أن تصل إلى قريش[١].

٦ - ٧ : التكلم على الأسماء :

فقد كان ﷺ يتكتم على المعلومات المتعلقة بالأشخاص :

أ - فمنهم بعض المؤمنين ، فلا يكشف ﷺ إيمانهم وانتماءهم للدعوة .. ومن هؤلاء نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه ؛ إذ جاء للنبي ﷺ معلنًا إسلامه ، وأخبره أنه أسلم سرًّا ولا يُعلم قومه بإسلامه ، فقال له النبي ﷺ : ((**إنما أنت رجل واحد** ، **فخذل عنا ما استطعت** ، **فإن الحرب خُدعة**)) [٢] .

وكذلك إسلام كثير من المستضعفين في مكة قبل الفتح ، فقد أذن ﷺ لبعض صحابته أن يقولوا لبعض المشركين من المعاريض ليوهموهم بأنهم ليسوا من أتباع المصطفى ﷺ ، كما أذن لمحمد بن مسلمة عندما أراد أن يقتل كعب بن الأشرف اليهودي - وقد أهدر النبي ﷺ دمه - فاستأذن محمد بن مسلمة رضي الله عنه النبي ﷺ في أن يقول في النبي ﷺ بعض الكلام الذي يفهم منه هذا اليهودي تبرم محمد بن مسلمة من النبي ﷺ ، فيطمئن إليه ويثق به ، وقد نجح رضي الله عنه في مهمته فقتل كعب بن الأشرف[٣].

وفي قصة إسلام عمرو بن عبسة ؛ ((أمره النبي ﷺ أن يكتم إيمانه ويلحق بأهله))[٤].

والعجيب أن عمر بن الخطاب قد جهل وخفي عليه إيمان أخته وزوجها على الرغم من مضي أكثر من ثلاث سنوات على إسلامهما [٥].

ب - وكتم أيضًا أسماء المنافقين للمصلحة المترتبة على كتمان أسمائهم ، وأخبر بها حذيفة رضي الله عنه .

٦ - ٨ : اختيار الأوقات والأماكن المناسبة :

فكان ﷺ إذا أراد أن يسرَّ في عمله وتخطيطه ، اختار الوقت والمكان المناسبين لتحقيق أكبر قدر من السرية . قالت عائشة - وهي تصف أحداث هجرته ﷺ - : ((بينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في حرِّ الظهيرة ، قال قائل لأبي بكر : هذا

---

(١) انظر فقه السيرة للبوطي ، ص ٣٥٧ ، وأصله ما رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب الجاسوس برقم : ٣٠٠٧ .

(٢) سيرة ابن هشام .

(٣) انظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٣٧٤ ، وانظر الفتح (١٥ / ٢١٠) ، حديث رقم : ٤٠٣٧ .

(٤) البداية والنهاية : ٣ / ٣١ ، نقلاً عن الطريق إلى جماعة المسلمين ، ص ٢٠٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

رسول الله ﷺ متقنعًا ، في ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فِدًا له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : ((**أخرج مَنْ عندك**)) . فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله . قال : ((**فإني قد أذن لي في الخروج**)) ، فقال أبو بكر : فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيّ ، قال رسول الله ﷺ : ((**بالثمن**))))[١] .

فانظر كيف اختار النبي ﷺ وقت الظهيرة ، حيث يقل انتشار الناس في الطرقات ، وكذلك زاد على ذلك بإخفاء معالم وجهه الشريف ﷺ بالتقنع .

وأما غزوة دومة الجندل فكان أسلوبه في السرية أن يسري الليل ويكمن النهار ؛ حتى لا تشيع أخباره ، وتنتقل أسراره ، وتتعقبه عيون الأعداء[٢].

أما بالنسبة لاختيار الأماكن التي تحقق مزيدًا من السرية فهي كثيرة ، ومنها : اختياره للغار الذي اختفى فيه أثناء هجرته ، وكذلك اختياره لدار الأرقم كمكان يجتمع فيه بمن آمن بدعوته[٣].

٦ - ٩ : الاختفاء والتخفي :

فقد اختفى ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه في الغار ثلاثة أيام ، وكذلك اختفى عن أعين المشركين في أعقاب أحد يوم أن نادى أبو سفيان وكان يومئذ مشركًا : أفي القوم محمد ؟

فقال ﷺ : ((**لا تجيبوه**))[٤].

٦ - ١٠ : التمويه :

فقد كان من خطته ﷺ في هجرته مع أبي بكر رضي الله عنه : ((أن يخرجا ليلاً إلى غار ثور في الجهة الجنوبية الغربية من مكة ، وفي هذا تمويه على الكفار ؛ لأن أنظارهم ستتجه للبحث عن رسول الله ﷺ في الجهة الشمالية - جهة المدينة - . وكذلك أمره لعلي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر ، الذي ينام فيه ، وذلك للتمويه [٥].

٧ - مَنْ الذي نستأمنه على أسرارنا ؟ :

---

(١) فقه السيرة للبوطي ، ص ١٧٨ ، وأصلها في البخاري ، حديث رقم : ٣٩٠٥ .
(٢) الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ ، ص ٩٩ .
(٣) انظر للتوسع المنهج الحركي للسيرة النبوية ، ص ٤٨ .
(٤) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، برقم : ٤٠٤٣ .
(٥) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٢٦٨ .

الأصل أن يبقى السر في صدر صاحبه ؛ لأن سرَّك أسيرك ، فإن تكلمت به صِرتَ أَسيره . كما قال أحد الأدباء : « من كتم سره ، كان الخيار له ، ومن أفشاه كان الخيار عليه » . ومع هذا « فإن من الأسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم ، واستشارة ناصح مسالم ؛ فليختر العاقل لسره أمينًا ، إن لم يجد إلى كتمه سبيلاً ، وليتحرَّ في اختيار من يأتمنه عليه ، ويستودعه إياه »[1] ، ويتأكد هذا التحري لموضع السرِّ إذا كان يتعلق بأسرار الدعوة وأماناتها فإن مسؤولية الانتقاء تعظم نظرًا لما يترتب على الإفشاء لغير الثقة الأمين من عواقب وخيمة .

وقد ذكر الإمام الماوردي - رحمه الله - جملة من الصفات التي لابد من توافرها لمن نفشي إليه بعض أسرارنا ونطلعه عليها فقال : « ومن صفات أمين السر :

أ - أن يكون ذا عقل حاد .

ب - ودين حاجز .

ج - ونصح مبذول .

د - ووُدٍّ موفور .

هـ - وكتومًا بالطبع .

فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة ، وتوجب حفظ الأمانة »[2] .

غير أن هناك شرطًا يتطلبه العمل الدعوي ، وهو أن نستشير به إخواننا الدعاة ليكون التأكد مما ذكره الماوردي على الشخص المراد اجتهادًا جماعيًّا ، نأمن فيه من اندفاع العواطف وزلل التسرع .

٨ - كيف يمكنك أن تكتم الأسرار ؟ :

هناك بعض الأسباب التي تعين المرء ليكون كتومًا لأسراره ، ومنها :

٨ - ١ : إدراك خطورة اللسان :

قد خفيت خطورة اللسان وعواقب الكلام على كثير من الأنام ، بل قد خفيت على معاذ رضي الله عنه حين قال لرسول الله ﷺ : « وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال له ﷺ : « **ثكلتك أمُّك ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم** »[3] .

وقد قال الشاعر :

---

(1) أدب الدنيا والدين ، ص ٢٦٨ .
(2) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .
(3) رواه الترمذي ، أبواب الإيمان ، باب ما جاء في حرمة الصلاة ، برقم : ٢٦١٩ ، وقال حديث حسن صحيح .

يموت الفتى من عثرة بلسـانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل

وفـي الحـديث : ((**إن العبـد ليتكلم بالكلمـة مـن سـخط الله تعـالى لا يُلقـي لهـا بالاً يهـوي بها في جهنم**)) [١] .

وربما كلمـة سر كشف سترها لسان مسترسل ثرثار سببت خسارة وكان فيها بوره ، وقد قيل : ((رُبَّ كلمـة قالت لصـاحبها دعنـي)) .. ويعظم المصـاب باللسان المنفلت حين تتعدى عواقب انفلاته إلى دعوة الله فيكون سببًا في انحسارها أو بطئ انتشارها ..

وإذا كان أبو لبابة قد أحسَّ بسوء كلمته ، فأراد أن يرى الله - عز وجل - صدق توبته ، وإخلاص نيته ، فربط نفسه بسارية من سواري المسجد ، فإن بعض الدعاة يكشف أسرارًا للدعوة دون أن يكون في قلبه معشار ما في قلب أبي لبابة من حسرة وندم على ما قال ؛ ولهذا فإن الداعية ينبغي أن يملك زمام لسانه كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ((والذي لا إله غيره ، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان)) . وقد كان من وصية أحد الصالحين :

أوصـيك في نظـم الكـلام بخمسـة إن كنـت للموصـي الشـفيق مطيعـا

لا تغفلـنَّ سـببَ الكـلامِ ووقتَـهُ والكيـفَ والكـمَّ والمكـانَ جميعـا

فهي خمسة ضوابط إذا أردت أن تتكلم لابد من الأخذ بها لكي تحسن ، جعلنا الله وإياك من الصالحين .

٨ - ٢ : تذكر عاقبة من كشف سرًّا :

إن الخيانـة والغدر واللؤم صفات ينفر منها الطبع السليم ، فضلاً عن المسلم المستقيم ، وقد اتفق العقلاء ، وأجمع الحكماء ، وأفتى الفقهاء على أن من كشف سرًّا اؤتمن عليه بغير حق فقد جمع من تلك الصفات حظًّا وافرًا . وقد قال الحسن بن علي - رضي الله عنهما - : ((إن من الخيانـة أن تتحدث بسر أخيك)) ، وجعل الغزالي - رحمه الله - كشف السر حرام إن كان فيه ضرر ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار [٢] . وقال

---

(١) رواه البخاري كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان ، برقم : ٦٤٧٨ .
(٢) كتمان السر وإفشاؤه ، ص ٢٦ .

الماوردي - رحمه الله - : « وإظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهاره سر نفسه لأَنْ يبوء بإحدى وصمتين : الخيانة إن كان مؤتمنًا ، أو النميمة إن كان مستودعًا » [1].

٨ - ٣ : احذر أن تخدش مروءتك :

كتمان السر من دلائل العقل وصفات النبل ، وصاحبه مرشح لنيل الهيبة والجلال . وقد يُبتلَى البعض بحب الظهور ، والولع بالبروز أمام الحضور ؛ فيذهب يكشف ما اؤتمن عليه من الأسرار ؛ ليُظهر التفوق أمام أقرانه ، وأنه قد خُصَّ بمعرفة ما لم يعرفوه ، وما علم بأن ذلك مسقط لمكانته في قلوبهم ، ومخل لمروءته وأمانته عندهم . فاحذر - أخي الكريم - أن يستزلك الشيطان لمثل هذا المنقلب .

٨ - ٤ : تعويد النفس على الصبر :

للنفس نزعات تتجاذبها ، ومشاعر تتقاذفها بين كتمان السر وإفشائه ، والصبور هو الذي يحسم المعركة ، ويخضع تلك النزعات لمصلحة دعوته وإخوانه ، فلا يكشف لهم سرًّا ، ولا يذيع لهم خبرًا كانوا قد ائتمنوه عليه ... وتعويد النفس على الصبر في القضايا اليومية مهم ؛ فلا تحدث بكل ما تشتهي نفسك أن تتحدث به ، وحاول مجاهدتها وإرغامها على الكتمان لبعض الأخبار تدريبًا لها ؛ والمقصد هو التعود على الكتمان ، فإن نجحت فارتق في سلم الكتمان كل يوم درجة .

٨ - ٥ : لا تحمل ما لا تطيق :

الأسرار أحمال ثقال فلا تحمل منها إلا ما تطيق حمله ، وتقدر على تبعاته ؛ فذلك أسلم لك ولدعوتك . وبعض الدعاة يتكلف الحصول على الأسرار فتجده يبحث عنها ويهتم بها ويضيق صدره إذا لم يصل إليها ، فإن حصل منها على بغيته تعب في كتمانه ، وضاق صدره عن إخفائها فأصبح كالإناء المثلوم . ولقد كان البعض من أئمة الدعوة وقادتها يعزف عن معرفة الأسماء ؛ خشية موقف يفتن فيه ، فيبوح بتلك الأمانات .. فأَعْرِض عن حمل ما لا تحتاج فإنه خير لك ولدعوتك ، فقد قال ﷺ : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** »[2][3] ، وقد قيل : « من حمل ما لا يطيق تعب » .

٨ - ٦ : التزم بالضوابط :

الثقة بشخص ليست كافية وحدها في استرسالك في ذكر أسرارك والكشف عن مخبوء أخبارك وأفكارك .. فلابد أن تضيف للثقة ضوابط أخرى لتأمن العواقب ، ومن تلك الضوابط :

---

(١) أداب الدنيا والدين ، ص ٣٠٧ ، نقلاً عن كتمان السر وإفشاؤه ، ص ٢٤ .
(٢) رواه الترمذي برقم : ٢٣١٧ ، وابن ماجة برقم : ٣٩٧٦ ، وحسنه الإمام النووي - رحمه الله - في الأربعين النووية ، وحسنه الأرناؤوط في تحقيق الأربعين (١ / ٢٨٧) .
(٣) انظر للتوسع : الكتمان وأثره في الحياة ، ص ٧٨ ــ ٧٩ .

أ - الحاجة أو المصلحة : فلا تكشف إلا لمصلحة تريد تحقيقها ، وحاجة تود إداركها من كشفك لسرك .

ب- إذا كان الكشف ضرورة ، فلا تكشف إلا بقدر تلك الضرورة أو الحاجة ؛ لأن الحاجات تنزل منزلة الضرورات أحيانًا .

ج - إذا كنت وكيلاً عن تلك الأسرار ، فلا تكشفها إلا بإذن من وكلك عليها .

٨ - ٧ : لا تنس الوصايا :

أ - لا تحدث بكل ما سمعت :

قال ﷺ : ((**كفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكل ما سمع**)) (١) .

ب - لا تبحث عن الأسرار :

قال ﷺ : ((**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**)) (٢) .

ج - ستر المسلم فضيلة :

قال ﷺ : ((**لا يستر عبدٌ عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**)) (٣) .

د - الأسرار أمانات فلا تخن من ائتمنك :

قال ﷺ : ((**إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة**)) (٤) .

هـ - لا تكن أسير سرك :

قال علي رضي الله عنه : ((سرُّك أسيرك ، فإن تكلمت به صِرت أسيره)) (٥) .

و - لا تُنكِحْ خاطب سرك :

قال الماوردي - رحمه الله - : ((وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع إليه ، ويؤثر الوقوف عليه ، فإن طالب الوديعة خائن)) .

قال صالح بن عبد القدوس :

لا تذع سرًّا إلى طالبه   منك فالطالب للسر مذيع

ز - احذر كثرة المستودَعين للسر :

---

(١) الصحيحة للألباني ، برقم : ٢٠٢٥ ، وعزاه في صحيح الجامع (٤٤٨٠) إلى أبي داوود والحاكم عن أبي هريرة .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه مسلم : كتاب البر والصلة ، باب بشارة من ستر الله عيبه في الدنيا ، برقم : ٢٥٩٠ .

(٤) رواه أبو داود ، كتاب الآداب ، باب نقل الحديث ، برقم : ٤٨٤٧ ، وكذلك الترمذي في أبواب البر والصلة برقم : ٢٠٢٥ ، وقال حديث حسن ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي .

(٥) أدب الدنيا والدين ، ص ٢٦٦ .

قال الماوردي : ((وليحذر كثرة المستودعين لسره ، فإن كثرتهم سبب الإذاعة ، وطريق الإشاعة لأمرين :

أحدهما : أن اجتماع هذه الشروط [يعني شروط من تستودعه سرك وقد سبق أن ذكرنا بعضًا منها] في العدد الكثير مُعوِز ، ولابد إذا كثروا أن يكون فيهم من أخل ببعضها .

الثاني : أن كل واحد منهم يجد سبيلاً إلى نفي الإذاعة عن نفسه ، وإحالة ذلك إلى غيره ؛ فلا يضاف إليه ذنب ، ولا يتوجه عليه عتب . وقد قال بعض الحكماء :

((كلما كثرت خُزَّان الأسرار ازدادت ضياعًا)) [1] .

٩ - بعض مجالات الكتمان :

٩ - ١ : كتمان الأسرار الزوجية :

الزوجان مستأمنان على أسرارهما ، وشؤون البيت لها خصوصية ينبغي أن تحاط بسياج من الكتمان . والله - عز وجل - وصف الصالحات بالحفظ فقال : ﴿ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ** ﴾ [2] .

فالمرأة الصالحة حافظة لنفسها ومال زوجها وسره ، وهي مستأمنة على هذا كله ، وقد عاتب الله - عز وجل - إحدى أمهات المؤمنين - رضي الله عنها - يوم أن أخبرت بسر رسول الله ﷺ فقال عز وجل : ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ [3] .

والحفاظ على الأسرار الزوجية مسؤولية مشتركة بين الزوجين . قال ﷺ : ((**إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشر سرها**)) [4]، ومعنى قول ﷺ : ((**إن من أعظم الأمانة**)) ، أي : أعظم خيانة الأمانة ، وشر الزوجين من ينشر سر صاحبه . ويُروى أن أحد الصالحين أراد طلاق امرأته فقيل له : ما الذي يريبك

---

(1) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .
(2) سورة النساء [٣٤] .
(3) سورة التحريم [٣ – ٤] .
(4) رواه مسلم كتاب النكاح ، باب تحريم إفشاء سر المرأة ، برقم : ١٤٣٧ .

فيها ؟ فقال : العاقل لا يهتك سر امرأته ، فلما طلقها قيل له : لِم طلقتها ؟ فقال : هي أجنبية ، والحديث عنها غيبة ، والغيبة حرام)) (١) .

٩ ـ ٢ : كتمان الإيمان :

قد يضطر المسلم إلى كتمان شخصيته المسلمة ؛ سواء كان ذلك في قضايا الاعتقاد أو في الهدي والسمت ؛ وذلك لما يترتب على الإعلان من مخاطر جسيمة ومفاسد عظيمة لتسلط الأعداء وجبروتهم . قال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ (٢) الآية ، وقد فعل ذلك بعض صحابة رسول الله ﷺ لتحقيق مصالح دعوية راجحة ، مثل : محمد بن مسلمة عندما أراد أن يقتل كعب بن الأشرف اليهودي ، فقد تظاهر بمناوأته لرسول الله ﷺ ؛ ليتمكن من كسب ثقة كعب به ، حتى إذا اطمأن إليه ووثق به قام بقتله (٣) .

٩ ـ ٣ : ((سرية الأبدان)) :

أي : التخفي وعدم الظهور بين الناس . ومن هذا النوع : تخفي أصحاب الكهف عن قومهم لئلا يفتنوا عن دينهم وعقيدتهم . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (٤) .

ولقد حاولوا كتمان أمرهم ، وإخفاء مكانهم بالتخفي والحذر كما قال قائلهم ما ورد في قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَـذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (٥)، ثم قال معللاً لهذه السرية وذلك الحذر بذكر المفاسد المترتبة على اكتشاف أمرهم فقال ـ كما أخبرنا الله عز وجل عنه في كتابه ـ : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (٦)، ولاحظ أن عدم الفلاح إنما هو للنكوص عن التوحيد الذي هم عليه إلى الشرك وليس للرجم ؛ لأن الرجم يعني الموت وهو شهادة وفلاح . وقد مرَّ بنا أن النبي ﷺ قد اختفى في

---

(١) سلسلة المنهاج : ٢ / ٥٢ .
(٢) سورة غافر [٢٨] .
(٣) سنفصل البحث في هذه القضية وضوابطها الشرعية في القائد ـ بإذن الله .
(٤) سورة الكهف [١٦] .
(٥) سورة الكهف [١٩] .
(٦) سورة الكهف [٢٠] .

الغار ثلاثة أيام فرارًا من ملاحقة أعدائه ، وكذلك اختفى بعض السلف الصالح عن بعض الولاة كسفيان الثوري وسعيد بن جبير .

٩ - ٤ : كتمان اللسان :

وأكثر الكتمان - إذا أطلق - يراد به ضبط اللسان وحجزه عن إفشاء الأسرار . قال يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - كما أخبرنا به عز وجل - : ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) ، وقال الله - عز وجل - في شأن زكريا - عليه السلام - : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (٢) ، وقال - عز وجل - في مريم : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ (٣) ، وقال - عز وجل - عن يوسف : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُون ﴾ (٤) .

٩ - ٥ : كتمان العبادات (الطاعات) :

عبادة السر أكثر إخلاصًا وأبعد لصاحبها عن الرياء ؛ ولهذا فقد فضلها الشارع على عبادة العلن إلا إذا كانت العلانية بها تحقق نفعًا ، فيتشجع متكاسل ويقتدي جاهل . قال الله - عز وجل - : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٥) ، وجاءت السنة الشريفة لتؤكد فضل عبادة السر ؛ لأنها أبعد عن لوثات الشرك وشوائب الرياء فقال ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ((**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**))(٦) .

وإذا كان ذلك في فعل الطاعات ، فإن اجتناب المحرمات في السر عظيم عند الله ، ودليل خوف من الله وعلامة إيمان به - عز وجل - ، وأنه مطلع على السر وأخفى ؛ ولهذا كان من السبعة المذكورين آنفًا حيث قال ﷺ : ((**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله**)) (٧) ؛ وذلك لأن اجتناب المنكر أمام الناس أمر يشترك فيه

---

(١) سورة يوسف [٥] .
(٢) سورة مريم [٩] .
(٣) سورة مريم [٢٦] .
(٤) سورة يوسف [٧٧] .
(٥) سورة البقرة [٧١] .
(٦) رواه البخاري : كتاب الأذان : باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، برقم : ٦٦٠ ، ورواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب فضل إخفاء الصدقة ، برقم : ١٠٣١ .
(٧) سبق تخريجه .

كثير من الناس ، بل حتى المنافقين ؛ ولكن التقوى حقًّا والخوف من الله صدقًا إذا أغلقت الأبواب وقالت السيئة : ((هيت لك)) ، فعندئذ يتميز الناس في تقواهم ويتفاوتون في إيمانهم .

وهناك من يعمل الطاعة سرًّا حتى إذا أصبح نشرها بين الناس لقلة صبره على كتمان عمله ، فيخرج العمل من ديوان السر إلى ديوان العلن ، وشتان بين الديوانين . قال تميم الداري ﷺ : ((والله لركعة أصليها في جوف الليل في سِرٍّ أحبُّ إليَّ من أن أصلي الليل كله ثم أقصه على الناس)) (١) . وقال محمد بن واسع - رحمه الله - : ((إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة ، ومعه امرأته ما تعلم به)) (٢) . قال ﷺ : ((**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**)) (٣) .

٩ - ٦ : كتمان التخطيط والحركة :

سرية التخطيط من أهم عوامل النجاح في العمل ؛ ولهذا قال ﷺ : ((**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان**)) (٤) ، والحديث يتضمن الدعوة إلى سرية التخطيط والتنفيذ معًا . وقد سلك أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم - هذا المسلك في الكثير من أعمال دعوتهم التي ينبني على إعلانها مفسدة .

وإليك بعض السرية في التخطيط والعمل :

أ – **يوسف – عليه السلام –** :

أراد - عليه السلام - أن يُربي إخوته فيدركوا خطأهم ، وسوء فعلهم معه ، فخطط لبلوغ هدفه ، فأحسن التخطيط والتقدير ، وأجاد في العمل والتنفيذ ، وكان لسريته وكتمانه في تخطيطه وعمله أثر بالغ - بعد فضل الله عليه - في نجاحه في إدراك مطلبه والوصول إلى غايته وهدفه .

- كتم شخصيته عن إخوته يوم دخلوا عليه فلم يعرفوه على الرغم من تميزه بالجمال ، وهو مما يجعل التكتم صعبًا ، ولكنه نجح في ذلك - عليه السلام - .

- وضع السقاية في رحل أخيه بعد أن اتفق معه سرًّا .

- لم يرد عليهم كذبهم عليه حين قالوا - كما أخبرنا عز وجل - : ﴿ **إِن يَسْرِقْ فَقَدْ**

---

(١) صفة الصفوة : ١ / ٧٣٩ ، عن الأخفياء ، المنهج والسلوك ، ص ٦١ .
(٢) الحلية : ٢ / ٣٤٧ ، عن الأخفياء ، المنهج والسلوك ، ص ٦٧ .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الزهد ، باب الزهد والرقائق ، برقم : ٢٩٦٥ .
(٤) انظر صحيح الجامع ، حديث رقم : ٩٤٣ .

سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ (١).

فلما بلغ ما يريد ولم يعد للسرية فائدة أو مصلحة قال : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢).

ب - كتمان إبراهيم لخطته في هدم الأصنام :

بعد أن استنفد جهده في إقناع القوم بأن هذه الآلهة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ، فما زادهم إلا إصرارًا عليها وتعلقًا بها . قال لهم : ﴿ وَتَاللهِ لأكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ (٣) ، فلما أراد أن يكسر أصنامهم ذهب إليها سرًّا ، كما قال عز وجل : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ (٤)، ومعنى راغ ، أي : مال عليهم سرًّا (٥).

ج – سرية الرسول ﷺ في هجرته :

وقد اتخذ ﷺ العديد من أساليب السرية : كالتخفي ، والتمويه ، وإعفاء الآثار ، ونحوها مما سبق أن أشرنا إلى بعضه فلا معنى للإعادة .

وبهداهم اقتدى الصالحون :

أ - فالخضر يكتم عن موسى أسباب خرقه للسفينة وقتله للغلام وبنائه للجدار .

ب- وأم موسى تكتم خبر طفلها الرضيع خشية أن يقتله فرعون : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٦) ، ومتابعتها لرضيعها بعد أن أصبح بيد فرعون ، وسريتها في تخطيطها ومتابعتها : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ (٧) .

ج- وأما في قصة غلام الأخدود ففيها الكثير من أساليب السرية في التخطيط

(١) سورة يوسف [٧٧] .
(٢) سورة يوسف [٩٠] .
(٣) سورة الأنبياء [٥٧] .
(٤) سورة الصافات [٩٣] .
(٥) انظر لسان العرب : ٣ / ١٧٧٩ .
(٦) القصص [٧] .
(٧) القصص [١١ – ١٢] .

والحركة والتنفيذ ينبغي للدعاة أن يقفوا عندها ويستفيدوا منها (١) . وكان مما جاء فيها قول الراهب للغلام : ((إن ابتُليت فلا تدل عليَّ)) (٢) ، يستفاد منه ((أنه لا ينبغي للمسلم الداعية أن يتكلم بكلام أو يخبر بخبر أو يفشي سرًّا يؤدي إلى إيذاء إخوانه المؤمنين ، ولو لقي في سبيل كتمان أسرار المسلمين العنت والمشقة والتعذيب ، وعليه ألا يدع طاقة مذخورة من صبره قبل أن يتكلم كلامًا أو يفشي سرًّا يؤذي المسلمين ويهتك أستارهم وأسرارهم)) (٣) .

٩ - ٧ : الإسرار بالنصيحة :

فإن من أسباب قبول النصيحة الإسرار بها للمنصوح كما قال الشاعر :

تعمدني بنصحك في انفرادي … وجنبني النصيحة في الجماعة

٩ - ٨ : كتمان الرؤيا المزعجة :

لقوله ﷺ : ((**إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله ، فليحمد الله عليها وليحدِّث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره**)) (٤) .

قال ابن حجر - يرحمه الله - : ((فحاصل ما ذكر من أدب الرؤيا الصالحة ثلاثة أشياء : أن يحمد الله عليها ، وأن يستبشر بها ، وأن يتحدث بها ؛ لكن لمن يحب دون من يكرهه)) . قلت : وهذا أسلوب من أساليب السرية والكتمان وهو أسلوب الاختيار أو الاصطفاء بمن يكون موضعًا للسر ، وقد مر بنا بأنه أسلوب من الأساليب النبوية في الكتمان ..

ثم قال ابن حجر - رحمه الله - : ((وحاصل ما ذكر من أدب الرؤيا المكروهة أربعة أشياء : أن يتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان ، وأن يتفل حين يهب من نومه عن يساره ثلاثًا ، ولا يذكرها لأحد أصلاً)) ، وهذا الأخير يعني أن تبقى هذه الرؤيا في طي الكتمان فلا يبوح بها لأحد ؛ لأنها إما يذكرها لمحبٍّ فيحزنه أو لعدو فيشمت به ، والله تعالى أعلم .

وقد ذكر ابن حجر - رحمه الله - أدبًا خامسًا : وهو الصلاة (والحديث في مسلم) (٥) ، وكذلك سادسًا : وهو التحول عن جنبه الذي كان عليه . وفي الجملة تكون

---

(١) من أفضل ما اطلعت عليه في استنباط فوائد قصة غلام الأخدود ، كتاب الابتلاء والمحن في الدعوات ، ص ١٥٧ .
(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي : ١٨ / ١٣٠ – ١٣٣ .
(٣) الابتلاء والمحن في الدعوات ، ص ١٦٩ .
(٤) رواه البخاري كتاب التعبير : باب الرؤيا من الله ، برقم : ٦٩٨٥ .
(٥) وكذلك في البخاري ، كتاب التعبير ، باب القيد في المنام ، برقم : ٧٠١٧ .

الآداب الواردة في الرؤيا المكروهة ستة [1] .

٩ - ٩ - سرية الأوراق والكتابة :

فقد يكتب الداعية في أوراقه الخاصة بعض الأسرار أو المعلومات المتعلقة بدعوته ، فعليه أن يحافظ على سريتها ، وأن يحفظ الأوراق في مكان أمين ، وأن ((يشفِّر)) كتابته بما يفهمه هو دون سواه من الناس ، وقد مر بنا حديث سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إذ كتب له رسول الله ﷺ كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين . وقد أخرج أبو داود في سننه حديثًا فيه : ((**من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر في النار**)) [2] ولكنه ضعيف ، ويمكن الاستدلال لهذه المسألة بعموم قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَجَسَّسُوا** ﴾ [3] ، والله أعلم .

٩ - ١٠ : كتمان الذنوب :

قال رسول الله ﷺ : ((**كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرين أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه**)) [4] .

١٠ - السرية والكتمان عند الأعداء :

لقد اهتم الأعداء بالسرية والكتمان في أعمالهم ومعلوماتهم ومخترعاتهم - ولا سيما العسكرية منها - اهتمامًا بالغًا ، وعنوا بذلك عناية فائقة ، وأسسوا مركز مكافحة تسريب الأسرار ، وشكلوا فرقًا تتضمن الآلاف من البشر للحفاظ على أسرارهم ، كما أنهم في الوقت نفسه حرصوا على معرفة أكبر قدر ممكن عن عدوهم ، والتجسس على أسراره ، والإحاطة بأسباب ضعفه ومكامن نقصه ، وأنفقوا في سبيل ذلك المليارات ، بل لا تعجب أن جعل الأمريكان شعارهم في السرية مفهوم حديث رسول الله ﷺ : ((**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان**)) [5] ، فكان شعارهم في الحرب العالمية الثانية : ((الكتمان يعني النجاح)) . فقد ذكر صاحب كتاب كواليس الحرب السرية [ص٢١٢] :

---

(1) انظر الفتح : ١٢ / ٣٧٠ .
(2) رواه أبو داود : كتاب الصلاة ، باب الدعاء ، برقم : ١٤٧١ ، وهو حديث ضعيف ضعفه ابن حجر في الفتح (١١ / ٤٧) .
(3) سورة الحجرات [١٢] .
(4) رواه البخاري : كتاب الآداب ، باب ستر المؤمن على نفسه ، برقم : ٦٠٦٩ ؛ ورواه مسلم : كتاب الزهد ، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه ، برقم : ٢٩٩٠ .
(5) انظر صحيح الجامع ، حديث رقم : ٩٤٣ .

● وفي الحرب العالمية الثانية كان عشرات الألوف من الأمريكيين منصرفين إلى أعمال تستدعي سرية مطلقة تحت شعار « الكتمان يعني النجاح » ، وشكلت المخابرات الأمريكية هيئة من الموظفين السريين ، لقبوا (باللامنظورين) ، وكان على فريق اللامنظورين جميعًا أن يتبعوا في اتصالاتهم رموزًا سرية تتجدد بشكل مستمر ، وكان عليهم أن يجروا تحقيقًا دقيقًا حول المدراء والعمال في جميع المؤسسات الخاصة التي تستعين بها مؤسسة الأبحاث ؛ بغية إحباط كل محاولة قد يقوم بها الجواسيس ، وفي كل مساء كانوا يتأكدون من أن أي ورقة لا تبقى في المكاتب ، وأن جميع الأدراج والأبواب قد أغلقت بالمفتاح . وطبق مبدأ الصمت على جميع المشتغلين في المشروع بوسائل مختلفة ، وكان على الستمائة ألف شخص الذين يسهمون في مشروع « منهاتن » أن يتعهدوا تعهدًا خطيًّا بالمحافظة على الصمت المطلق .

● وفي الحرب العالمية الثانية أيضًا استطاع « تشرشل » نقل الخزينة البريطانية إلى كندا ، وشحنت موجودات الخزينة البريطانية في (٣٧) رحلة بحرية ، وأشرف على العملية (٦٠٠٠) موظف وألوف البحارة وعمال الميناء وآلاف الجنود للحراسة وعشرات السفن البحرية ، ومع ذلك لم يذع لهذه الرحلة كلمة سر واحدة [١] .

[أما واقعنا نحن المسلمين اليوم مع الكتمان والسرية فهو واقع مزرٍ] .

● في حرب العرب اليوم مع يهود تجد أن الإعلام العربي يكشف كثيرًا من الأمور التي يستفيد منها يهود ، وفي اللحظة التي أظهرت أجهزة الإعلام العربية الشيء الكثير قبل حرب حزيران تجد أن صحف يهود كانت تصور جنودها في ملابس السباحة على شواطئ البحار ، وكانوا يتكلمون عن السلام والاطمئنان والهدوء في اللحظة التي كانوا فيها أشد إعدادًا واستعدادًا للحرب » [٢] .

١١ - حديث في السرية والكتمان والدروس المستفادة منه :

قال الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - : « باب قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال أبو ذر : كنت رجلاً من غفار ، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فقلت لأخي : انطلق إلى هذا الرجل كلمه ، وائتني بخبره ؛ فانطلق فلقيه ثم رجع ، فقلت : ما عندك ؟ فقال : والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير ، وينهى عن الشر . فقلت له : لم تشفني من الخبر . فأخذت جرابًا وعصًا ثم أقبلت إلى مكة ، فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه ، وأشرب من ماء

---

(١) نقلاً عن آفات اللسان ، ص ٨٨ – ٨٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨٩ .

زمزم ، وأكون في المسجد . قال : فمر بي عليّ ، فقال : كأن الرجل غريب ! قال : قلت : نعم . قال : فانطلق إلى المنزل ، قال : فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره ، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه ، وليس أحد يخبرني عنه بشيء . قال : فمر بي عليّ ، فقال : أما نال للرجل يعرف منزله بعد ؟ [١] قلت : لا . قال : انطلق معي . قال : فقال : ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : فقلت له : إن كتمت عليّ أخبرتك . قال : فإني أفعل . قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج هنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخي ليكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه ، فقال له : أما إنك قد رُشدت هذا وجهي إليه فاتَّبِعني ، ادخل حيث أدخل ، فإني إن رأيت أحدًا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي وامضِ أنت ، فمضى ومضيت معه ، حتى دخل ودخلت معه على النبي ﷺ فقلت له : أعرض عليّ الإسلام فعرضه ، فأسلمت مكاني . فقال لي : يا أبا ذر اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل . فقلت : والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم ، فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال : يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ [٢] ، فقاموا فضُرِبت لأموت ، فأدركني العباس فأكب عليّ ، ثم أقبل عليهم فقال : ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ومتاجركم وممركم على غفار ! فأقلعوا عني . فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ ، فصنع مثل ما صنع بالأمس وأدركني العباس فأكبَّ عليَّ ، وقال مثل مقالته بالأمس . قال : فكان هذا أول إسلام أبي ذر - رحمه الله -)) [٣] .

وفي قصة إسلام أبي ذر دروس وعبر ، منها :

١ - أن أبا ذر رضي الله عنه كره أن يسأل الناس عن رسول الله ﷺ ، وكتم الأمر في حين أنه ارتحل من أجل أن يلتقي برسول الله ﷺ . وفي السؤال عن رسول الله ﷺ احتمالات كثيرة ؛ فربما يؤذون من يسأل عن رسول الله ﷺ ، أو يحولون بينه وبين الاجتماع به ، أو يخذلونه ويتقولون عليه بالأقاويل ، فيخدعونه حتى يرجع عنه ، وأن القوم يكرهون ظهور أمر رسول الله ﷺ ، فلربما استعملوا هذه الوسائل جميعها مع كل من يريد أن يتعرف أو يلتقي برسول الله ﷺ ، فكتم أبو ذر الأمر ولم يسأل ليرى الفرصة الأنسب والطريقة الأفضل .

٢ - ومع أن عليًّا رضي الله عنه كان في الثانية عشرة من عمره فإنه استطاع أن يستقل بمخاطبة رجل غريب واستضافته وما زاد عليٌّ أن قال : ما آن للرجل أن يعلم

---

[١] أي : أما حان ودنا للرجل أن يعرف مكانه الذي نزل فيه .
[٢] أي : التارك لدينه ، وأصل الصابئ الخارج من دين إلى دين آخر .
[٣] رواه البخاري : كتاب المناقب ، باب إسلام أبي ذر ، برقم : ٣٥٢٢ .

منزله (آن وحان بمعنى واحد) ؟ أما حان للرجل أن يعرف مقصده وهدفه ؟ فقال له أبو ذر : لا .

وعليٌّ ﷺ استضاف أبا ذر ثلاث ليالٍ ولم يحدث أحدهما صاحبه عن شيء ، فلربما تلك الليالي الثلاث كافية أن يجد فيها أبو ذر فرصته للحديث ليصل إلى هدفه بأقصر وأسلم الطرق ، ولربما كان ينتظر من الشاب الفتي عليّ أن يحدثه عن الأمر دونما أن يكشف هو من جانبه شيئًا ، ولربما كان عليٌّ ينتظر من الرجل أن يبدأ هو ، وكلاهما كان من الحرص والحذر وكتم الأمر عن صاحبه مع أن أمر رسول الله ﷺ هو الشغل الشاغل لكل متحدث في ذلك الوقت .

٣ - وسؤال علي لأبي ذر بكلماته المحدودة هو بداية الحديث : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ ولكن أبا ذر طلب موثقًا وعهدًا وفي كلمة ((لترشدنني)) فيه صفة التأكيد على التأكيد والموثق على الموثق والعهد على العهد ، وحينما أعطاه الميثاق والعهد تحدث أبو ذر عن الذي أقدمه إلى مكة .

٤ - وفي طريقة الوصول إلى رسول الله ﷺ علامات وإشارات ليتم الأمر بسرية وكتمان - فإني إن رأيت شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، وفي رواية قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي وامضِ أنت - وفي كلمة (اتبعني) ، فهذه دروس وإشارات تدل على التكتم الشديد في قضاء الحوائج والوصول إلى الأهداف .

٥ - وفي أمر رسول الله ﷺ لأبي ذر بالكتمان فهو أمر ليس للوجوب ، وإنما على سبيل الشفقة على أبي ذر ﷺ ، إلا أن أبا ذر أعلمه أن به قوة على ذلك ؛ ولهذا أقره النبي ﷺ على ذلك .. [١] .

١٢ - أسئلة حول الكتمان :

١٢ - ١ : هل الدعوة السرية مشروعة ؟(فتوى لسماحة الشيخ ابن باز - رحمه الله -).

سئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز : هل الدعوة السرية مشروعة عند الحاجة إليها ؟ وما هي الضوابط لها ؟

فأجاب سماحته : ((إذا كان يخشى - أي الداعية - على نفسه في بلد لا يسمح له بذلك ، يدعو إلى الله سرًّا ؛ حتى لا يضر نفسه ، وحتى لا يضر الدعوة . أيضًا

---

(١) آفات اللسان ، ص ٨٠ - ٨١ ، ينظر لمزيد من التوسع في كتاب ((أبو ذر الغفاري)) لمنير الغضبان .

إذا كان ممنوعًا يدعو إلى الله سرًّا في المجالس التي يرى أنها مناسبة للدعوة فيها ، إذا كان عنده علم وبصيرة : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ** ﴾ ، لابد أن يتهم نفسه ، ويتأكد أنه عنده علم - قال الله ، قال رسوله - فيدعو إلى الله سرًّا مع إخوانه ، مع الجهات التي يجتمع بهم في بيوتهم في اجتماعاتهم الخاصة ؛ أداءً لما أوجب الله من التبليغ . الله - جلَّ وعلا - أمر بالدعوة إليه - سبحانه وتعالى - وأكد ذلك في كتابه العظيم ، وهكذا رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ؛ حتى ينشر الحق ، حتى يعلم الناس الحق ، حتى يهتدوا إليه ؛ فإذا سكت العالِم ، وسكت العالِم الآخر ؛ فمن يدل الناس ومن يرشدهم إلى الحق والهدى ›› [1] أ.هـ .

١٢ - ٢ : هل يجوز للمرأة أن تكشف بعض أسرارها الزوجية للقاضي أو من تريد أن تستفتيه ؟

نعم يجوز لها ذلك كما فعلت هند - رضي الله عنها - عندما قالت للنبي ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح ؛ فهل عليَّ جناح أن آخذ من ماله سرًّا ؟ قال : ‹‹ **خذي أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف** ››[2] ، ولكن مع هذا إن رأت التعميم فهو أفضل كأن تقول : ما تقول في امرأة عند زوج فيه كذا وكذا ..

١٢ - ٣ : هل يشرع التشهير بأصحاب التصانيف المضلة والأفكار المنحلة من العلمانيين والحداثيين ؟

الجواب : قد بيَّنا مشروعية ذلك في مبحث (٣ – ٢) ، وذكرنا أنه قد يتعين التشهير بأرباب البدع والأفكار المضلة ، لا سيما إذا صار لها رواج بين عوام المسلمين ؛ حتى يحذروها ويدركوا خطرها على عقائدهم وأخلاقهم [3] . والأصل الضابط لمسألة التشهير هو المصلحة الراجحة ؛ ولذا قال الإمام النووي في شرح مسلم : ‹‹ تباح الغيبة لغرض شرعي لستة أسباب ›› ثم سردها .. والجامع بين تلك الأسباب هو وجود المصلحة الراجحة ، فإذا وجدت في التشهير فيتعين [4] .

خامسًا : بعض المقترحات العملية للتأكيد على معاني الدرس :

١ - كتمان بعض المناشط التربوية واللقاءات الدعوية .

٢ - الاهتمام بأمر الأوراق والمذكرات اليومية والمحافظة على ما فيها من أسرار مكتوبة .

---

(١) مجلة الإصلاح الإماراتية ، عدد : ٢٤١ ، وتاريخ : ٢٧ / ١٢ / ١٤١٣هـ ، نقلاً عن حث الأخيار على حفظ الأسرار ، ص ٩٦ – ٩٧ .

(٢) رواه البخاري : كتاب البيوع ، باب : من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم ، برقم : ٢٢١١

(٣) انظر للتوسع الإعلان المشروع والممنوع في الفقه الإسلامي ، ص٩١ .

(٤) الإكفار والتشهير ضوابط ومحاذير ، ص ٧٣ .

٣ - التقليل من الاتصالات الهاتفية .

٤ - عدم ترك الأجهزة الهاتفية مفتوحة خلال اللقاءات التربوية .

٥ - الابتعاد عن المظاهر التي تلفت الانتباه .

٦ - التقليل من التجمعات الكثيرة العدد ، لا سيما في الدول التي تحارب الدعوة .

٧ - صلاة السنن والرواتب في البيت اقتداء بالنبي ﷺ ؛ لأنه أخلص للنية ، وأبعد عن الرياء ، وأكتم للعمل الصالح ، وليكون لبيوتنا حظ من الذكر الذي تنفر منه الشياطين ، وحتى لا تكون كالمقابر أو البيوت المهجورة .

٨ - استخدام التشفير في الكتابة واللحن في الأقوال للحفاظ على الأسرار من الكشف .

٩ - أخذ دورة في التربية الأمنية لدى بعض المؤسسات التي تهتم بهذا الشأن .

١٠ - الاطلاع على بعض الكتب التي تكشف ما للأعداء من أجهزة تصنت وتجسس ، وتشير إلى بعض طرق التجسس ؛ لتوسيع المعرفة في هذا الجانب ، وهو ما يعطي المرء قدرة على وضع الخطط الوقائية لمنع الاختراق لأسراره وعمله .

سادسًا : بعض مراجع الموضوع :

١- كتمان السر وإفشاؤه في الفقه الإسلامي ، شريف بن أدول بن إدريس ، دار النفائس ، ط١ .

٢- حث الأخيار على حفظ الأسرار ، عبد الإله بن إبراهيم بن داود ، دار الصميعي ، ط١ .

٣- الأخفياء : المنهج والسلوك ، وليد باحكم ، دار الأندلس الخضراء ، ط١ .

٤- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، الإمام الحافظ أبو حاتم البستي ، مكتبة نزار الباز ، ط١ .

٥- الإكفار والتشهير ضوابط ومحاذير ، عبد الله الجوعي ، دار الوطن ، ط١ .

٦- أدب الكتمان وحفظ السر ، إبراهيم بن محمد ، دار الصحابة للتراث ، ط٢ .

٧- دروس في الكتمان من الرسول القائد ، محمود شيت خطاب ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .

٨- سلسلة المناهج (ج٢) ، هاشم محمد ، مكتبة دار البيان ، ط٢ .

٩- صيد الخاطر ، ابن الجوزي ، دار اليقين ، ط١ .

١٠- الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ ، محمد محمد البيلي ، مكتبة السندس ، ط١ .

١١- كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسؤولية الأمراء ، محمد فهمي عبد الوهاب ، دار

الاعتصام .
١٢- الطريق إلى جماعة المسلمين ، حسنين محسن جابر ، دار الدعوة ، ط١ .
١٣- محمد رسول الله ﷺ ، محمد الصادق إبراهيم عرجون ، دار القلم ، ط١ .
١٤- الابتلاء والمحن في الدعوات ، محمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، ط٢ .
١٥- مصلحة الكتمان ، يوسف المطلق ، دار العاصمة ، ط٢ .
١٦- أدب الدنيا والدين ، علي بن محمد الماوردي ، مكتبة التوفيقية .
١٧- أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي ، مؤسسة الرسالة .
١٨- الأخلاق الإسلامية ، عبد الرحمن الميداني ، ط٤ .
١٩- خلق المسلم ، محمد الغزالي ، الاتحاد الإسلامي العالمي .
٢٠- العوائق ، محمد أحمد الراشد ، مؤسسة الرسالة ، ط٨ .
٢١- فقه السيرة ، محمد سعيد البوطي ، دار الفكر ، ط٨ .
٢٢- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، مهدي رزق الله أحمد ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط١ .
٢٣- آفات اللسان ، إبراهيم المشوخي ، مكتبة المنار ، ط٢ .
٢٤- الذريعة إلى أحكام الشريعة ، الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
٢٥- فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ، فضل الله الجيلاني ، المكتبة السلفية ، ط٣ .
٢٦- الكتمان وأثره في الحياة ، علي علي محمد ، دار الإسراء ، ط١ .
٢٧- الآداب الشرعية والمنح المرعية ، ابن مفلح ، مؤسسة قرطبة .
٢٨- إحياء علوم الدين ، الإمام الغزالي ، دار المعرفة .
٢٩- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ابن قيم الجوزية ، دار المعرفة [١ / ٣٨٦ - ٣٩١] .
٣٠- محاولات اغتيال النبي ﷺ ، عبد المنعم الهاشمي ، مكتبة البخاري ، ط١ .
٣١- المنهج الحركي للسيرة النبوية ، منير الغضبان ، مكتبة المنار ، ط١ .
٣٢- قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية ، أحمد راتب عرموش ، دار النفائس ، ط١ .
٣٣- قادة النبي ﷺ ، محمود شيت خطاب ، دار القلم ، ط٢ .

٣٤- المـنهج التربـوي للسـيرة النبويـة (التربيـة الجهاديـة) ، منيـر الغضـبان ، مكتبـة المنار ، ط١ .
٣٥- إسلامنا ، السيد سابق ، دار الكتاب العربي .

بالإضافة إلى عشرات المراجع في الفقه والتفسير والحديث وشروحه .. إلخ .

هـمـة

الهمة

أولاً : دلالة المصطلح :

أ - لغة :

- قال ابن منظور في لسان العرب :
  - همَّ بالشيء يهمُّ همًّا : نواه وأراده وعزم عليه .
  - والهَمّة والهِمّة : ما همَّ به من أمر ليفعله .
  - والهمام اسم من أسماء الملك لعظم همته ، وقيل : لأنه إذا همَّ بأمرٍ أمضاه لا يُردُّ عنه بل يُنفذ كما أراد [1] .
- وفي المصباح : ((الهِمَّة بالكسر : العزم ، وقد تطلق على العزم القوي ، فيقال : له همةٌ عالية)) [2] .

ب - اصطلاحًا :

- قال الجرجاني : الهمّ : هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يُفعل من خير أو شر . وقال الهمة : توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيره [3] .
- وقيل : الهمة : هي الطاقة الكامنة في الإنسان التي تحركه لفعل الأشياء ؛ سواء كانت في مجال الخير (وهي الهمة العالية) ، أو في مجال الشر (وهي الهمة السافلة) .

- وعلو الهمة : هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور [4] .

- وقيل الهمة العالية : هي الطاقة الذاتية التي تدفع المرء لفعل عظائم الأمور التي يعجز عنها من يماثلونه في العمر والظروف .

أما المسلم الذي يتباطأ أو لا يجد دافعًا لعمل الخير فهو ذو همة ضعيفة [5] .

- وقال الراغب الأصفهاني - رحمه الله - : ((والكبير الهمة على الإطلاق هو من لا

---

(1) لسان العرب : ٦ / ٤٧٠٣ باختصار ، وانظر أيضًا معجم مقاييس اللغة : ٦ / ١٣ .
(2) بصائر ذوي التمييز : ٥ / ٣٤٩ ، عن صلاح الأمة في علو الهمة : ١ / ١١ .
(3) التعريفات ، ص ٣٢٠ .
(4) وسائل الإصلاح : ٢ / ٨٦ ، عن علو الهمة ، محمد المقدم ، ص ٧ . وما سنذكره في هذا البحث يتعلق بالتركيب الإضافي ((علو الهمة)) .
(5) المصفى من صفات الدعاة ، ص ٢٣ .

يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه ؛ فلا يصير عارية ببطنه وفرجه ، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من أولياء الله وخلفائه في الدنيا ، ومن مجاوريه في الآخرة » [1] .

جـ - المصطلحات المقاربة :

- العزيمة : قال الراغب الأصفهاني : « عقد القلب على إمضاء الأمر » [2] .
- الإرادة : « تَهَيّؤُ القلب والعقل بشدة ، وعزم لإحداث الفعل أو عدم إحداثه » [3] .
- الحماسة : « الاشتداد في إرادة التعبير أو التعبير عن قناعة قلبية أو حاجة عاطفية ، ويكون في أعمال الدنيا والآخرة » [4] .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف من عرض هذا الموضوع إلى عدة أمور ، منها :

١ - التأكيد على ضرورة علو همة الداعية ، وقوة إرادته ، ونشدانه للكمال ، وترفعه عن الدنايا والسفاسف .

٢ - الحث على أسباب علو الهمة وقوة الإرادة ونمائها ، والتحذير من مثبطاتها ومعوقاتها ، وعوامل ضعفها ووهنها .

٣ - دفع الداعية إلى استغلال جميع إمكاناته وملكاته ، واستثمار مواهبه وطاقاته للارتقاء بنفسه ، والقيام بحق أمته وواجب دعوته .

٤ - غرس صفة الاستشراف للأمثل والأفضل ، ونشدانه الوصول للأكمل ، وعدم الرضا بالدون ، والنفور من القعود والجمود ، والسكون والركود الذي يعطل الطاقات ويهدد المواهب والملكات بذكر دلائل علو الهمة وقوة العزيمة .

٥ - التأسي بأصحاب الهمم العالية من العلماء العاملين ، والدعاة الصادقين والمجاهدين الثابتين ، والاقتداء بهم ، وشحذ الهمم ، وإيقاد الحماس بذكر سيرهم ، وما كانوا عليه من جدٍّ وعزيمة ، وهمة عالية وقوة شكيمة .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١ - ماذا نعني بعلو الهمة ؟

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ص ١٩٠ ، نقلاً عن المصفى من صفات الدعاة ، ص ٢٣ .
(٢) مفردات القرآن ، ص ٥٦٥ .
(٣) موسوعة نضرة النعيم : ٨ / ٣١٩٦ .
(٤) الحماس الذي نريد ، ص ٩ .

٢ - أهمية علو الهمة لدى الداعية .
٣ - الحث على علو الهمة في الكتاب والسنة .
٤ - من دلائل علو الهمة .
٥ - من أسباب علو الهمة .
٦ - مثبطات وعوائق .
٧ - نماذج من سير أصحاب الهمم العالية :
٧ - ١ : في طلب العلم .
٧ - ٢ : في الدعوة .
٧ - ٣ : في الجهاد .

رابعًا : العرض [1] :

١ - ماذا نعني بعلو الهمة ؟ (انظر دلالة المصطلح) .

٢ - أهمية علو الهمة لدى الداعية :

٢ - ١ : إن علو الهمة صفة بارزة للقدوات من الدعاة ، وقد أمر الله - عز وجل -رسوله بالاقتداء بهم فقال : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [٢] ، وأولو العزم من الرسل قال عنهم ابن عباس : ((ذوو الحزم والصبر)) ، قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - .

((فكأن الله يقول لرسوله ﷺ : اصبر ، أي : كن صادقًا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم ، واثقًا بنصرة مولاك مثل ثقة موسى [أي : عندما قال : كلا إن معي ربي سيهدين] ، زاهدًا في الدنيا مثل زهد عيسى [قيل : إنه لم يضع لبنة على لبنة في بناء ، وقال : إنها مَعْبر فاعبروها ولا تعمروها])) [2] . فنوح صبر على أذى قومه مدة طويلة ، وإبراهيم صبر على النار وفي ذبح الولد ، وموسى صبر على التشرد وأُبعد عن أهله وصبر على أذى فرعون ...

٢ - ٢ : إن علو الهمة من أكبر أسباب تفاوت أهل الإيمان في درجاتهم عند ربهم وقربهم منه ومنزلتهم عنده . قال تعالى : ﴿ **لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي**

---

[1] هذا الموضع ألقيته في محاضرة قبل عدة سنوات (تقريبًا ١٤١٢هـ) ؛ ولذلك هناك اقتباسات لم أستطع معرفة مراجعها .
[2] انظر الجامع لأحكام القرآن القرطبي : ١٦ / ٢٢٠ – ٢٢١ .

الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) . وكلما علت الهمة وخلصت النية ارتفعت الدرجة وشرفت المنزلة وسمت المكانة : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) . ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلا ﴾ (٣) .. علم وإيمان وجهاد هي سلم الارتقاء في مدارج الكمال .

٢ - ٣ : إن علو الهمة ميزان يوزن به الناس عامة ، والدعاة خاصة ، قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : ((إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور)) . وهذا مأخوذ من قوله ﷺ : ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) (٤). وبتفاوت الهمم تجد في الناس : الدكتور و الزبال ، ونجد في ميدان الدعوة الداعية الذي يحفظ القرآن ويسعى لحفظ الصحيح ، ويحرص على متون الفقه حفظاً ودراية ، وآخر لم يتم بعد حفظ جزء عمَّ وتبارك .. ونجد الداعية الفقير الذي ينفق ماله - على حاجته إليه - في سبيل الدعوة ، وآخر غني ولكنه بخيل ، يماطلك في دفع اليسير من راتبه ، وهنت عزيمته ، وهبطت همته حتى لامست التراب .

٢ - ٤ : إن أصحاب الهمم العالية هم أقدر الناس على الوفاء بتكاليف الجنة وتجاوز المكاره التي حفت بها : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) . وقد قال ﷺ : ((حفت الجنة بالمكاره ...)) (٥)، فطرق الجنة تحتاج إلى همة عالية تتجاوز مفاوزه ، وتتغلب على مصاعبه ، وتصابر على مكارهه . قال ابن القيم - رحمه الله - : ((لابد للسالك من همّة تسيّره وترقّيه ، وعلم يبصّره ويهديه)) .

٢ - ٥ : إن الحديث عن علو الهمة علاج ناجح لتلك الأنفس الفاترة ، والعزائم الخائرة ، والطاقات المهدرة ، والعقول المعطلة لبعض الملتزمين - فضلاً عمن دونهم - ليس لهم في الأسحار إلا الوسائد ، ولا في الأبكار إلا الجرائد .. ضعفت ثقتهم بأنفسهم فقعدوا ، ولم يستشعروا مسؤوليتهم تجاه أمتهم ودعوتهم فتخلفوا وفتروا . وقد قال عمر رضي الله عنه :

---

(١) سورة النساء [٩٥] .
(٢) سورة المجادلة [١١] .
(٣) سورة طه [٧٥] .
(٤) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم ، برقم : ٢٥٦٤ .
(٥) رواه البخاري ومسلم .

((لا تصغرن همتك فإني لم أرَ أقعد بالرجل من سقوط همته)) . وقد قيل : ((المرء حيث يجعل نفسه ، إن ارتفع بها ارتفعت ، وإن قصُر بها اتضعت)) .

ويقول الشاعر :

إذا هبت رياحُك فاغتنمها   فإن لكل خافقة سكونًا

٢ - ٦ : حال بعض الدعاة من وهن الهمة وبرود العاطفة ، قضى سحابة يومه في شأن دنياه وأهله وأبنائه ، فإذا ذكرته بدعوته اعتذر وقال شغلتنا أموالنا وأهلونا ، سبحان الله .. أوليس كل واحد عنده مال وأهل ؟ ! وهل السلف المجاهدون والدعاة العاملون ليس عندهم مال ولا أهل ؟ ! .

٢ - ٧ : حاجة الأمة إلى أصحاب الهمم العالية ، والعزائم الراقية في سماء الإيمان ، والعمل لنصرة الملة والذب عن حياض العقيدة ونشر رواق الدعوة ، وما أصاب الأمة من أدواء إلا بسبب سفول الهمم .

قال إقبال :

همم الأحرار تحيي الرمما   نفحة الأبرار تحيي الأمما

ثم قال : كل داء في سقوط الهمم (١) .

وبعد : ((فكبر الهمة يجلب لك - بإذن الله - خيرًا غير مجذوذ ، ويجري في عروقك دم الشهامة والركض في ميدان العلم والعمل ، فلا تُرى واقفًا إلا على أبواب الفضائل ، ولا باسطًا يديك إلا لمهمات الأمور .. إن التحلي بكبر الهمة يسلب منك سفاسف الآمال والأعمال ، ويجتث منك شجرة الذل ، والهوان والتملق والمداهنة .. فارسم لنفسك كبر الهمة ولا تنفلت منها)) (٢) .

٣ - الحث على علو الهمة في نصوص الكتاب والسنة (٣) :

تواردت نصوص القرآن والسنة الشريفة على حث المؤمنين على ارتياد معالي الأمور ، والتسابق في الخيرات ، وتحذيرهم من سقوط الهمة .

ومن تلك النصوص :

٣ - ١ : ذم ساقطي الهمة وتصويرهم في أبشع صورة : قال الله تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**

---

(١) الرقائق : ص ١٤٥ .
(٢) حلية طالب العلم ، ص ١٣٥ بتصرف ، نقلاً عن علو الهمة للمقدم ، ص ١٣٨ .
(٣) ملخصًا من ((علو الهمة)) ، للدكتور محمد إسماعيل المقدم ، ص ١٢٦ .

وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(1) .

٣ - ٢ : ذم المنافقين المتخلفين عن الجهاد لسقوط همتهم ، وقناعتهم بالدون : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾(2) ، وبَيَّن أنهم لسقوط همتهم قعدوا عن الجهاد فقال : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾(3) .

٣ - ٣ : وشنّع على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ويجعلونها أكبر همهم وغاية علمهم ، باعتبار هذا الإيثار من أسوأ مظاهر خسة الهمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾(4).

٣ - ٤ : عرض نماذج لسير أصحاب الهمم العالية من الأنبياء وأتباعهم .. فقد عرض الكثير من مواقف الأنبياء وجهادهم وصبرهم ومثابرتهم ، ثم قال - عز وجل - : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾(5) .

كما عرض صورًا من مواقف أتباعهم ، مثل : موقف مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه ، وأولئك القلة من جند طالوت الذين قالوا – ما أخبرنا به عز وجل - : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ﴾ ، فكان عاقبة صبرهم وإيمانهم وعلو همتهم ما أخبرنا به - عز وجل - : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ .

٣ - ٥ : وصف أولياءه الذين كبرت هممهم في مواطن البأس والعزيمة والثبات على دين الله بالرجال وقال - عز وجل - : ﴿ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾(6) .

وقال - عز وجل - : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾(7) .

---

(1) سورة الأعراف [١٧٥ – ١٧٦] .
(2) سورة التوبة [٩٣] .
(3) سورة التوبة [٤٦] .
(4) سورة التوبة [٣٨] .
(5) سورة الأنعام [٩٠] .
(6) سورة النور [٣٦ – ٣٧] .
(7) سورة الأحزاب [٢٣] .

٣ ـ ٦ : حث عباده على علو الهمة ، وذلك من خلال الحث على المسابقة إلى الخيرات كما قال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وأما في السنة فقد ورد الكثير من الأحاديث التي تحث على علو الهمة ، والتسابق إلى المعالي ، ومنها :

٣ ـ ٧ : ترك العجز والتكاسل والاستعانة بالله على الوصول إلى العمل النافع . قال ﷺ : ((**احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز**))(١).

٣ ـ ٨ : الدعوة إلى معالي الأمور والبعد عن السفاسف : قال ﷺ : ((**إن الله تعالى يحب معالي الأمور ، ويكره سفاسفها**)) (٢) .

قال المناوي ـ رحمه الله ـ : (((معالي الأمور) هي الأخلاق الشرعية والخصال الدينية ، لا الأمور الدنيوية ، فإن العلو فيها نزول))(٣).

٣ ـ ٩ : الحث على أن يكون همُّ المؤمن الاستعداد للآخرة : قال ﷺ : ((**من كانت الآخرة همة ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ؛ ومن كانت الدنيا همه ، جعل فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له**)) (٤) .

٣ ـ ١٠ : بعث الهمة للتنافس في الخيرات ، ومن الأمثلة : البدار إلى المسجد والصلاة في الصف الأول : ((**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه ، لاستهموا ؛ ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ؛ ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوها ولو حبوًا**)) (٥) .

٤ ـ من دلائل علو الهمة :

هناك دلائل وعلامات لأصحاب الهمم العالية ، تكشف عن سمو هممهم وقوة عزائمهم ، نذكرها من أجل أن يحرص المرء على تربية نفسه عليها ، ومجاهدتها للتخلق بها :

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه الطبراني ، وصححه الألباني (الصحيحة ٩٤٨) .
(٣) فيض القدير : ٢ / ٢٩٥ .
(٤) رواه الترمذي ، وصححه الألباني .
(٥) رواه البخاري ومسلم .

٤ - ١ : لا يقف عند العوائق :

صاحب الهمة العالية لا يستسلم للعوائق التي تعترض سبيله ويتجاوزها للوصول إلى هدفه ..

أ - العمى على الرغم من شدة إعاقته ، وصعوبة تجاوزه ؛ إذ لا غنى للمرء عن رؤية يبصر بها طريقه ، ويصل بها إلى حاجته ، ويقرأ بها ما يزيد حظه من العلم والأدب - فإن عالي الهمة لا يقف عند هذا العائق : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ [1]، وأبت همة الأعمى إلا أن يجيء النبي ﷺ يسعى دون تباطؤ - رضي الله عنه وأرضاه - .

ومن المعاصرين أصحاب الهمم ممن ابتلي بهذا العائق فتجاوزه بعلو همته حتى فاق الكثير من المبصرين - سماحة العلامة شيخنا ابن باز - نوّر الله ضريحه وقدّس روحه - :

- حفظ القرآن قبل البلوغ .
- إذا سألته عن حديث من الكتب الستة أجابك عنه سندًا ومتنًا .
- له علم بأحوال الرجال ، حتى قال لبعض تلامذته عن كتاب « تهذيب التهذيب » - قال : « ربما حفظت ٨٠ % منه » .
- حضرت دروسه بعد الفجر ، فكنت أنصرف منها في الساعة الثامنة صباحًا ، وهو لا زال في دروسه ينتهي من كتاب فيبدأ الطالب بالقراءة من كتاب آخر ، وقد تجاوز السبعين .

ب – كبر السن :

وقد يعتذر أقوام بكبر سنهم على ضعف همتهم وفتور حماسهم ، ولكن أصحاب الهمم العالية أيضًا لم يقف بهم كبر سنهم عن طلب المعالي . قال الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه في كتاب العلم : « وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في الكبر » .

● وذهب القفال الشاس - وعمره أربعون - لطلب العلم ، ثم قال : كيف أطلب العلم ؟ ومتى أحفظ ؟ ومتى أفهم ؟ ومتى أعلِّم الناس ؟ ! فرجع فمرَّ بصاحب ساقية يسوق على البقر ، وكان الرِّشاء يقطع الصخر من كثرة ما مرَّ .. فقال :

اطلب ولا تضجر من مطلب ... فآفة الطالب أن يضجَرا

أما ترى الحبل بطول المدى ... على صليب الصخر قد أثرا

---

[1] سورة عبس [١ - ٢] .

فاستمر يطلب العلم حتى أصبح من كبار أئمة الشافعية .

وقال عنه الذهبي - رحمه الله - في السير : " الإمام العلامة ، الفقيه الأصولي اللغوي ، عالم خرسان ، إمام وقته بما وراء النهر ، وصاحب التصانيف .. سمع من ابن خزيمة وابن جرير الطبري ، والبغوي .

جـ – الفقر :

ولم يقف هذا العائق أمام هممهم العالية حائلاً ، ولا كان لهممهم موهنًا .

وإليك بعض أخبارهم :

- أكرى الإمام أحمد نفسه حمالاً إلى اليمن ليصل إلى عبد الرزاق الصنعاني صاحب المصنف (١) .
- الإمام مالك نقض سقف بيته فباع خشبه .
- الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - قال : ((أبطأت عني نفقة والدي فاضطررت إلى أن فتقت كُمَّيْ قميصي فبعتهما)) (٢) .

٤ - ٢ : يأخذ نفسه بالعزائم :

لا يميل صاحب الهمة العالية إلى الرخص إلا إذا دعت الحاجة .. قال الهروي - رحمه الله - في منزلة ((الرغبة)) : ((وتمنع أصحابها من الرجوع إلى غثاثة الرخص)) . قال ابن القيم - رحمه الله -: ((أهل العزائم بناء أمرهم على الجد والصدق ، فالسكون منهم إلى الرخص رجوع وبطالة)).

قال سليمان التيمي : ((لو أخذت برخصة كلِّ عالم ، اجتمع فيك الشرُّ كله)) . وقال ابن عبد البر : ((هذا إجماع لا أعلم فيه خلافًا)) . وقال إبراهيم بن شيبان : ((من أراد أن يتعطل ويتبطل فليلزم الرخص)) (٣) .

ولعلك تريد مثلاً على أحد مواقف أصحاب الهمم في الرخص وحملهم لأنفسهم على العزيمة ، فإليك ما رواه ابن المبارك في الزهد عن صاحب الهمة الإمام عبد الله بن حبيب مقرئ الكوفة ؛ إذ أصابه مرض أقعده ، فلم يستطع المشي ؛ فكان يأمر مَنْ حوله أن يحملوه في الطين والمطر إلى المسجد وهو مريض . فاجتمعت عنده رخصة الطين والمطر ورخصة المرض ، ومع هذا أخذ بالعزيمة فلم يدع صلاة الجماعة في المسجد تفوته .

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١٦ / ٢٨٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء : ١٤ / ٢٧٤ - ٢٧٥ .
(٣) انظر لمزيد من هذه الأقوال والآثار ((صلاح الأمة في علو الهمة)) : ١ / ٦١٥ - ٦١٧ ، وكتاب ((زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء)) ، الجاسم الدوسري ، والتعالم للشيخ بكر أبو زيد ، ص ٨٩ – ٩٠ .

٤ ـ ٣ : البعد عن سفاسف الأمور والتقلل من المباحات والملهيات(١) :

فالسيوطي ـ رحمه الله ـ كانت له نافذة تطل على النيل ، شغله طلبه للعلم عن فتحها والتمتع بالنظر إلى جمال الماء وطيب المنظر أكثر من عشر سنوات ! ! .

- قال الإمام عيسى بن موسى : ((مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق ، فلا أقدر على ذلك لأجل البكور إلى سماع الحديث)) (٢) .
- قال السبكي ـ رحمه الله ـ : ((قال والدي لأمي : هذا الشاب ـ يعنيني ـ ما يطلب درهمًا قط ولا شيئًا ، فلعله يرى شيئًا يريد أن يأكله فضعي في منديله درهمًا أو درهمين . فوضعت نصف درهم ، فظل في جيبي جمعة أو جمعتين ثم أخرجته وقلت : أيش أعمل بهذا ؟ خذوه عني)) (٣) .
- قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : ((قال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية في شيء من المباح : هذا ينافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة ، فالعارف يترك كثيرًا من المباح برزخًا بين الحلال والحرام)) (٤) .

٤ ـ ٤ : يستدرك ما فاته ويبكي على ما مضى :

من صفات أهل الهمم العالية استدراكهم لما فاتهم من أعمال البر ، فالاستدراك سنة ؛ إذ كان سيد البشر ﷺ يستدرك ما فاته من ورده في الليل بسبب مرض أو وجع فيؤديه في النهار كما روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عنه ﷺ ، وقد جاء في حديث عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**من نام عن حزبه من الليل ، أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، كُتب له كأنما قرأه من الليل**)) (٥) .

وقد فات أنس بن النضر ـ صاحب الهمة العالية ـ شرف المشاركة في غزوة بدر فقال مستدركًا لما فاته : ((يا رسول الله ، غِبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن اللهُ أشهدني قتال المشركين ليرَيَنَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر ، إني لأجد ريحها من دون أحد . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، قال أنس [بن مالك راوي الحديث

(١) الهمة طريق إلى القمة ، ص ٤١ ، وانظر للتوسع الأخلاق الإسلامية وأسسها : ٢ / ٤٩٠.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة : ١ / ٢٩٨ ، عن ((الهمة طريق القمة)) ، ص٥٠.
(٣) طبقات الشافعية : ١٠ / ١٤٤ ، بتصرف عن الهمة طريق القمة ، ص ٦٢.
(٤) المدارج : ٢ / ٢٦ ، عن الهمة طريق القمة ، ص ٦٣ .
(٥) رواه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض ، برقم : ٧٤٧ .

يخبر عن عمه أنس ابن النضر] : فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثّل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه)) [١] .

وكذلك فعل الكثير من مسلمي الفتح ممن تأخر إسلامهم فراحوا يستدركون ما فاتهم من الخير : كأبي سفيان ، وعكرمة - رضي الله عنهما - إذ كان يقول بعضهم : ((ما أنفقت نفقة في الصدِّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفيها في الإسلام)) .

٤ - ٥ : يحسن إدارة وقته :

يستثمر حياته ، ويستغل عمره في طاعة الله والعمل لدينه ؛ يخطط لساعات يومه ، ويوظفها للغاية التي خُلق من أجلها . وسنذكر عدة نماذج لأصحاب الهمم في حسن استثمارهم لأعمارهم في مصطلح الوقت - إن شاء الله - فلتراجع هناك .

٤ - ٦ : الرصيد الإيماني :

صاحب الهمة العالية قوي الإيمان ، راسخ الاعتقاد ، وهو في ازدياد دائم : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [٢] .

فهذا ديدن أصحاب الهمم العالية ، يزدادون في كل يوم إيمانًا وعملاً ؛ فترسخ باليقين قلوبهم ، وتثبت على الحق أقدامهم .

٤ - ٧ : الارتقاء العلمي :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [٣] ، فالعلم قرين الإيمان ، يدل عليه ويهدي إليه ؛ ولذلك فهم لا يشبعون منه . قال ابن الجوزي - رحمه الله - : ((ولو قلت إني طالعت عشرين ألف مجلدًا كان أكثر ، وأنا بعد في الطلب)) ، ويقول : ((وإني أخبر عن حالي ، ما أشبع مطالعة الكتب ، وإذا رأيت كتابًا لم أره فكأني وقعت على كنز)) .

٤ - ٨ : أداء الواجبات وتحمل المسؤوليات :

أصحاب الهمم العالية لا يخلون في واجب ، ولا يتهربون من مسؤولية .

٤ - ٩ : الاهتمام بواقع الأمة والسعي لإصلاحه :

ليس بمعزل عن قضايا أمتهم وآلامها ، يفرحون لفرحها ، ويحزنون لمصابها ، ويدفعهم ذلك الشعور إلى العمل لرفعتها وعزها واستعادة سؤددها وكرامتها .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب قول الله تعالى [آية الأحزاب : ٢٣] ، برقم : ٢٨٠٥ .
(٢) سورة الأنفال [٢] .
(٣) سورة محمد [١٩] .

٤ - ١٠ : استكمال النقص والتطلع إلى الكمال [١] :

فصاحب الهمة العالية دائم السعي لاستكمال نقص نفسه ، وتحصيل الكمال وبلوغ الغاية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

قال الحافظ ابن الجوزي - رحمه الله - : ((ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه ، فلو كان يُتَصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض ، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد لرأيت المقصر في تحصيلها في الحضيض)) .

قال المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس شيئًا كنقص القادرين على التمام

٤ - ١١ : المسارعة في الخيرات والتنافس في الصالحات [٢] :

قال الله تعالى : ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [٣] .

٥ - من أسباب علو الهمة :

إن الارتقاء بالهمة والعلو بها عن السفاسف يحتاج إلى جهد ومجاهدة وصبر ومصابرة ، وهناك بعض الأسباب التي لها أثر كبير في كبر الهمة وارتفاعها :

٥ - ١ : العلم :

((العلم يعلي الهمة ، ويرفع طالبه العامل به . قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [٤] ، فهو يرشد طالبه إلى العمل ويحث عليه ، كما يعرفه بمخاطر الطريق وعوائق السبيل ، ويحذره من آفات القعود وأمراض الجمود .

فكلما ازداد العلم وخلصت النية علت الهمة وازداد العمل ؛ ولهذا كانت همم العلماء الصادقين أكبر من غيرهم عملاً ودعوة وجهادًا .

٥ - ٢ : الذكر :

من أفضل أسباب قوة القلب ، وعلو همته ذكر الله ودوام الصلة به بأنواع العبادات . قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - وهو يعدد فوائد الذكر :

((السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب .

---

(١) راجع التوسع ، الأخلاق الإسلامية وأسسها : ٢ / ٥٠٣ .
(٢) انظر المصفى من صفات الدعاة ، ص ٢٦ .
(٣) آل عمران [١١٤] ، انظر للتوسع الأخلاق الإسلامية وأسسها : ٢ / ٤٩١ .
(٤) سورة المجادلة [١١] .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله تعالى روحه - يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسمك ؛ فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟ !

السابعة عشرة : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته .

وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله - تعالى - إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إليَّ وقال : هذه غدوتي ، ولو لم أتغد الغداء ، سقطت قوتي . أو كلامًا قريبًا من هذا .

وقال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجماع نفسي وإراحتها ؛ لأستعدُ بتلك الراحة لذكر آخر . أو كلامًا هذا معناه » [١] .

٥ - ٣ : الدعاء :

وهو من خير الأسلحة التي يقاوم بها فتور الهمة وضعف العزيمة .

أ - ولذلك كان يدعو رسول الله ﷺ : « **اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن** .. » [٢] .

ب - وصعد عمر بن الخطاب ذات يوم المنبر فقال : « أيها الناس إني داع فأمِّنوا : اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك فقوني وارزقني النية الحسنة » [٣] .

وهكذا على المسلم أن يرفع يديه إلى السماء ، ويدعو أيضًا في سجوده .

٥ - ٤ : صحبة أهل الهمم العالية :

الإنسان بطبعه شديد التأثر بمن حوله ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** » .. « فالطيور على أشكالها تقع ، وكل قرين بالمقارن يقتدي ، وإن العبد ليستمد من لحظ الصالحين قبل لفظهم ؛ لأن رؤيتهم تذكره بالله - عز وجل - . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [٤] ، قال : « **هم الذين يُذكر الله لرؤيتهم** » [٥] .

عن جعفر قال : « كنت إذا وجدت من قلبي قسوة ، نظرت إلى وجه محمد بن

---

(١) الوابل الصيب .
(٢) انظر صحيح الجامع ، حديث رقم : ١٢٨٩ .
(٣) العقد الفريد : ٤ / ٦٥ .
(٤) سورة يونس [٦٢] .
(٥) رواه أبو نعيم في أخبار أصبهان ، والواحدي والديلمي ، كما في السلسلة الصحيحة برقم : ١٦٤٦ .

واسع نظرة ، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجه ثكلي)) .

أنـــــت في النــــــاس تقــــاس بالــــــذي اخـــــترت خلــــــيلا

فاصـــــحب الأخيـــــار تعلـــــو وتنـــــــل ذكـــــــرًا جمـــــــيلا

● قال الإمام ابن عقيل الحنبلي صاحب كتاب ((الفنون)) [يقع في ثمانمائة مجلدة] :

((وعصمني الله من عنفوان الشبيبة بأنواع من العصمة ، وقصر محبتي على العلم وأهله ؛ فما خالطت لعّابًا قط ، ولا عاشرت إلا أمثالي من طلبة العلم)) .

فالحريص الموفق الذي يروم المعالي ، لا تراه إلا مع أهل العلم العاملين ، وأولي الفضل والمجاهدة والحكمة والبصيرة ؛ ليرشح عليه ما هم فيه أو بعضه ، فيكون مثلهم أو قريبًا منهم (١) .

٥ ـ ٥ : تذكر اليوم الآخر :

تذكر الموت وسكراته ، والقبر وضمته ، والحشر وكربته والصراط وزلته . هذه المواقف تبعث في القلب الهمة .. توقظه من غفلته ، وتبعثه من رقدته وسكرته ؛ ولذا كان من أسلوب القرآن للحث على العمل وبعث الهمم التذكير باليوم الآخر وبالجنة والنار . تدبر قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (٢)، وكان ﷺ يذكر أصحابه بالجنة والنار كما روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه عن طلحة الأسدي .

وذكر ابن إسحاق في خبره عن يوم بدر قال : ((ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم ، ونفل كل امرئ منهم ما أصاب [أي : جعله له نفلاً] ، وقال : ((**والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابرًا محتسبًا ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة**)) ، فقال عمير بن الحمام ـ أحد بني سلمة ـ وفي يده تمرات يأكلهن : بخٍ بخٍ ! فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ! فقذف من يده وأخذ السيف ، فقاتل القوم حتى قُتل وهو يقول :

---
(١) علو الهمة ، للمقدم ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٥ ، باختصار .
(٢) سورة آل عمران [١٣٣] .

ركضـــــــــاً إلى الله بغيـــــــــر زاد	إلا التقـــــى وعمـــــــل المعـــــاد
والصـــــبر في الله علـــــى جهـــــاد	وكـــــل زاد عرضـــــة النفـــــاد
غـــــير التقـــــى والـــــبر والرشـــــاد	إن التقـــى مـــن أعظـــم الســـداد

ثم حمل ، فلم يزل يقاتل حتى قُتل **! !**

وهكذا سلف هذه الأمة كانوا يذكرون أنفسهم كلما فترت هممهم في الطاعات بالجنة والنار ؛ فهذا أحدهم قد حفر قبرًا في بيته يدخل فيه ثم يخرج ، فيقول : ((يا نفس ها قد وهبت فرصة للعمل والتوبة .. فبادري بالعمل)) ، وبعضهم إذا دعته نفسه للنوم عن قيام الليل ، قال لها : ((يا نفس إن وراءك رقدة طويلة)) .

٥ - ٦ - القراءة في سير الصالحين :

كان بن المبارك - رحمه الله - في جيل أتباع التابعين ؛ ولكنه مع ذلك كان يجالس أصحاب رسول الله ﷺ من خلال قراءة أخبارهم وآثارهم .. ((افتقده بعض أصحابه من مجلسه فقال له : مالك لا تجالسنا . فقال ابن المبارك : أنا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين)) ((وأشار إلى كتبه)) [1] ، فأنت إذا قرأت في سير أولئك جنيت ثمرات كثيرة وفوائد عديدة ، منها :

أ - معرفة منهجهم .

ب- الاطلاع إلى ما وصلوا إليه من همة عالية : انظر في ترجمة أحمد بن حنبل - رحمه الله - وقد قال أبو زرعة لعبد الله بن أحمد بن حنبل : ((كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث)) ، فأي همة هذه **؟ !** .

جـ- الاقتداء بهم في اهتمامهم بالدعوة إلى الله :

((دخل شيخ الإسلام السجن فوجد المساجين مشغولين بأنواع من اللعب .. فما زال يدعوهم إلى الله حتى تكونت في السجن عدة حلق ، بل وصار بعض المساجين - بعد أن أطلقوا - من طلابه وتلاميذه واللازمين له ..)) [2] .

- فتقرأ أن الشافعي كان يختم في رمضان ستين ختمة .
- وتقرأ أن سعيد بن المسيب كان يبادر أربعين سنة إلى الصف الأول ، ((ما

---

(١) الوقت عمار أو دمار ، جـ١ ، ص ٤٤ .
(٢) تزكية النفس ، لأبي البراء البراء سعد بن محمد ، ص ٩١ .

أذن المؤذن إلا وهو في المسجد)) .

- وتقرأ أن بعض السلف صام صيام داود لم تعلم به زوجته .. يخرج في الصباح إلى العمل ولا يعود إلا بعد المغرب .
- وتقرأ في سيرة علي بن الحسين : عندما مات غسلوه فجعلوا ينظرون إلى آثار سود في ظهره ، فقالوا : ما هذا ؟ ! فقال لهم أهله : كان يحمل جُرَب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء المدينة .
- الحسن بن علي بن شقيق ، قال : ((خرجت مع ابن المبارك بعد صلاة العشاء فتذاكرنا حديثاً ، فما زال بنا الحديث حتى جاء المؤذن لأذان الصبح)) .
- ولذا نقل عن بعض السلف قوله : ((النظر في كتب السير وأخبار الرجال أحبُّ إلينا من كثير من أبواب الفقه)) .
- ولعل ما في القراءة في سير الصالحين وسماع أخبارهم من أثر هو الذي دفع معاوية رضي الله عنه أن يقول لضرار الصدائي : ((صف لي عليًّا)) ، فبدأ يصف عليًّا حتى وصل إلى قوله : ((وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضًا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرِّي غيري .. إليّ تعرضت ؟ ! أم إليّ تشوقت ؟ هيهات هيهات ! قد طلقتك ثلاثًا لا رجعة فيها ؛ فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك جليل ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق ..)) . فبكي معاوية وقال : ((رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ !)) ، قال : ((حزن من ذبح ولدها في حجرها)) .

٥ - ٧ : استشعار المسلم لحجم المسؤولية الملقاة عليه : ((**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ..**)) [١] .

- أنت مسؤول عن نفسك ، عن عمرك ، عن شبابك ، عن مالك ، عن علمك .
- أنت مسؤول عن أهل بيتك .
- أنت مسؤول عن مجتمعك .

وما سفلت الهمم إلا عندما غفل الناس عن مسؤولياتهم ، وفرّطوا في واجباتهم .. قف أيها المتواني مع ذلك الرجل الذي قال عنه الحق - عز وجل - : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ

(١) انظر صحيح الجامع ، حديث رقم : ٤٥٦٩ .

أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (١) .

إن إحساس هذا الرجل بمسؤوليته تجاه الدعوة هو الذي جعله يأتي :

أ - من أقصا المدينة .

ب - يسعى ((قال الشيخ السعدي : أي راكضًا على قدميه)) .

ج - ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ .. الاطلاع على الواقع .

د - ﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ، فإحساسه بمسؤوليته تجاه الدعوة لم يكن حبيس قلبه ، ولم يكن مجرد عواطف لا رصيد لها من العمل .

((أترى هذا الرجل يخاطر بنفسه ، ويتعبها لولا أنه استشعر مسؤوليته تجاه دعوة الله وتجاه الدعوة إلى الله ؟ !

كـــلا رويـــدك يا طبيـــب وقـــد ســـألت أمـــا اســـتراح

هـــل يســـتريح الحُـــر يُـــوقر صـــدره العـــبء الـــرزاح

هل يستريح من امتلأ قلبه بالحسرة على تفريطه في الأيام الماضية .

هل يستريح من امتلأ صدره بالحزن على ما آلت إليه أمته المسلمة .

وكيف يستريح وهو يرى الأعداء دنسو المقدسات ، وهتكوا الأعراض ، وسلبوا الأموال ؟ !

لا يستريح إلا صاحب همة دنية وعزيمة رديئة ؛ ولذلك عندما اعتذر الرسول ﷺ لأولئك النفر أصحاب الهمم العالية والنيات الصادقة ، اعتذر إليهم لعدم وجود ما يحملهم عليه ليجاهدوا في سبيل الله .. قال الله تعالى : ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٢) .

٦ - مثبطات وعوائق :

٦ - ١ : الذنوب والمعاصي :

قال ابن القيم - رحمه الله - : ((فالذنب يحجب الواصل ، ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته ، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي

---

(١) سورة القصص [٢٠] .
(٢) سورة التوبة [٩٢] .

ستسيِّره ، فإذا زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه ، فالله المستعان)) (١) .

وكذلك فإن الذنوب ((تصغر النفس وتقمعها ، وتدسِّيها وتحقرها ، حتى تصير أصغر شيء وأحقره ، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها . قال الله تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ (٢) ، والمعنى : قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها ، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله)) (٣)؛ فالذنوب توهن العزائم ، وتضعف الهمم ، وتظلم القلب ، وتخفت نور الهداية والبصيرة ، وتذهب بالعلم . قال الضحاك - رحمه الله - : ((ما نعلم أحدًا حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ (٤) الآية .

فإذا رأيت أن همتك قد قصرت عن قيام الليل وتلاوة القرآن والمداومة على الأذكار فاعلم أن ذنوبك هي التي قيدتك .. ((جاء رجل إلى الحسن فسأله قائلاً : يا أبا سعيد : إني أبيت معافى ، وأحب قيام الليل ، وأعد طهوري ؛ فما بالي لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك)) (٥) .

قال الثوري : حُرمت قيام الليل مرة بذنب أذنبته ! فقال أحد تلامذته : وما ذاك الذنب ؟ فقال : رأيت رجل يبكي . فقلت في نفسي : هذا مراء .

قال سليمان الداراني : ((لا تفوت أحدًا صلاة الجماعة إلا بذنب)) .

٦ - ٢ : الخوف والهم والحزن :

آفات قلبية وعوائق نفسية توهن الهمة وتضعف الإرادة ، وتقود إلى الخور والفتور ؛ ولهذا فقد كان النبي ﷺ يُكثر من الاستعاذة منها فيقول : ((**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والبخل والجبن ، وضلع الدَّين وغلبة الرجال**))(٦) . قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : ((فالهم والحزن قرينان ، فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهمّ ، وإن كان من أمر ماضٍ قد وقع ، أحدث الحزن .

والعجز والكسل قرينان : فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح ، إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل .

---

(١) الداء والدواء ، ص ١٤٠ .
(٢) سورة الشمس [٩ - ١٠] .
(٣) الداء والدواء ، ص ١٤٩ .
(٤) سورة الشورى [٣٠] .
(٥) الإحياء : ١ / ٣٥٦ .
(٦) رواه البخاري : كتاب الدعوات ، باب التعوذ من غلبة الرجال ، برقم : ٦٣٦٣ ، ورواه مسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره ، برقم : ٢٧٠٦ .

والجبن والبخل قرينان ، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن ، وإن كان بماله فهو البخل .

وضلع الدَّين وقهر الرجال قرينان ، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدَّين ، وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال)) (١) .

وقال بعض السلف : ((ما دخل همُّ الدَّين قلبًا إلا أذهب من العقل ما لا يعود)) (٢) .

والمراد بـ ((ضلع الدَّين : ثقل الدين وشدته ، وذلك حيث لا يجد مَن عليه الدين وفاءً ، ولا سيما مع المطالبة)) (٣) .

٦ ـ ٣ : فتنة الفقر أو الغنى :

كلاهما قد يشغل القلب عن غايته والوصول إلى هدفه ، وربما يشتت همته ، ويفرق جمعيته ؛ ولهذا فقد استعاذ النبي ﷺ من شر الفتنة بهما فقال : ((**اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار ، وفتنة القبر وعذاب القبر ، ومن شر فتنة الغِنى ، ومن شر فتنة الفقر**)) (٤) .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ : ((**(من شر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر)** ؛ لأنهما حالتان تخشى الفتنة فيهما بالتسخط وقلة الصبر ، والوقوع في حرام أو شبهة للحاجة ، ويُخاف في الغنى من الأشر والبطر والبخل بحقوق المال ، أو إنفاقه في إسراف أو في باطل أو في مفاخر)) (٥) .

- وقال ﷺ : ((**لا يحقرن أحدكم نفسه**)) ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال : ((**يرى أمرًا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه ، فيقول الله – عز وجل – له يوم القيامة : ما منعك أن تقول فيَّ كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس . فيقول : فإياي كنتَ أحقَ أن تخشى**)) (٦) .

٦ ـ ٤ : اليأس والتشاؤم :

عندما يرى فريق من الدعاة تفوق الأعداء ، وتفرق الأصدقاء ، والتضييق على

---

(١) الداء والدواء ، ص ١٤٠ – ١٤١ .
(٢) فتح الباري : ٧ / ١٧٤ .
(٣) فتح الباري : ٧ / ١٧٤ .
(٤) رواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر الفتن ونحوها ، برقم : ٥٨٩ .
(٥) صحيح مسلم : ٤ / ٢٠٧٨ (بالهامش) .
(٦) رواه ابن ماجة ، برقم : ٤٠٠٨ ، وقال عنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤ / ١٨٢) : هذا إسناد صحيح ، ورواه أحمد أيضًا في المسند : (٣ / ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٨..) من حديث أبي سعيد .

الـدعاة ، وتشـريدهم ، والـزج بهـم فـي السـجون ، ونحوهـا مـن الابـتلاءات ، ييأسـوا ويتشاءموا ويدب الوهن إلى قلوبهم ؛ فتضعف هممهم ، ويقعدوا عن العمل ، ويفقدوا الأمل .. على الرغم من انتصارات الدعوة والبشائر التي تبدو في الأفق ؛ ولكن يأبى بعضهم إلا النظرة المتشائمة .

[تنبيه : يمكن إيراد بعض الأحاديث التي تدل على البشارة بانتصار الحق وبقاء الرفعة والعزة لأهل الحق الصادقين وجند الإسلام العاملين المخلصين الموحدين ، مثل قوله ﷺ : ((**لا تزال طائفة في أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي وعد الله**)) أو كما قال ﷺ ..] .

وقد قيل : ((من استطال الطريق ضعف مشيه)) [1] .

٦ ـ ٥ : مجالسة القاعدين :

مجالس البطالين والقاعدين توهن العزائم وتضعف الهمم بما يعلق في القلب من أقوالهم من الشبه ، وما يحصل بمجالستهم من ضياع للوقت ، وإشغال بتوافه الأمور .. وكلما أردت العمل ثبطك وقال : ((أمامك ليل طويل فارقد)) .

٦ ـ ٦ : الإكثار من الطعام والنوم والكلام :

((لأن الشبع من أسباب موت القلوب وصدئها ، كما قال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ : لكل شيء صدأ ، وصدأ القلب شبع البطن)) .

ولهذا كان الصالحون يحرصون على عدم الشبع ، وألا يأكلوا إلا بنية التقوّي على العبادة والطاعة ؛ وذلك لأنهم يأكلون ليحيوا ، لا يحيون ليأكلوا ، حتى بيّن الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ منهجه في الطعام فقال : ((ما شبعت منذ ست عشرة سنة ؛ وسبب ذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب ، وكثرته جالبة :

١ ـ للنوم .
٢ ـ والبلادة .
٣ ـ وقصور الذهن .
٤ ـ وفتور الحواس .
٥ ـ وكسل الجسم ، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعية)) .

وقد أكد عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى وبيّن أن من أسباب ضعف الهمة والتكاسل عن العمل الصالح كثرة الأكل حين قال : ((أيها الناس ، إياكم والبطنة من

---

(1) الفوائد ، ص ١٠٣ .

الطعام ، فإنها مُكسلة عن الصلاة ، ولن يَهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه ›› (١) .

قال الإمام البنا - رحمه الله - : ‹‹ المجاهد الذي ينام ملء جفنيه ، ويأكل ملء ماضغيه ، ويضحك ملء شدقيه ، ويقضي وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا فهيهات أن يكون من الفائزين ، أو يكتب في عداد المجاهدين ›› (٢) .

٦ - ٧ : الانشغال الكثير بالدنيا :

‹‹ لابد للمرء من اشتغال بشيء من الدنيا ليكفَّ به نفسه عن سؤال الناس ، وقد كان أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم - يعملون بأيديهم ويتكسبون ›› (٣) ؛ ولكن الشين هو الانشغال بها والركض وراءها واللهث الدائم عليها ابتغاء المزيد من متاعها . قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ (٤) .

فضعيف الهمة لا تراه إلا مشغولاً بأمر دنياه ، مفرّطًا في أمور أخراه . ومما يُروى : ‹‹ أن الكلب قال للأسد : يا سيد السباع ، غيّر اسمي فإنه قبيح ، فقال له : أنت خائن ، لا يصلح لك غير هذا الاسم . قال : فجربني ، فأعطاه شقة لحم وقال : احفظ لي هذه إلى غد وأنا أغير اسمك . فجاع وجعل ينظر إلى اللحم ويصبر ، فلما غلبته نفسه قال : وأي شيء باسمي ؟ وما كلب إلا حسن ، فأكل ›› . يقول ابن الجوزي معلقًا : ‹‹ وهكذا يقع ضعيف الهمة ، القنوع بأقل المنازل والمراتب ، المختار عاجل الهوى والراحات على أجل الفضائل ، فلابد من ترك بعض المشتهيات والشهوات والرغبات في هذا الطريق ، والمخلطون صرعى من أول وقت اللقاء كالكلب مع الأسد ›› (٥) .

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : ‹‹ إذا أردت أن تعرف مراتب الهمم فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ، وقد قال له رسول الله ﷺ : ‹‹ **سلني** ›› . فقال : أسألك مرافقتك في الجنة . وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه ، أو يواري جلده ›› . فلا يكن همك وهمتك مقصورين على تحصيل ما يملأ البطن أو يواري الجسد ، نعوذ بالله من سفول الهمم .

٦ - ٨ : كثرة الانشغال بالأهل :

---

(١) لا أذكر المرجع الآن ، وفيه تصرف يسير . راجع تذكرة السامع والمتكلم في آداب العلم والمتعلم للكناني ، ص ٧٤ .
(٢) عن الفتور ، لجاسم مهلهل ، ص ٤٠ .
(٣) للتوسع في هذا المعنى انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها : ٢ / ٥١٨ وما بعدها .
(٤) سورة التوبة [٢٤] .
(٥) لا أذكر المرجع الآن .

فريق من الدعاة فرطوا في حق أهليهم وقصَّروا في تربيتهم والقيام بحقهم حتى أصبح البيت عندهم ((كالفندق)) لا يأوون إليه إلا في هجيع الليل ، وليس لزوجاتهم حق عندهم إلا في الفراش ، وأحيانًا حتى هذا الأخير يقصرون فيه ، وإلى جانب هؤلاء هناك فريق أسرفوا في الاهتمام بأهليهم وأبنائهم وإنجاز رغباتهم وتحقيق شهواتهم حتى قصروا في حق أنفسهم ودعوتهم ، واهتمامهم هذا المبالغ فيه إنما يكون في أمور الدنيا وشهواتها .. لا في دعوتهم وتربيتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [1] . قال أهل العلم : ((نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، كان ذا أهل وولد ، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ، ورققوه ، فقالوا : إلى مَنْ تدعُنا ؟ فيرق ، ويقيم)) .

وربما جادلك بعضهم عند تذكيره بقول رسول الله ﷺ : ((**وإن لربك عليك حقًّا**)) ، وقوله ﷺ : ((**فأعط كل ذي حق حقه**)) [2] .

٦ - ٩ : وأخرى :

أ - العمل الفردي : فإن المرء قوي بإخوانه ضعيف بنفسه ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ؛ ولهذا رأينا من كان متحمسًا فترة من الزمن وقد انفرد عن إخوانه الصالحين واستقل بعمله عن الدعاة العاملين ، ثم فتر ، ثم انقطع ..

ب – ضعف الاهتمام بالعلم الشرعي :

فالجهل قيد يعيق المرء عن الحركة الصحيحة المنتجة ، ويضعف الهمة ، ويقلل العطاء .

جـ – التسويف والتمني الكاذب [3] :

هي بضاعة القاعدين ، ورأس أموال المفاليس : ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا** ﴾ [4] الآية .

د – اللغو واللهو :

((ومحنة الداعية في لهوه وغفلته وجلوسه فارغًا ، وربما زاد فينفتح له باب

---

(1) سورة التغابن [١٤] .
(2) جزء من حديث رواه الإمام البخاري .
(3) راجع للتوسع : علو الهمة ، للمقدم ، ص ٣٣٨ ، والهمة طريق إلى القمة ، ص ٦٤ .
(4) راجع للتوسع : علو الهمة للمقدم ، ص ٣٣٨ ، والهمة طريق إلى القمة ، ص ٦٤ .

من اللغو بعد اللهو ، تلك هي المحنة الحقيقة التي تفتعلها الجاهلية للدعاة بما تعرض للناس من مغريات وأسباب لهو تلفت أنظارهم إليها . وانتصار الداعية يبدأ في أن تعاف نفسه ما لا يؤثر في تقدم دعوته .

فغفلة الداعية محنة ؛ لأنها صرفته عن نصر ممكن يحققه له الجد والعمل الدائب ، وعن أجر وثواب أخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد »[1] .

٧ - نماذج من سير أصحاب الهمم العالية :

هذه طائفة من بعض مواقف أصحاب الهمم العالية ؛ لنرى قوة عزائمهم ، وسمو اهتماماتهم ، وصدق إرادتهم .

٧ - ١ : في طلب العلم :

- انظر إلى ذلك الأعمى الذي جاء يسعى .. يسعى لماذا ؟ ! إن علو همته وقوة عزيمته دفعته للعلم والتزود منه على الرغم من فقده لبصره ، فقد جاء مسرع الخطا لينهل من الوحي ليتذكر ويتزكى .
- ولقد أدرك من جاء بعدهم من التابعين وغيرهم من سلف الأمة أهمية العلم في تربية أنفسهم وتبليغ دعوة ربهم ؛ لذا فقد سطرت لنا كتب السير العجب العجاب من روائع قصصهم التي تدل على علو همتهم .
- قف مع الإمام مالك .. قال ابن القاسم عنه : « أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه »[2] .
- قف مع همة البخاري ، الذي كان يفكر بالمسألة وهو على فراشه حتى ينبلج الفجر . قال ابن كثير : « وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمر بخاطره ، ثم يطفئ سراجه ، ثم يقوم مرة أخرى حتى يقوم قريبًا من عشرين مرة » .
- وقال محمد بن السلمى : « قمت ليلة سحرًا لآخذ النوبة على ابن الأخرم (مقرئ للقرآن) فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئًا ، وقال : لم تدركني النوبة إلى العصر »[3].
- والذهبي قرأ على شيخه الدكالي القرآن بروايتي حفص وورش في إحدى عشر يومًا ، وقرأ سيرة ابن هشام في ستة أيام ..

---

(1) ذاتية ترتيب المدارك : ١ / ١٣٠ .
(2) ذاتية المؤمن : ١٠٤ .
(3) سير أعلام النبلاء : ١٥ / ٥٦٤ ــ ٥٦٥ .

- شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري .. قال هارون بن عبد العزيز : « لما دخل محمد الطبري بغداد ، وكانت معه بضاعة يتقوت منها ، فسُرقت ، فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه ، قال لتلامذته : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا ؟ ، قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه . فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماتت الهمم . فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة ..» .
- وابتدأ بتصنيف « تهذيب الآثار » ، فوصل إلى مسند ابن عباس فمات ، قال الذهبي : « لو تمّ لكان يجيء في مائة مجلد » . وكتب كتابة « البسيط » ، فخرّج الطهارة في نحو ألف وخمسمائة ورقة .
- سمع ابن كثير صحيح الإمام مسلم في تسعة مجالس بقراءة ابن القاسم الغرناطي .

٧ - ٢ : علو الهمة في الدعوة :

كان أصحاب الهمم العالية يعدون الجلوس في البيوت عيبًا ..

- قال طلحة بن عبيد الله ﷺ :« إن أقل العيب على المرء أن يجلس في داره » ؛ فكيف لو رأى القاعدين اليوم في وقت صال فيه الأعداء وجالوا في ديار الإسلام ؟ ! .
- قال الغزالي - رحمه الله - : « اعلم أن كل قاعد في بيته - أينما كان - فليس خاليًا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف » (١) .
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أُنزل إليه وينذروا كما أنذر » (٢) .
- الإمام أحمد - رحمه الله - إمام للعامة لاختلاطه بهم ودعوته لهم . قال بشر الحافي : سبقني أحمد بثلاث خصال :

- كان إمامًا للعامة .
- احتك بشيخ البخاري والترمذي موسى بن حزام ، وكان ينتحل الإرجاء ، وكان يتردد عليه حتى تخلى عن فكرة الإرجاء ، فانتحل السنة وذب عنها .
- ووقفته يوم الفتنة إذ حفظ الله به الأمة .

- أبو إسحاق الفزاري .. كان رجل دعوة ..

---
(١) الإحياء : ٢ / ٣٤٢ .
(٢) الفتاوى : ١٦ / ٣٢٧ .

قال إبراهيم بن سعيد الجوهري : ((قلت لأبي أسامة : أيهما أفضل : فضيل بن عياض ، أو أبو إسحاق الفزاري ؟ فقال : كان الفضيل رجل نفسه ، وكان أبو إسحاق رجل عامة)) (١) . الله أكبر .. الفضيل الذي كان ابن عيينة يقبل يده ، قال عنه ابن تيمية : ((سيد المسلمين في وقته)) ، ومع هذا يراه أبو أسامة أقل رتبة من أبي إسحاق .

وصدق والله .. فإن الذي يعيش لنفسه فيعكف على تزكيتها وطهارتها ليس كمن يجاهد نفسه ويعيش لأمته ، يريد زكاة الاثنين ، ويُعنى برفعة الأمرين ، وهي مهمة الأنبياء والرسل - صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين - ولهذا كان الفضيل - رحمه الله - يعرف مكانة أبي إسحاق ، فيقول - رحمه الله - : ((ربما اشتقت إلى المصيصة [أرض يُرابط بها] ، ما بي فضل الرباط إلا أن أرى أبا إسحاق - رحمه الله -)) .

- والإمام الزهري ربّى أجيالاً فجعلهم أئمة في الحديث ، وما اكتفى بهذا ، بل ((كان ينزل بالأعراب يعلمهم)) (٢) .
- وهذا ابن الجوزي الواعظ المشهور يقول لك : ((ألست تبغي القرب منه ؟ فاشتغل بدلالة عباده عليه ، فهي حالات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خطوات التعبد ؛ لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم)) (٣) .

وقد يذكر ويخوف بالأهل والعيال فلا يلتفت .

قال أحمد بن داود الواسطي : ((دخلت على أحمد الحبس قبل الضرب ، فقلت له في بعض كلامي : يا أبا عبد الله ، عليك عيال ، ولك صبيان ، وأنت معذور ، كأني أسهل عليه الإجابة . فقال لي أحمد بن حنبل : إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت)) (٤) . فإن لم يكن المرء مع أحمد ، أو مع ورثة أحمد ، وقعد لعذر أو شبه عذر ، فإن همته تدعوه للأسف وازدراء نفسه على الأقل ألا يكون مع الدعاة العاملين ، كما قيل للزاهد بشر الحافي يوم تعذيب أحمد بن حنبل : ((قد ضرب أحمد الساعة سبعة عشر سوطًا)) ، فمد بِشر رجله وجعل ينظر إلى ساقيه ويقول : ((ما أقبح هذه الساق ألا يكون القيد فيها نصرة لهذا الرجل)) (٥) .

- **وفي المعاصرين لنا قدوة :**

- الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - .

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٨ / ٥٤٣ .
(٢) طبقات الشافعية للسبكي : ٦ / ٦٢ .
(٣) صيد الخاطر ، ٣٨ .
(٤) طبقات الحنابلة لأبي يعلى : ١ / ٤٣ .
(٥) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ، ١١٩ .

- المودودي - رحمه الله - .
- حسن البنا - رحمه الله - [1] .
- وبائع الملح .

بائع الملح الذي زلزل أركان التنصير في جنوب إفريقيا ، وناظر زعماءهم في أمريكا ، وتحدى البابا ، ودعاه إلى مناظرة علنية ، فما استطاع أن يجيبه إلى طلبه .. إنه ديدات .

الهندي أحمد حسين ديدات الذي عاش في جنوب إفريقيا ، بائع ملح بالقرب من معهد تخريج وعاظ للتنصير ، فكانوا يضايقونه .. فبدأت الرحلة .

- أسس معهدًا لتخريج الدعاة ، وأسس مركزًا لنشر الإسلام ١٩٥٨م .

وصاحب الهمة يرعى راية الخير والدعوة فينضوي تحتها .. وكيف لا وهو يرى أهل الكفر يتداعون فيقولون : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴾ [2] .

٧ - ٣ : علو الهمة في العبادة :

إذا سئم البطالون من بطالتهم ، فلن يسأم العباد من عبادة ربهم ، فهي دواء الجنون كما قال أبو مسلم الخولاني لرجل لما رآه كثير الذكر ، فقال له الرجل : « أمجنون أنت ؟ » ، فقال أبو مسلم : « هذا دواء الجنون » . فرحم الله رجالاً نصبوا أبدانهم لخدمة مولاهم ، وكابدوا العبادة حتى استمتعوا بها . يقول ثابت البناني : « كابدت الصلاة عشرين سنة ، واستمتعت بها عشرين سنة » .

ولو أردنا أن نتكلم عن أصحاب الهمم في عبادتهم لطال الحديث أيامًا ، بل وشهورًا ، ولكننا نشير إلى بعض القمم ، ونقطف من بستان كل منهم زهرة نستنشق عبيرها فتنقلنا بعيدًا عن هجير دنيانا الكالح .

- سيد التابعين سعيد بن المسيب كان كاسمه بالطاعات سعيدًا ، وعن المعاصي بعيدًا . قال سعيد : « ما فاتتني الصلاة في الجماعة منذ أربعين سنة » [3] ، بل قال : « ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد » [4] .
- وقال سفيان بن عيينة : « لا تكن مثل عبد السوء ، لا يأتي حتى يُدعى ، ائت الصلاة قبل النداء » [5] .

---

(١) يمكن الرجوع إلى مناقبهم في الكتب التي عنيت بسيرهم ، وقد أشرنا في الرائد إلى بعضها .
(٢) سورة طه [٦٤] .
(٣) سير أعلام النبلاء : ٤ / ٣٠ .
(٤) الحلية : ٢ / ١٦٢ .
(٥) التبصرة ، ١٣١ .

● وقال سفيان بن عيينة : ((كان طلق بن حبيب لا يركع حتى يبلغ العنكبوت)) [١].

وأما علو الهمة في المحافظة على صلاة الجماعة فقد قال ﷺ : ((**من صلى لله أربعين يومًا في جماعة ، يدرك التكبيرة الأولى ، كتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق**)) [٢].

فما أحلى وأعطر وأطيب البراءتين جزاءً لعلو الهمة ..

● لا يحول بينهم وبين الجماعة عائق من حب دنيا أو انشغال بولد ؛ حتى المرضى .. لله درُّهم من مرضى ! بل والله نحن المرضى ! مرضى القلوب .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود : ((ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل ليؤتى به يتهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف)) .

● روى ابن أبي شيبة في المصنف عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي : أنه كان يُحمل وهو مريض إلى المسجد .

٧ - ٤ : علو الهمة في الجهاد :

أما سلفنا الصالح فقد ضربوا أروع الأمثلة ، وخلدوا أصدق المواقف ؛ فهم الذين قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل الله ، وهم الذين حملوا راية لا إله إلا الله حتى بلغوا بها شرق المشرق وغرب المغرب .. دماؤهم عند أسوار الصين ، وأجسادهم دفنت في ثلوج سيبريا ، وقبورهم ثوت تحت أسوار القسطنطينية ، وعند اللورال في فرنسا [٣].

خامسًا : من التطبيقات العملية للدرس :

١ - المحافظة على الصلوات الخمس في المسجد ، ومجاهدة النفس في دخول المسجد قبل الأذان ، وشغل الوقت بين الأذانين بأداء السنن ، وقراءة القرآن الكريم .

٢ - الالتزام بالقراءة اليومية في الكتب النافعة بشرط أن تكون ضمن برنامج علمي محدد المراحل .

٣ - إجراء مسابقات للتنافس في حفظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مع بعض المتون العلمية .

٤ - حضور اللقاءات الإيمانية ، والحلق التربوية التي يتزود فيها الأخ بالعلوم النافعة

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٤ / ٦٠١ .
(٢) صحيح الجامع ، برقم : ٦٣٦٥ ، حسنه الألباني .
(٣) لذكر بعض المواقف راجع مصطلح الجهاد في الرائد .

والنصائح القيمة ، ويتواصى من خلالها مع إخوانه بالصبر وبالحق .

٥ - المشاركة في المناشط الدعوية وتوظيف الطاقات ، واستثمار الملكات في خدمة الدعوة ، كل حسب طاقته وموهبته ؛ والمناشط كثيرة ومتنوعة ، كما أن أبواب الخير كثيرة .. (كالدعوة الفردية ، وحلق تحفيظ القرآن ، وإلقاء كلمة ، وتوزيع شريط ، وتلخيص كتاب ...) .

٦ - المساهمة المالية الشهرية لنصرة الدعوة ودفع عجلتها ، وذلك بأن يقتطع كل داعية ومحب للخير من راتبه جزءًا يسيرًا فيساهم به في مشروع دعوي .

سادسًا : بعض مراجع الموضوع :

١ - صلاح الأمة في علو الهمة ، سيد العفاني ، مؤسسة الرسالة ، ط١ .

٢ - علو الهمة ، د . محمد أحمد المقدم ، مكتبة الكوثر ، ط٤ .

٣ - الهمة طريق إلى القمة ، محمد حسن عقيل موسى ، دار الأندلس الخضراء ، ط٢ .

٤ - المصفى من صفات الدعاة ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .

٥ - صنِّف نفسك ، أحمد الزهراني ، دار الأندلس الخضراء ، ط٢ .

٦ - الأخلاق الإسلامية وأسسها ، عبد الرحمن الميداني ، دار القلم ، ط٤ .

٧ - الرسالة القشيرية ، عبد الكريم القشيري ، دار الجيل ، ط٢ .

٨ - الحماس الذي نريد ، عادل آل عبد العالي ، توزيع مؤسسة الجريسي ، ط ١٤١٨هـ .

٩ - الداء والدواء ، ابن القيم ، مكتبة دار التراث ، ط٣ .

١٠ - الفتور آثاره وأسبابه وعلاجه ، جاسم الياسين ، دار الدعوة ، ط١٠ .

١١ - الطريق إلى التفوق ، حسنين شحاتة ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط ١٤١٩هـ .

١٢ - طريق الدعوة الإسلامية ، جاسم الياسين ، دار الدعوة ، ط١ .

١٣ - تذكرة دعاة الإسلام ، أبو الأعلى المودودي ، مطبوعات الجماعة الإسلامية بباكستان .

١٤ - مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، دار الجيل ، بدون .

١٥ - العوائق ، محمد الراشد ، مؤسسة الرسالة ، ط٨ .

١٦ - الرقائق ، محمد الراشد ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ .

١٧ - الفوائد ، ابن القيم ، دار النفائس .

١٨ - التعريفات ، الجرجاني ، دار الريان للتراث .

١٩ - الإيمان والحياة ، يوسف القرضاوي ، دار الذخائر ، ط١٨ .
٢٠ - الفتاوى الكبرى ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، ط٣ .
٢١ - سير أعلام النبلاء ، الإمام الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ .
٢٢ - صيد الخاطر ، ابن الجوزي ، دار اليقين للنشر والتوزيع ، ط١ .
٢٣ - المشوق إلى القراءة وطلب العلم ، علي العمران ، دار عالم الفوائد ، ط١ .
٢٤ - صفحات من صبر العلماء ، عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، ط٣ .
٢٥ - مقومات الداعية الناجح ، علي بادحدح ، دار الأندلس الخضراء ، ط١ .
٢٦ - غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، السفاريني ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
٢٧ - الذريعة إلى مكارم الشريعة ، الراغب الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
٢٨ - موسوعة أخلاق القرآن ، أحمد الشرباصي ، دار الرائد العربي ، ط٣ .
٢٩ - ذاتية المؤمن طريق النماء ، لجنة البحوث في مكتبة دار الدعوة ، دار الدعوة ، ط١ .
٣٠ - التبصرة ، ابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ، ط١ .
٣١ - التزكية ، نبيل المعاز ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ١٤١٩هـ .
٣٢ - واحات الإيمان ، عبد الحميد البلالي ، دار الدعوة ، ط١ .
٣٣ - صفحات مضيئة من عبادة السلف ، إبراهيم العلي ، مكتبة المنار ، ط١ .
٣٤ - تزكية النفس ، سعد بن محمد ، مطابع الفرزدق التجارية ، ١٤١٠هـ .
٣٥ - التربية الذاتية من الكتاب والسنة ، هاشم علي أحمد ، دار الأهول ، ط١ .
٣٦ - أدب الدنيا والدين ، الماوردي ، المكتبة التوفيقية ، بدون .
٣٧ - جيل النصر المنشود ، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، ط٢ .
٣٨ - موسوعة نضرة النعيم ، مجموعة ، دار الوسيلة ، ط١ .

وقت

الوقت

« **إدارة الوقت** »

أولاً : دلالة المصطلح :

أ – لغة :

- قال ابن منظور : « الوقت : مقدار من الزمان ، وكل شيء قدرت له حينًا ، فهو مؤقت ، وكذلك ما قدرت غايته ، فهو مؤقت » .
- [قال] ابن سيده : « الوقت مقدار من الدهر معروف ... وفي التنزيل العزيز : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (1) ، أي : مؤقتًا مقدرًا ، وقيل : « أي : كتبت عليهم في أوقات مؤقتة » .
- وفي الصحاح : « أي : مفروضات في الأوقات » (2) ، أي : كل صلاة عند دخول وقتها . « والميقات : الوقت المضروب للفعل والموضع ، والتوقيت والتأقيت : أن يجعل للشيء وقت يختص به ، وهو بيان مقدار المدة » (3) .

ب – اصطلاحًا :

يعرف الكثير من أهل الدعوة والتربية الوقت بأنه الحياة فيقولون :

الوقت هو الحياة ؛ حتى صار هذا التعريف مثلاً سائرًا بين المربين . وقد يضاف إلى الوقت ألفاظ أخرى ، مثل : إدارة ، فيمكن تعريفه مركبًا عندئذ « إدارة الوقت » : عملية استثمار لساعات اليوم بفعالية لتحقيق أهداف معينة .

ثانيًا : الأهداف :

نهدف في عرض هذا الموضوع إلى عدة أمور ، منها :

١ - التذكير بنعمة الوقت ، وأهمية استغلالها ، وضرورة توظيفها واستثمارها لتحقيق الغاية من الوجود : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (4) .

٢ - بيان أساليب ووسائل استغلال الوقت ، وكيفية تفعيلها في الواقع للاستخدام الأمثل للوقت ، والنجاح في تحقيق أكبر النتائج في أزمنة قصيرة نسبيًّا .

---

(1) سورة النساء [١٠٣] .
(2) لسان العرب : ٦ / ٤٨٨٧ .
(3) المرجع السابق .
(4) سورة الذاريات [٥٦] .

٣ - تحذير المسلم من إهدار وقته بالسفاسف والترهات ، وتبديده بالاستغراق في المباحات ، وذلك من خلال التنبيه على بعض مضيعات الأوقات .

٤ - التأكيد على ضرورة التخطيط للاستغلال الأمثل للوقت مع مراعاة ترتيب الأولويات وتحديد الأهداف والغايات .

٥ - عرض نماذج مشرفة من سير سلفنا الصالح ، وحسن استغلالهم لأوقاتهم ، واستثمارهم لأعمارهم في طاعة الله - عز وجل - .

ثالثًا : عناصر الموضوع :

١ - أهمية الحديث عن ((إدارة الوقت)) .

٢ - أهمية الوقت في الإسلام :

٢ - ١ : أهمية الوقت في القرآن الكريم .

٢ - ٢ : أهمية الوقت في السنة النبوية .

٢ - ٣ : أهمية الوقت عند السلف .

٣ - ما مفهوم الوقت عندك ؟

٤ - كيف تدير وقتك ؟

٥ - معوقات إدارة الوقت .

٦ - أفكار لتوفير الوقت .

٧ - مبادئ في تعامل السلف مع أوقاتهم .

رابعًا : العرض :

١ - أهمية الحديث عن ((إدارة الوقت)) :

تأتي أهمية الحديث عن إدارة الوقت من خلال عدة أمور ، منها :

١ - ١ : أن الوقت نعمة كبرى ، ومنّة عظمى امتن الله بها على عباده ، فهو وعاء العمل والعملة التي يشترى بها ؛ إذ بانتهائه (بالموت) ينقطع العمل : ((**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة**))[1] ، وهذه الثلاثة المستثناة إنما هي نتيجة لأوقات سابقة عمرها العبد بطاعات جليلة ، لا ينقطع ريعها ، ولا تنفد علتها : ((**ولد صالح ، وعلم نافع ، وصدقة جارية**)) .

١ - ٢ : إن الاهتمام بالوقت ، وإعمال العقل في استثماره والإفادة منه - مبدأ مهم في حياة المسلم ، وخصلة بارزة مميزة لشخصيته ، تدل على فقهه وعلو همته ،

---

(1) رواه مسلم : كتاب الوصية ، باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، برقم : ١٦٣١ .

وإيمانه واستقامة مسلكه .. وقد وصف الله أهل الإيمان فقال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ حفاظًا على أوقاتهم أن تهدر في كلام أجوف .

١ - ٣ : إن إدراك الإنسان لأهمية الوقت ليس إلا إدراكًا لوجوده ، فما الوقت إلا الحياة ، وبقدر استفادته منه تكون حياته ؛ ولهذا فإن الكفار أموات ولو عمروا في الحياة آلاف السنين ؛ لأن كل عملهم مع الشرك محبط ، وكل شيء فعلوه مع الكفر هباء .

١ - ٤ : إن عظيم الأمم إنما تقاس بمقدار سعي أبنائها واستثمارهم الأوقات بالأعمال الجليلة التي تعود على الأمة بالخير والسعادة والعزة [1] .

١ - ٥ : كثرة المغبونين في أوقاتهم ، والمضيعين لأعمارهم ، الساهين عن آخرتهم ، وهذه حقيقة حذر منها رسول الله ﷺ : ((**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ**)) [2] .

١ - ٦ : العواقب الوخيمة ، والنتائج السيئة الجسيمة لسوء استغلال الأوقات وإهدارها بالسفاسف والترهات ، التي أودت بكثير من شباب الأمة للانتكاس والتقاعس والانحراف .

٢ - أهمية الوقت في الإسلام :

لقد عني الإسلام عناية عظيمة بالوقت ، وحث على اغتنامه ، وحسن استثماره . وإليك بعض النصوص :

٢ - ١ : أهمية الوقت في القرآن الكريم :

أ - قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[3].
((خلفة)) : أي يخلف كل منهما الآخر . وقال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن : ((معناه : من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل)) [4] .

ب - أقسم الحق - عز وجل - في كتابه بالضحى والليل .. وكلها أجزاء من الوقت . ومن المعروف لدى المفسرين أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه فذلك ليلفت

---

(1) انظر معالجة الإسلام لوقت الفراغ ، ص ١١ .
(2) رواه البخاري : كتاب الرقاق ، باب ما جاء في الرقاق ، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة ، برقم : ٦٤١٢ .
(3) سورة الفرقان [٦٢] .
(4) الجامع لأحكام القرآن : ١٣ / ٦٦ .

أنظارهم إليه ، وينبههم على جليل منفعته وآثاره [1] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ [2] ، والعصر هو : الدهر ، أي : الزمن على قول أكثر المفسرين ، وهو الراجح كما يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - [3] . وقد ذكر أن تسمية الدهر عصرًا ، أمر معروف في لغة العرب ، وبه قال ابن عباس ، وهو اختيار الإمام الطبري - رحمه الله - .

قال ابن الجوزي : ((أقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه ؛ فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام)) [4] .

جـ - والكثير من أسرار وحكم النواهي والأوامر يدل على تربية المسلم على الاهتمام بوقته وعدم تركه للعوادي تنهبه وتبدده ، ومن تلك الأحكام قوله - عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [5] ، وكذلك توزيع الصلوات على اليوم فيه تربية للمسلم على انضباطه في المواقيت واهتمامه بها : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [6] .

٢ - ٢ : أهمية الوقت في السُّنة :

ولقد توافرت نصوص السنة مؤكدة أهمية الوقت بصور متعددة ، منها :

أ - التأكيد على أن الإنسان مسؤول عن وقته بين يدي ربه :

فعن معاذ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ((**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه**)) [7] .

أربع خصال سيُسأل عنها المكلف يخص الوقت منها سؤالان ، ((فلن تزول قدما العبد في ذلك الموقف حتى يحاسب عن مدة أجله فيما صرفه بعامة ، وعما فعل بزمانه وقت شبابه بخاصة ، فإن فيه أكثر العطاء وأمضاه ، وهو تخصيص بعد تعميم ؛ لأن تمكن

(١) الوقت في حياة المسلم ، ص ٧ .
(٢) سورة العصر [١] .
(٣) التبيان في أقسام القرآن ، ٥٣ .
(٤) قيمة الزمن ، ١٩ .
(٥) سورة المؤمنون [٣] .
(٦) سورة النساء [١٠٣] .
(٧) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠ / ٦٠ - ٦١) ، واللفظ له ، والبزار في مسنده ، برقم : ٢٤٣٧ من كشف الأستار ، وهو صحيح بشواهد . [هامش كتاب قيمة الزمن ، ص ٢١] .

الإنسان من الزمن في وقت الشباب أعظم وآكد وأثمر من طرفي العمر ؛ حيث ضعف الطفولة ، وضعف الشيخوخة))[1].

ب – التحذير من الوقوع في الغبن :

((**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ**))[2].

قال ابن الخازن : ((النعمة ما يتنعم به الإنسان ويستلذه ، والغبن أن يشتري بأضعاف الثمن ، أو يبيع بدون ثمن المثل .

فمن صح بدنه ، وتفرغ من الأشغال العائقة ، ولم يسع لصلاح آخرته ، فهو كالمغبون في البيع .

والمقصود بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ ، بل يصرفونهما في غير محلهما ، فيصير كل واحد منهما في حقهم وبالاً ، ولو أنهم صرفوا كل واحد منهما في محله لكان خيرًا لهم أي خير))[3]. فالموفق لاستثمار وقته لما خلق له قليل .

جـ – الغنائم الخمس :

قال رسول الله ﷺ : ((**اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك**))[4] .

والشباب والفراغ والحياة كلها مؤكدات لأهمية الوقت ، وضرورة استثماره والعمل فيه .

٢ ـ ٣ : أهمية الوقت عند السلف :

ولقد راح السلف يترجمون فقه هذه النصوص والعمل بمقتضاها من خلال أقوالهم وأعمالهم[5]. ومن تلك الأقوال :

أ ـ قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : ((إني لأمقت الرجل أن أراه فارغًا ، ليس في عمل الدنيا ، ولا عمل الآخرة))[6] .

---

(1) قيمة الزمن ، ص ٢١ ، وانظر أيضًا الوقت في حياة المسلم ، ص ٧ .
(2) سبق تخريجه .
(3) كما في حاشية ((سنن ابن ماجة)) : ٢ / ١٣٩٦ ، نقلاً عن قيمة الزمن ، ص ٢١ .
(4) رواه الحاكم (٤ / ٣٠٦) عن ابن عباس ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في اقتضاء العلم العمل ، برقم : ١٧٠ .
(5) سيكون هناك مبحث مستقل لذكر أعمالهم التي تدل على عمارتهم لأوقاتهم واستثمارهم لها في طاعة الله .
(6) الزهد ، لوكيع : ٢ / ٦٥٢ ، وقال محقق الكتاب : ضعيف .

ب - روى ابن الجوزي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : ((أنه كان إذا رأى غلامًا فأعجبه سأل عنه : هل له حرفة ؟ فإن قيل : لا ، قال : سقط من عيني)) [١] .

جـ - الوقت كالسيف [٢] .

د - قال الحسن البصري - رحمه الله - : ((الدنيا ثلاثة أيام : أما أمس فقد ذهب بما فيه ، وأما غدًا فلعلك لا تدركه ، وأما اليوم فلك ، فاعمل فيه)) [٣] .

هـ - قال ابن هبيرة - رحمه الله - :

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه … وأراه أسهل ما عليك يضيع

و - قال الحسن البصري - رحمه الله - : ((يا ابن آدم ، إنما أنت أيام مجموعة ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك)) .

٣ - ما مفهوم الوقت عندك ؟ :

إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، وتصوره يخلق في النفس مدى أهميته ، فإذا كان ذا أهمية حرصت عليه وعز عليك فواته وضياعه [٤] .. فكيف تنظر أنت إلى وقتك ؟

● أهو ساعات تمضي وأيام تُقضى وتولي فحسب ؟ على حد قول الشاعر :

أَشَابَ الصغيرَ وأفنى الكبيرَ … كرُّ الغداةِ ومرُّ العشيّ

● أهو ساعة شهوة ، ولحظة نزوة ، وما سوى ذلك ليس من الوقت ؟ أم أن الوقت عندك هو الحياة .. هو عمرك ؟ على حد قول الإمام ابن القيم - رحمه الله - : ((وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم ، أو مادة معيشته الضنك في العذاب الأليم ، وهو يمر مرَّ السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته ، وإن عاش فيه عيش البهائم ؛ فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة ، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة ، فموت هذا خير من حياته)) [٥] .

---

(١) مختصر تلبيس إبليس ، ٢٣٢ .
(٢) الرسالة القشيرية ، ٥٥ .
(٣) كتاب الزهد للبيهقي ، عن كتاب ١٢٥ طريقة لحفظ الوقت ، ص ٤٤ .
(٤) انظر ١٢٥ طريقة لحفظ الوقت ، ص ٤٠ .
(٥) الجواب الكافي .

قلة من الناس من يعرفون حقيقة الوقت كما عرفها ابن القيم - رحمه الله - ؛ ولهذا فقد أسرفوا في إهداره وتضييعه ، وأسفوا في « قتله » وتبديده . وإذا كان المال الذي هو دون الوقت في أهميته وقيمته قد أمرنا بالحفاظ عليه ونهينا عن الإسراف فيه ، فقال عز وجل : ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (٢) ، فالحفاظ على الوقت والنهي عن الإسراف فيه يكون من باب أولى .

فليكن شعارك ومفهومك للوقت : « الوقت هو الحياة » .

ويروي الأستاذ عبد الستار نوير قصة طريفة فيها عبرة فيقول :

« قرأت للأستاذ أحمد أمين طريفة معبرة ، قال : حُدثت أن جنديًّا ظريفًا رأى في مقهى رجلين يلعبان النرد ، وكانت الساعة السابعة مساءً ، فتقدم إليهما بكل أدب واحترام وحياهما ، ثم سألهما وهما يردان عليه :

- من أي وقت بدأتما اللعب ؟
- من الساعة الرابعة .
- وإلى متى ؟
- إلى الثامنة أو التاسعة .
- وما عملكما ؟
- مدرسان .

فانهال عليهما ضربًا ولكمًا ، وقال : أما لكما عمل تعملانه ، أو رياضة تقومان بها ، أو خدمة اجتماعية تؤديانها ؟

ذكر الأستاذ القصة ثم قال معلقًا : « ليت لنا مشرفين من هذا القبيل يُعَزِّرون من أضاع وقته على هذا النمط . إذًا ما نجا من الضرب واللكم إلا القليل » (٣) .

٤ - كيف تدير وقتك ؟ :

إن حسن إدارة الوقت تعطيك الكثير من المزايا منها :

- تحقيق إنجازات ونتائج عظيمة في أوقات قصيرة (نسبيًّا) .
- أداء الحقوق والقدرة على القيام بالمسؤوليات وتنفيذ الواجبات .
- التغلب على الفشل الناتج عن سوء إدارة الوقت .

---

(١) سورة النساء [٥] .
(٢) سورة الإسراء [٢٦] .
(٣) الوقت هو الحياة ، ص ١٧٨ ، نقلاً عن الهمة طريق القمة ، ص ٤٣ – ٤٤ .

وإليك - أخي الكريم - بعض القواعد والنصائح التي تعينك على حسن إدارة وقتك .

٤ - ١ : التخطيط اليومي : لابد من تخطيط لساعات يومك منذ الصباح الباكر ، وستشعر في البداية بصعوبة ذلك ، ولكن مع الاستمرار سيكون الأمر عاديًّا . وعند القيام بالتخطيط ينبغي طرح التساؤلات الأربعة التالية :

- ما هي أهدافي لهذا اليوم ؟ (مهم جدًّا) .
- أي أنشطة أحتاجها لإنجاز هذه الأهداف ؟
- ما هي أولوياتي ؟ (مهم جدًّا) .
- كم من الوقت المطلوب للقيام بكل مهمة [١] ؟ (مهم جدًّا) .

٤ - ٢ : « جدولة » الأعمال :

وهي عملية تدوين قائمة للأعمال التي ستقوم بها خلال اليوم ، ويعتبر الجدول تذكرة تعينك على تحديد الأعمال وتوزيع الأوقات المخصصة لكل عمل ، وترتب الأعمال فيه حسب أولويتها وأهميتها .

ويوصى لنجاح تفعيل دور الجدول بأمور ، منها :

- ضع جدول الأعمال في مفكرتك اليومية .
- لا تبالغ في تقدير الوقت المخصص لكل عمل .
- لا تملأ الجدول أعمالاً كثيرة لا تستطيع أن تقوم بها ؛ مما يولد عندك اليأس والإحباط .
- ليكن فيه مرونة لمواجهة الظروف غير المتوقعة .
- كن حازمًا في التنفيذ ، ولا تؤجل عمل اليوم إلى غدٍ .

٤ - ٣ : المبادرة إلى التنفيذ :

الحزم في إنفاذ الأمور والقيام بالواجبات من علامات قوة العزيمة وعلو الهمة ، فصاحب الهمة يعرف أن لكل يوم واجباته ، وتأجيلها أو التباطؤ في إنجازها يعني تراكمها ثم تضييعها . قال الحسن البصري - رحمه الله - : « إيّاك والتسويف ، فإنك بيومك ولست بغدك » ، قال : « فإن يكن الغد لك ، فاعمل فيه كما عملت في يومك ، وإن لم يكن الغد لك لم تندم على ما فرطت في اليوم » .. ثم من الذي يضمن غده ؟ وهل سيخلو من العوائق ؟ ولهذا تجد الكثير من الآيات تدعو المسلم للمبادرة بالعمل

---

(١) إدارة الوقت ، ص ١٥٥ ، ما بين الأقواس مضافة .

وعدم التكاسل فيه : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [1] ، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [2] . وكذلك في السُّنة آثار كثيرة تربي المسلم على المسارعة في الإنجاز وعدم التثاقل والتأجيل ، ومنها قوله ﷺ : ((بادروا بالأعمال)) [3] .

٤ - ٤ : اتبع قواعد ((النجاح في إدارة الوقت)) :

وضع أهل التربية والإدارة قواعد تحفظ الأوقات ، وتعين المرء على الوصول إلى قمة النجاح في حسن استغلال وقته وزيادة إنتاجه ، وبقدر اتباع هذه القواعد يكون النجاح - بإذن الله - .

٤ – ٤ – ١ : ((من حسن إسلام المرء تركه ما يعنيه)) [4] :

قاعدة نبوية شريفة في كفِّ النفس عن اللغو والعبث وما لا فائدة منه ، فإنما تضيع كثير من الأوقات بالتوسع في المباحات وفضول الشهوات من المطاعم والنوم والاشتغال بما لا طائل وراءه .

٤ – ٤ – ٢ : صحبة البطالين بطالة :

((المرء مفطور على التأثر والتأثير ، فهو ابن بيئته ، وهذا ما ألمحت إليه السنة المطهرة . فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير : فحامل المسك ، إما أن يُحذِيَك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ، ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحًا خبيثة**)) [5] .

---

(1) سورة الحديد [٢١] .
(2) سورة آل عمران [١٣٣] .
(3) هناك جملة من الأحاديث فيها هذا اللفظ ، انظر المشكاة ، الأحاديث رقم : ٤٦٥ ، ٥٣٨٣ ، وهي أيضًا في السلسلة الصحيحة للألباني برقم : ٧٥٩ ، ٧٥٨ على التوالي .
(4) رواه مالك في الموطأ (٢ / ٦٨٩) ، ورواه أحمد ، والترمذي ؛ قال الزرقاني في شرح الموطأ : ((والحديث حسن بل صحيح)) ، قال الأرناؤوط في جامع العلوم والحكم ، هامش صفحة (١ / ٢٧٨) : ((حديث حسن لغيره)) ، وقد صححه الألباني .
(5) رواه البخاري : كتاب البيوع ، باب في العطار وبيع المسك ، رقم : ٢١٠١ ، ومسلم ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ، برقم : ٢٦٢٨ ، واللفظ له .

ولا أعدم لقيمة الزمن من مصاحبة أهل التبطل والتعطل ، الذين لجّوا في الجهالة واللهو والعبث ، فهم من أضيع الناس لزمن ، وأكثرهم تعطيلاً لعقل ، وأسوأ الناس لصاحب ، وأهدرهم لطاقة .

لا يعرف العمل سبيله إليهم ، ولا الجد محلاً فيهم ، ولا المعالي مكانًا في نفوسهم .

فحذار من مجالستهم والاختلاط بهم ، فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري ، « وليس إعداء [١] الجليس جليسه بمقاله وفعاله فقط ، بل والنظر إليه ! فالنظر في الصور يؤثر في النفوس أخلاقًا مناسبة إلى خلق المنظور إليه ، فإن من دام نظره إلى مسرور سرّ ، ومن دام نظره إلى محزون حزن . وذلك ليس في الإنسان فقط ، بل في الحيوان وسائر النبات ، فإن الجمل الصعب قد يصير ذلولاً بمقاربة الذلول ، والذلول يصير صعبًا بمقاربة الصعاب ، والريحانة الغضة تذبل بمجاورة الذابلة ؛ ولهذا يلتقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزرع لئلا تفسده .

ومعلوم أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما ، وذلك لا ينكره ذو تجربة . وإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ ؛ فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها ؟

فقد قيل : سمي الإنسان إنسانًا ؛ لأنه يأنس بما يراه إن خيرًا وإن شرًّا » [٢][٣].

٤ – ٤ – ٣ : تنظيم الذات يحفظ الأوقات :

صفة التنظيم أساس في النجاح في إدارة الوقت ، وكلما تمكنت هذه الصفة من الذات ازداد الإنتاج ، وحفظ الوقت من العبث وسائر المضيعات والمبددات . ومن الأمثلة على تنظيم الذات :

- تنظيم الأدوات الشخصية (الأوراق ، والملفات ، والمفاتيح ، ...) .
- تنظيم العمل (وضوح الهدف ، وآلية التنفيذ (خطواته) ، ...) .
- تنظيم المهام (من حيث أهميتها ، وأولويتها ، وتقديم الأهم على المهم) .
- تنظيم المكان (المكتبة ، ...) .
- تنظيم الأوقات :
  - تقديم الواجب المضيق على الواجب الموسع .

---

(١) من العدوى .
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ص ١٩٣ .
(٣) سوانح وتأملات في قيمة الزمن ، ص ٦٤ - ٦٥ ، وانظر للتوسع صيد الخاطر ، ص ٣١١ .

● توزيع الأوقات على الواجبات بالقدر المناسب لكل واجب .

- استخدام مفكرة المواعيد ينظم الأعمال ويعين على توزيع الأوقات عليها . والتنظيم يختصر الوقت ويقلل الجهد ويزيد الإنتاج .

٤ – ٤ – ٤ : التفويض :

ليس من الضروري أن تقوم بجميع أعمالك اليومية بنفسك ؛ فهناك من الأعمال ما يمكن أن يقوم به غيرك ، فتوفر عليك جهدك ووقتك لتضعها في أعمال ينبغي ألا يقوم بها إلا أنت ، فعلى سبيل المثال :

● ليس من الضروري أن تذهب بنفسك لتسديد فواتير الكهرباء والماء والهاتف .

● ليس من الضروري أن تذهب بنفسك لفتح صندوق البريد .

● ليس من الضروري أن تمارس عملية التسوق ، فهناك بعض الأسواق تعرض التوصيل المجاني .

٤ – ٤ – ٥ : التناوب :

وهو مبدأ عمري سنّه عمر بن الخطاب ﵁ في أعماله ، وبهذا اللفظ بوّب الإمام البخاري بابًا في كتاب العلم فقال : « التناوب في العلم » ، ثم أورد حديث ابن عباس عن عمر قال : « كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يومًا وأنزل يومًا ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك » (١) .

٤ – ٤ – ٦ : بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى :

« نعم ، بقدر ما نتعنى ننال ما نتمنى ، فردًا كان أو مجتمعًا أو أمة ، كما قال الشاعر الفحل أبو الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

ونحن إذا وقفنا على تاريخ عظماء هذه الأمة وغيرها من الأمم : علماء ، ومفكرين ، ومخترعين ، وقادة ، وصناعًا ، نجد أن أحدًا منهم لم ينل ما ناله ، ولم يصل إلى ما وصل إليه من عطاء ومشاركة وإسهام في البناء الحضاري إلا بعد إيمان بمقصده ، وبذل لأقصى طاقاته وجهده ، واغتنام لدقائق العمر وثوانيه ، وتحمل لكل الصعاب التي يلقاها في طريقه بصبر وعزيمة ومضاء وصدق وصمت » (٢) .

---

(١) رواه البخاري : كتاب العلم ، باب التناوب في العلم ، برقم : ٨٩ .
(٢) سوانح وتأملات في قيمة الزمن ، ص ٦٥ .

٤ – ٤ – ٧ : من علامة المقت إضاعة الوقت :

فإن من أكبر أسباب النجاح في إدارة الوقت حرص المسلم على وقته ، واجتنابه لأسباب إضاعته ، وما أكثر صور إضاعة الوقت في زماننا هذا ؛ لذا فإننا سنعرض بعضها لنحذرها كما في المبحث التالي .

٥ ـ معوقات إدارة الوقت :

هناك الكثير من الأسباب وراء فشل الكثير من الناس في حسن إدارة أوقاتهم ، واستثمار أعمارهم . وهذه المعوقات تسمى بمضيعات الوقت أو مبددات أو مرهقات الوقت .. ((وهي كل ما يمنعك من تحقيق أهدافك بشكل فعّال)) [١] . وإليك بعض تلك المضيعات من أجل أن تحذرها وتحذر منها :

٥ ـ ١ : عدم وجود أهداف أو عدم وضوحها .

٥ ـ ٢ : عدم ترتيب الأولويات .

٥ ـ ٣ : القيام بعمل وتركه قبل إتمامه .

٥ ـ ٤ : إعطاء العمل أكثر من وقته المحدد .

٥ ـ ٥ : إخلاف المواعيد أو التأخر عنها .

٥ ـ ٦ : الفوضى في تنظيم الذات (أدوات مبعثرة ، وأوراق مختلطة ، وكتب متناثرة ..).

٥ ـ ٧ : السفر (وقد كان سلفنا الصالح يستثمرون زمن سفرهم وترحالهم في القراءة والتأليف ، حتى صنَّف الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ كتابه القيم ((زاد المعاد)) في رحلته للحج) .

٥ ـ ٨ : الهاتف .

٥ ـ ٩ : المركزية (عدم التفويض) .

٥ ـ ١٠: التلفاز – الإنترنت – المذياع – الصحف والمجلات (وسائل الإعلام عمومًا).

٥ ـ ١١: الاجتماعات غير الهادفة ، والخلطة غير الموجهه ، والأحاديث غير النافعة .

٥ ـ ١٢: الأولاد والزوجة (المبالغة في الانشغال بهم) .

٥ ـ ١٣ : المرض .

---

(١) إدارة الوقت ، ص ٢٦٣ .

٥ - ١٤ : التأجيل أو التسويف .

٥ - ١٥ : الزائر الثقيل [١] .

٥ - ١٦ : الأخطاء .

٥ - ١٧ : القراءة غير الهادفة .

٥ - ١٨ : المعوقات المعاشية ..(الانتظار في الطابور - التسوق - الأعمال الروتينية).

● وقد تزيد المرأة على الرجل في المعوقات الشيء الكثير ، ومنها :

٥ - ١٩ : المبالغة في الاهتمام بالجسد .

٥ - ٢٠ : كثرة الكلام بالهاتف .

٥ - ٢١ : التجول في الأسواق دون ضرورة أو حاجة .

٥ - ٢٢ : المبالغة في الملبس والمكياج .

٥ - ٢٣ : القراءة غير المفيدة (مجلات الأزياء ، وأخبار الفن ، ...) .

٥ - ٢٤ : الاستماع المحرم (الأغاني ونحوها) [٢].

٦ - أفكار لتوفير الوقت :

الكثير منا يشكو من ضيق وقته ، ويعتذر عن الكثير من الواجبات والمسؤوليات بعدم وجود الوقت الكافي لأدائها ، ومن هذا المنطلق نذكر بعض الأفكار العملية لتوفير الوقت .

٦ - ١ : اجمع الأعمال المتشابهة وقم بها جميعًا .

٦ - ٢ : تخلص من الانتظار ، وذلك عن طريق :

أ - السداد الآلي للفواتير .

ب - تكليف من يقوم عنك بذلك .

جـ - التناوب مع جار لك .

٦ - ٣ : استعن بمكاتب الخدمات العامة لإنهاء أوراقك الرسمية .

٦ - ٤ : التفويض .

٦ - ٥ : استخدم الفهارس العلمية للوصول إلى المعلومة بأقصر وقت وأقل جهد

---

(١) انظر صيد الخاطر ، ص ٦٠٣ ، ٣١١ .
(٢) انظر للتوسع : ((أغلى من اللآلئ)) ، ص٢٩ .

.

٦ - ٦ : استخدم برامج الحاسب الآلي في البحث عن المعلومة ؛ إذ قد فرغت الآن المجلدات في أقراص مدمجة (CD) .

٦ - ٧ : التقلل من النوم :

عندما تقلل ساعات نومك إلى خمس ساعات ونصف يوميًّا بدل ثماني ساعات تكون قد وفرت (١٠٩٥ ساعة في السنة) أو ما يعادل ٤٦ يومًا في السنة [١].

٦ - ٨ : إتقان فن القراءة السريعة :

هناك فن للقراءة يمكّنك من الإلمام بأفكار الكتاب في أقل وقت ممكن [٢].

٦ - ٩ : استثمار الوقت ((الضائع)) :

وهو الوقت الذي تقضيه في الانتظار لإنهاء مهمة ما ، مثل : انتظار دورك في بنك ، أو المطار ، أو ...

ويمكن استثماره بوسائل كثيرة :

- التسبيح والتهليل ، ((سبحان الله وبحمده مائة مرة)) .
- مراجعة الحفظ ((مصحف جيب)) .
- تدوين بعض الأفكار ((مفكرة جيب)) .
- حفظ بعض المتون عن طريق تصويرها في أوراق صغيرة الحجم ، ونحوها من الوسائل التي تستثمر بها تلك الأوقات .

٦ - ١٠ : أفكار أخرى :

أ - استشارة أهل الاختصاص ؛ وهو ما يوفر عليك الوقت ، ويقيك من الأخطاء .. فكم من قارئ للكتاب في فن من فنون العلم وهناك كتاب آخر أفضل منه وأخصر وأوضح وأليق بمستوى القارئ من الكتاب الذي يقرؤه . قس على ذلك الكثير من الأمور التي نحتاج فيها إلى الرجوع إلى أهل الشأن فيوفروا علينا وقتًا كثيرًا .

ب- استخدام بعض الوسائل الحديثة لإنجاز أعمالنا ، مثل : البريد الإلكتروني - ماسح ضوئي (Scaner) - الإنترنت - الجوال .

---

(١) انظر ورشة عمل إدارة الوقت ، ص ١١٣ .
(٢) انظر للقائد ، موضوع فن القراءة .

ج- السرعة في قضاء بعض حاجات النفس ، مثل : الكتابة ، والمشي ، والأكل .. قال الشيخ عبد الفتاح - رحمه الله - : « ولحفظ الوقت وكسبه ذكروا في أوصاف طالب العلم قديمًا أنه ينبغي أن يكون سريع الكتابة ، سريع القراءة ، سريع المشي » [1] ، ثم قال : « وزد عليها أن يكون سريع الأكل .. » . قال داود الطائي - وكان يستف الفُتَيْتَ [فتات الخبز] - : « بين سف الفُتَيْت وأكل الخبز قراءة خمسين آية » [2] .

٧ - مبادئ في تعامل السلف مع أوقاتهم :

لقد أدرك السلف أن الوقت هو حياتهم وأعمارهم فحرصوا عليه حرصًا شديدًا ، وعُنوا في حسن استثماره عناية كبيرة ، فكان حصاد ذلك علمًا نافعًا وعملاً وجهادًا مبرورًا ، وحضارة راسخة طوفت الدنيا مشرّقة ومغرّبة .

٧ - ١ : السرعة والاختصار في حاجات البدن وشهوات النفس :

ومن أهمها الأكل والنوم .. ويشير إلى هذا المبدأ الإمام أبي الوفاء عقيل الحنبلي - رحمه الله - تعالى : « وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتى أختار سف الكعك وتحسِّيه بالماء على الخبز ؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توفرًا على مطالعة ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه ، وإنَّ أجلَّ تحصيل عند العقلاء ، بإجماع العلماء : هو الوقت ؛ فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص ، فالتكاليف كثيرة » .

وقد أشار الحافظ السيوطي إلى هذا المبدأ في وصية شيخه الكناني له يوصيه إلى حاجة طالب العلم للسرعة في الأكل والمشي والكتابة كسبًا للوقت في بيتين قالهما :

حدثنا شيخنا الكناني عن أَبِهِ صاحب الخطابة

أسرِع أخا العلم في ثلاثٍ الأكلِ والمشي والكتابة

وشيخه الكناني المشار إليه هنا هو : الإمام قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكناني المصري الحنبلي - رحمهما الله تعالى - [3].

٧ - ٢ : الاشتغال بالمهم :

لما تزاحمت عليهم الأعمال ، وعلموا أن أعمارهم دون هممهم وآمالهم ، اشتغلوا بالأهم على المهم ، وبالراجح على المرجوح والفاضل على المفضول ، وإلى هذا المبدأ يشير الحافظ الخطيب البغدادي - رحمه الله - فيقول : « والعلم كالبحار المتعذر

(١) قيمة الزمن عند المسلمين ، ص ٦٤ .
(٢) صيد الخاطر ، ص ٦٠٤ .
(٣) قيمة الزمن عند المسلمين ، ص ٦٥ ، وانظر فن إدارة الوقت ، ص ١٢ .

كيلها ، والمعادن التي لا ينقطع نيلها ، فاشتغل بالمهم منه ، فإنه من شغل نفسه بغير المهم أضرّ بالمهم)) .

ويوضح العباس بن الحسن العلوي هذا المبدأ في نصيحة له يقول فيها : ((اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم ، وأن ما لك لا يغني الناس كلهم ، فخص به أهل الحق ، وأن كرامتك لا تطبق العامة - أي لا تعمهم وتتسع لهم - فتوخ بها أهل الفضل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما فأحسن سمتهما بين عملك ودعتك من ذلك ، فإن ما شغلت من رأيك في غير المهم إزراء بالمهم ، وما صرفت من ما لك في الباطل فقدته حين تريده للحق ، وما عمدت من كرامتك إلى أهل النقص أضر بك في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة)) (1) انتهى .

وعليه : فإن ((من العلم ما يكون خفيف العائد ، قليل الفائدة ؛ تحصيله كمال ، وفقده ليس بنقص ، ونفعه قليل ، والحاجة إليه أقل ، فمثل هذا لا تصرف فيه الأوقات ، فإن الاشتغال بالمفضول عائق عن الوصول إلى الفاضل الأفضل))(2).

٧ - ٣ : الغيرة الشديدة على الوقت :

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ((ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه ؛ نقص فيه أجلي ، ولم يزدد فيه عملي)) .

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي - رحمه الله - يقول : ((أثقل الساعات عليَّ : ساعة آكل فيها)) .

● وقال الفخر الرازي - رحمه الله - : ((والله إنني أتأسف في الفوت عن الاشتغال بالعمل في وقت الأكل ، فإن الوقت والزمان عزيز)) (3) .

٧ - ٤ : الاستدراك لما فات :

وربما فات بعضهم فرصة من طلب علم أو عمل صالح ، فيحاول أحدهم استدراكه عملاً بحديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ((**مَنْ نام عن حزبه من الليل ، أو عن شي منه ، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، كتبت له كأنما قرأه من الليل**)) (4).

---

(1) قيمة الزمن عند المسلمين ، ص ٦٢ .
(2) باختصار من المرجع السابق ، ص ٦٠ - ٦١ .
(3) عن فن إدارة الوقت ، ص ١٠ – ١٣ .
(4) رواه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض ، برقم : ٧٤٧.

٧ - ٥ : ملء الأوقات بالعمل الصالح :

لا فراغ لديهم ؛ فدائمًا يشغلون أنفسهم بالعمل لما خلقوا له ، والاستعداد لما هم قادمون عليه .

قال الخطيب البغدادي في إسماعيل بن إسحاق القاضي : « ما دخلت عليه قط إلا ورأيته وفي يده كتاب ينظر فيه ، أو يقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه » .

وهذا أبو نعيم الأصفهاني - رحمه الله - يقرأ عليه في الطريق ، وكذلك الخطيب البغدادي يقرأ في طريقه الجزء من الحديث .

قال ابن عقيل : « إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره » (١) .

خامسًا : من التطبيقات العملية للدرس :

١ - وضع مفكرة في الجيب يدون فيها المواعيد والأعمال اليومية والواجبات الأسبوعية .

٢ - التخطيط اليومي للأعمال مع تدوينها حسب أوقاتها وأهميتها في المفكرة .

٣ - الالتزام بالمواعيد والحضور إليها في أوقاتها دون تأخير .

٤ - الاستفادة من الأفكار العملية الواردة في الدرس لتوفير الوقت .

٥ - وضع مصحف صغير في الجيب لاستثماره في مراجعة الحفظ في أوقات الانتظار ونحوها.

٦ - اصطحاب بعض الكتيبات في السيارة للاستفادة منها عند الفراغ أو في أوقات الانتظار .

٧ - المحافظة على السنن الرواتب ، والإكثار من النوافل ، والالتزام بالورد اليومي من القرآن الكريم وأذكار الصباح والمساء .

٨ - الالتزام بالقراءة اليومية حسب منهج علمي يضعه المربي لطلابه .

٩ - عمل استبيان لتحديد مضيعات الوقت ، ومعادلة علاجها عبر لقاءات المناصحة بين الأخ وأخيه أو بين المربي وتلميذه .

١٠ - اعتماد مبدأ « ماذا استفدنا من مجلسنا هذا ؟ » في كل مجلس يجلس فيه الأخ ؛ وذلك له عدة فوائد ، منها :

---

(١) فن إدارة الوقت ، ص ١٤ – ١٥ ، وانظر أيضًا قيمة الزمن عند علماء المسلمين .

- وضع أهداف يراد تحقيقها من خلال تلك المجالس .
- دفع الأخ لتحضير فائدة يفيد بها إخوانه كلما التقى بهم .
- تقليل اللغو واللغط الذي يشغل بعض المجالس .

سادسًا : بعض مراجع الموضوع :

١ - سوانح وتأملات في قيمة الزمن ، الدكتور خلدون الأحدب ، الدار الشامية ، ط٤ .

٢ - الوقت في حياة المسلم ، يوسف القرضاوي ، مكتبة شمس ، ط٢ .

٣ - فن إدارة الوقت ، ناصر العديلي ، دار طيبة ، ط١ .

٤ - إدارة الوقت ، ناصر العديلي ، بدون ، ط١ .

٥ - معالجة الإسلام لوقت الفراغ ، أبو بكر إسماعيل ، مكتبة التوبة ، ط٢ .

٦ - الوقت عند المرأة ، جاسم المطوع ، مؤسسة الكلمة ، ط ١٤١٩هـ .

٧ - إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري ، خالد الجريسي ، مؤسسة الجريسي للتوزيع ، ط١ .

٨ - الترويح وأوقات الفراغ ، عبد الله السرحان ، بدون ، ط١ .

٩ - إدارة الوقت ، أ . دايل تيمب ، معهد الإدارة العامة .

١٠ - قيمة الزمن عند المسلمين ، عبد الفتاح أبو غدة ، دار القلم ، ط٣ .

١١ - أغلى من اللآلئ والجواهر والذهب ، ميسر بنت ياسين ، ط١ .

١٢ - ورشة عمل إدارة الوقت ، فاروق أحمد ، المركز السعودي للتنمية الإدارية الفنية ، ط١ .

١٣ - ١٢٥ طريقة لحفظ الوقت ، محمد صالح آل عبد الله ، دار التقوى ، ط١ .

١٤ - الشباب وأوقات الفراغ ، أحمد كرزون ، دار ابن حزم ، ط٤ .

١٥ - الخطة البراقة لذي النفس التواقة ، صلاح الخالدي ، دار القلم ، ط١ .

١٦ - كيف تقضي المرأة المسلمة وقتها ؟ ، سليمان العودة ، مؤسسة آسام ، ط٢ .

١٧ - أين وكيف تقضي الإجازة ؟ ، رياض الحقيل ، دار الصميعي ، ط١ .

١٨ - نظرات في مشكلات الشباب وكيفية معالجتها ، حمزة الفهر ، دار الأندلس الخضراء ، ط٢ .

١٩ - وقفات مع الوقت وكيفية استغلال الفراغ ، عبد الإله داود ، دار الصميعي ، ط١ .

٢٠ - كيف تستثمر الوقت ، عائض القرني ، مكتبة دار الضياء ، ط١ .

٢١ - كيف تدير وقتك ؟ ، صلاح الدين محمود ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط١ .

٢٢ - الوقت عمار أو دمار ، جاسم المطوع ، دار الدعوة ، ط١ .

٢٣ - استثمار الوقت ، صفاء جلال وآخرون ، دار الصحابة للتراث ، ط٢ .

٢٤ - كيف تستغل وقتك ؟ ، محمد كرسوم ، بدون ، ط١ .

٢٥ - صيد الخاطر ، ابن الجوزي ، دار اليقين ، ط١ .

٢٦ - رياض الصالحين ، الإمام النووي ، دار الفكر المعاصر ، ط٢ .

٢٧ - التربية الترويحية في الإسلام ، أحمد أبو سمك ، دار النفائس ، ط١ .

٢٨ - الترويح التربوي ، خالد العودة ، دار المسلم ، ط١ .

٢٩ - تأملات تربوية في فقه الدعوة الإسلامية ، موسى الإبراهيم ، دار عمار ، ط١ .

٣٠ - خلق المسلم ، محمد الغزالي ، الاتحاد الإسلامي العالمي ، بدون .

٣١ - أحاديث المحراب (الجزء الأول) ، جاسم الياسين وأحمد السكري ، دار الدعوة ، ط١ .

٣٢ - مجلة الأسرة ، مقال بعنوان : إن الحياة دقائق وثوان ، عدد رقم : ٥٧ ، ذو الحجة ١٤١٨هـ، ص (٥٤ – ٥٦) .

٣٣ - مدارج السالكين ، ابن القيم ، دار الجيل ، بدون .

٣٤ - الرسالة القشيرية ، عبد الكريم القشيري ، دار الجيل ، ط٢ .

٣٥ - الهمة طريق القمة ، محمد حسن عقيل ، دار الأندلس الخضراء ، ط٢ .

٣٦ - الوقت هو الحياة ، عبد الستار نوير ، دار الثقافة ، ط١ .

٣٧ - الفوائد ، ابن القيم ، دار النفائس ، ط١ .

بالإضافة إلى عشرات الكتب في التفسير والحديث وشروحه ، والمعاجم اللغوية ، والفهارس في الحديث والرجال ؛ بعضها أشرت إليه في ثنايا البحث ، وكثير منها لم أشر إليه حتى لا يطول فهرس المرجع .